أحمد الشهاوي

سَلاطينُ الوَجْد

دولةُ الحُبِّ الصُّوفي

الدار المصرية اللبنانية

سَلاطينُ الوَجْد

دولةُ الحُبِّ الصُّوفِي

الشهاوي، أحمد،
سلاطين الوجد: دولة الحب الصوفي/ أحمد الشهاوي.- ط1.-
القاهـرة: الـدار المصريـة اللبنانيـة، 2022.
280 ص؛ 21 سم.
تدمك: 0 - 361 - 795 - 977 - 978
1- التصوف الإسلامي.
أ- العنوان. 260
رقم الإيداع: 2596 /2022

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + – ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: 2022 م
تصميم الغلاف الفنان: وائل حمدان

أحمد الشهاوي

سَلاطينُ الوَجْد

دولةُ الحُبِّ الصُّوفي

الدار المصرية اللبنانية

أحمد الشهاوي

سَلاطينُ الوَجْد

دولةُ الحُبِّ الصُّوفي

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى

نوال عيسى

الواجِدة الأولى

إلى

أحمد أحمد الشَّهاوي

صاحبُ الوجْد

القاهرة

15 من أغسطس 2021 ميلادية

بَدْءٌ أَوَّل

من لا وَجْدَ لهُ لا يُعوَّلُ عليه

«مَن لا وجْدَ له لا دِينَ له»، مقولةٌ منسوبةٌ إلى عليّ بن أبي طالب (13 من رجب 23 قبل الهجرة /17 من مارس 599 ميلادية - 21 من رمضان 40 هجرية / 27 من يناير 661 ميلادية)؛ لأن مَن به وجْد فهو في حالِ شغفٍ، ومَن أَرَّقَهُ الوَجْدُ فهو في الْحُبِّ، وفي اللُّغة نقولُ: وَجَدَ به وَجْدًا أي أحبَّه، ووَجَدَ فلانٌ وَجْدًا أي حَزِن. ومَن وَجَدَ بِحَبِيبَتِهِ يعني أنه أَحَبَّهَا حُبًّا شَدِيدًا، و الوجد هو شغف المُحب بمحبوبه.

والوَجد مرحلةٌ من مراحل الحُب المُتطورة، وتدلُّ على مُداومة التفكير في المحبُوب، وعدم القدرة على نسيانه.

وقال قيس بن الملوَّح، الملقَّب بمجنون ليلى (24 هجرية /645 ميلادية - 68 هجرية /688 ميلادية):

هَـلِ الوَجـدُ إِلّا أَنَّ قَـلبِـيَ لَو دَنـا

مِنَ الجَمرِ قَيدَ الرُّمحِ لَاحتَرَقَ الجَمرُ

وخلال أسفاري المُتتابعة إلى اليمن، وجدتُ أسماءً لقرى ومدن ومناطق وأحياء تشيرُ إلى الحُب والجسد ومُشتقاتهما مثل: جبل النهدين، ويقع في العاصمة اليمنية صنعاء، وجزيرة النهدين وهي إحدى جُزر اليمن، وتُقسَّم إداريًّا كأحد أحياء مديرية المعلا بمحافظة عدن، وبيت بوس، وهو أحد أحياء مدينة صنعاء في الجهة الجنوبية الغربية منها، والوجْد وهي إحدى القرى التي تتبع جغرافيًّا محافظة تعز.

وتعني مفردة وجْد السّعة ويُسر الحال، والحُبّ الشديد، والمال الوفير، والحُزن الّذي ألمّ به، والقدرة الكبيرة، والعُثور على الضَّالّة.

ويُطلق هذا الاسم - غالبًا - على الإناث، ويُطلق على الذّكور وجدي.

ووجد ووجدي يحملان المعنى نفسه، ومن الأسماء القريبة لـ«وجْد»، وَجيدة، وأَجْيَد، وواجدة، ووِجْدان.

وهناك فرقٌ كبيرٌ بين الوجْد والتواجُد؛ فالتواجُد فيه التصنُّع، التباكي، التمارُض، التغابي.

والتواجُد هي أول مرتبة؛ لكنَّها أضعفُ المراتب، وقد اختلفَ العُلماء فيها: هل هي مقبولة أم

مرفوضة؟

فإذا أرادَ أحدهم بالتواجُد أن يكتسبَ ثناءَ الآخرين فهي حالٌ مرفوضة، أمّا إذا أرادَ بالتواجُد أن يصِلَ من خِلالها إلى حقيقة الوجْد فهي حالٌ مقبولة، طبقًا لـ: «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ».

والتواجُد نِفاقٌ ورياءٌ، ومحاولة إدراكِ وانتزاعِ إعجاب الناس لابتزاز مشاعرهم وأموالهم.

والوجْد لغةً معناه انفعال القلب، و المصدر: وَجَدَ بالشَّيء وجدًا، وهو بخلاف «الوجُود»؛ فإنه مصدر وَجَدَ الشَّيء وجُودًا ووجدانًا.

والوجْد كما يراه أهلُ الوقت: «ما صادف القلب من فزعٍ أو غمٍّ أو رؤية معنى من أحوال الآخرة»، وهو: «لهبٌ يتأجَّجُ من شهود عارض القلق»، أو: «ما يصادف القلب ويرِد عليه، بلا تكلُّفٍ وتصنُّعٍ...».

والوجْد محله القلب، مثل سائر الوجدانيات كالفرح والحُزن والألم وغيرها.. وقد استخرج الصوفيون معنى الوجْد من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، (سورة الحج، الآية: 46)، فقد استخلصوا من الآية أنَّ القلوبَ نوعان: قلوب عمياء لا ترى، وقلوب مبصرة ناظرة، أو: قلوب تجد، وقلوب لا تجد، وما يسمعه القلب ويبصره هو المعبر عنه بوجْد القلوب.

والوجْد معناهُ الحُزن، وهو صفة العارفين، و نار الشَّوق للطالبين، وللوجْد مراتب هي: التواجُد، والوجْد، والوجُود وهو المرتبة العليا والأخيرة.

أما الوِجْدَانُ فيُطلَقُ أَوّلًا على كُلِّ إحساسٍ أَوَّلِيٍّ باللَّذَّة أَو الأَلم. وثانيًا على ضَرْبٍ من الحالات النفسيَّة من حيثُ تأَثُّرُها باللَّذَّة أَو الأَلم في مقابل حالاتٍ أخرى تمتازُ بالإدراك والمعرفة.

ويرى القشيري (376 - 465 هجرية = 986 - 1072 ميلادية) أن التواجُد هو استفعال الوجْد، وهو ما يمتزجُ من اكتساب العبد بالاستدعاء للوجْد.. وتكلفه للتشبه بالصادقين من أهل الوجْد.

ويقول إن استدعاء الوجْد بضرب اختيار، وليس لصاحبه كمال الوجْد، إذ لو كان لكان واجِدًا.

وكل ما يستولي على قلب صاحبه ذكره فهو يشاهده: فإن كان الغالب عليه العلم فهو يشاهد العلم. وإن كان الغالبُ عليه الوجْد فهو يشاهد الوجُود.

ويقول: إنَّ الوجْد هو ما يصادفُ القلب من غير تعمُّدٍ، ولا تكلفٍ من العبد، وهو أشبه بنسيمٍ هفهافٍ يهب من لدن الحبيب، قال يعقوب: إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ، وأحيانًا يكونُ أشبه بنيران الأنس تثيرها رياحُ القدس.

ويقولُ: إنَّ الوجْدَ هو ما يجده الإنسانُ ويصيبه في قلبه من الأحوال من غير تطلُّبٍ ولا تكلُّفٍ.

وقيل: إنَّ الوجْدَ هو مكاشفة الأسرار بمشاهدة المحبوب. وقيل: إنَّ الوجْد هو وجُود نسيم الحبيب.

أما ابن العربي (560 - 638 هجرية / 1165 - 1240 ميلادية) فيقول: إن التواجُد هو استدعاء الوجْد، وإظهار حالة الوجْد، من غير وجْدٍ لأنس يجده صاحبه؛ لأنه تعمل في تحصيل الوجْد، فإن ظهر على صاحبه بصورة الوجْد، فهو كاذبٌ مُراءٍ منافقٌ لا حظَّ له في الطريق.

ويقول ابن العربي: «علومنا غير مقتنصةٍ من الألفاظ ولا من أفواه الرجال ولا من بطون الدفاتر والطروس، بل علومنا عن تجلياتٍ على القلب عند غلبة سلطان الوجْد، وحالة الفناء بالوجُود، فتقوم المعاني مثلًا وغير مثل على حسب الحضرة التي يقع التنزُّلُ فيها، فمنها ما يقع من باب المحادثة، ومنها ما يقع من باب المُسامرة، ومن باب ما لا ينقال ولا ينقال».

ويقول كمال الدين القاشاني (توفي نحو 730 هجرية / نحو 1330 ميلادية): إن التواجُد هو استدعاء الوجْد، واستجلابه بالتفكُّر والتذكُّر. وقيل: إظهار حالة الوجْد من غير وجْدٍ، وهذا ممَّا لا خير فيه.

ويقول السراجُ الطوسيُّ (توفي 378 هجرية / 988 ميلادية): إن التواجُد والتساكُر قريبا المعنى، وهو ما يمتزجُ من اكتساب العبد بالاستدعاء للوجْد والسُّكْر، وتكلفه للتشبُّه بالصادقين من أهل الوجْد والسُّكْر. و يقول: إنَّ الوجْد «مكاشفاتٌ من الحق ألا ترى أنَّ أحدهم يكون ساكنًا فيتحرَّك، ويظهر منه الزفيرُ والشهيق، وقد يكون مَن هو أقوى منه ساكنًا فيوجده لا يظهر منه شيء من ذلك». وصفو الوجْد: هو أن لا يعارضه في وجْدِه شيء غير وجوده.

وسُئل أبو جعفر الصفَّار (توفِّي عام 290 هجرية بمدينة قم): ما التصوفُ؟

فقال: لائحٌ لاح فاصطلم، وأشباحٌ إذا أقلقهم الخوف ناحُوا، وإذا أزعجهم الوجد صاحُوا، وإذا أدهشهم الحُبُّ ساحُوا، وإذا غلبهم الوجْد باحُوا.

أما طاهر المقدسي (448 – 507 هجرية) فقال: سُميت الصُّوفية بهذا الاسم لاستتارها عن الخلق بلوائح الوجْد، وانكشافها بشمائل القصْد.

بينما الجُنيْد (215 - 298 هـجرية) فيقول: لا يضر نقصان الوجْد مع فضل العلم، وإنما يضر فضل الوجْد مع نقصان العلم. وسرعة الوجْد من خصال التصوف وسماته؛ لأنَّ صحة القصد بدوام الوجْد.

ويرى عبد الكريم الجيلي (767-826 هجرية) أن الواجد: إن كان واجدًا حقيقيًّا، وجد الكمالات الإلهية، أي: التي تنبغي له عنده، كما وجد جميع المقتضيات عنده، فلا وجدان أعظم من وجدانه.

والوَجْد كما يقول أبو الحُسيْن النوري (295 هجرية /907 ميلادية): «لهيب ينشأ في الأسرار، ويسنح عن الشَّوق، فتضطرب الجوارح طربًا أو حُزنًا عند ذلك الوارد».

يقول أبو بكر الشبلي (247 هجرية /861 ميلادية): الوجْد فقْد، والفقد في الوجْد وجْد.

ويقول عبد القادر الجيلاني (470 - 561 هـجرية): إنَّ الوجْد هو أن تشتغل الرُّوح بحلاوة الذكر، وتشتغل النفس بلذَّة التطريب، ويبقى السرُّ فارغًا من السوى للحبيب، خاليًا من الرقيب للحق مع الحق. والوجْد شرابٌ يسقيه المولى لوليه على منبر كرامته، فإذا شرب طاش، وإذا طاش طار قلبه بأجنحة الأُنس في رياض القُدس، فيقع في بحر الهيبة، فيصرع، فلذلك يُغشى على الواجد.

ويقول إن الوجْد جحودٌ ما لم يكن عن شهودٍ.

وعنده أن أهل الوجْد على مقاميْن: أحدهما، كأنه ناظرٌ، والآخر منظورٌ إليه. فالناظرُ كأنه مُخاطب، والمنظورُ إليه كأنه مغيبٌ. فمنهم: مَن يضطرب وهو يشاهد الذي وجده، ومنهم: مَن غيَّبه الحق بأول ما ورد عليه.

ويقول أبو القاسم النصراباذي (مات في ذي الحجة سنة 367 هـجرية): مواجيد القلوب تظهر بركتها على الأبدان، ومواجيد الأرواح تظهر بركتها على الأسرار.

أمَّا الوجدان في اللغة أي: النفس وقواها الباطنة.

وهي ضربٌ من الحالات النفسية من حيث تأثرها باللذة أو الألم في مقابل حالاتٍ أخرى تمتازُ بالإدراك والمعرفة.

ورأى أحمد بن عجيبة (1162 - 1224 هـجرية / 1748 - 1809 ميلادية) أنَّ الوجدان: هو دوام حلاوة الشُّهود، واتصاله مع غلبة السكر والدهش.

والشَّريف الجرجاني (740- 816 هـجرية / 1339 -1413 ميلادية) يقول: إنَّ الوجدانيات: هي ما تكون مُدرَكة بالحواس الباطنة.

ويقول ابن العربي: إن الوجْد الحاصل عن التواجُد لا يُعوَّل عليه. والوجود الذي يكون عن مثل هذا الوجْد لا يُعوَّل عليه، وعالم الوجدان: هو عالمٌ بين اليقظة والمنام... وهو العالم المتوسط.

أما أبو الحسن الشاذلي (593 هجرية / 1196 ميلادية - 656 هجرية / 1258 ميلادية) فيقول: إنَّ حقيقة الوجْد: نارٌ تتوقدُ في الأسرار فيحترق به الأغيار.

وقد اخترتُ لكتابي اسم «سلاطين الوجْد»، وكنتُ قد نشرتُ في السَّابع عشر من يونيو سنة 2017 ميلادية نصًّا أو شهادةً في جريدة «المصري اليوم» عنونتها بـ«سلاطين الوجْد يكتبون شرْعَ الهوى».

وسَلاطينُ جمع سُلطان، والسُّلْطَانُ: الملِكُ أَو الوالي، أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، والسُّلْطَانُ: قوّة ونفوذ وسيطرة.

والسُّلطة، وجمعها: سُلُطَاتٌ، سُلَطٌ، وهي التَّسَلُّطُ والسيادة.

والسُّلْطَان في اللغة اسم عَلَم مذكَّر عربي معناه: الحُجَّة، القدرة، التسلط، الملك. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 22] أي من حجة، وقد ورد ذِكْر مفردة سلطان بتشكيلاتٍ مختلفةٍ في سبع وثلاثين موضعًا من القرآن بمعانٍ عديدةٍ.

لكن المتصوفة هم أصحاب السُّلطة الرُّوحيّة بسلوكهم وأفعالهم ونتاجهم الشِّعري أو النثري وكراماتهم الصوفية، والتصوُّف هو الثورة الرُّوحية في الإسلام، بحسب تعبير أبي العلا عفيفي.

«يا مليح الدَّلِ والغُنُج

لك سلطانٌ على الـمُهج»

فلقد استحق المتصوفة لقب (السلطان)؛ لأنهم سلاطين زمانهم، ولأن كل سلطان صوفي يرى نفسه سلطان زمانه، أو هو بالفعل هكذا، فقد وقع الصدام بينهم وبين «سلاطين السياسة» من الخلفاء والحُكَّام والأمراء، ولذا عاش سلاطين الصوفية تحت سيف هؤلاء المتسلِّطين، فكانت النتيجة المباشرة أنَّ منهم من قُتِل، ومنهم من سُجِن، ومنهم من نُفِي، ومنهم من عُذِّبَ وأُهِين، وقد كان أوائل الصوفية ينفرُون من السَّلاطين والأمراء، وأنا هنا أقدِّم ثلاثةً من سلاطين الوجْد، عشتُ معهم زمنًا ممتدًّا من حياتي، ومع آخرين أثَّرُوا فيَّ، وأثْرُوا تجربتي، وسأخصِّص لهم كتبًا، وأنا لا أكتبُ عن مُتصوفةٍ أحبُّهم بقدر ما أكتبُ عن أهلٍ لي، كان لهم فضلٌ كبيرٌ عليَّ منذ صِباي في قريتي كفر المياسرة؛ حيث سلكتُ الطريقَ الصُّوفيَّ في سنٍّ مبكِّرة، والمتصوفة الثلاثة محور هذا الكتاب هم: ذو النون المصري، وأبو بكر الشبلي، والنفَّري، الذي عاصر المتنبي وتوفي معه في

سنةٍ واحدةٍ هي 354 هجرية /965 ميلادية، رأيتُ أنهم كانوا سلاطينَ في زمانهم، ولهم سطوةٌ رُوحية على مَن عاصرهم. وكانت كلمتهم مسموعةً عند الناس؛ لأنهم لم يتقرَّبوا من سلطانٍ جائرٍ ظالمٍ، ولم يتربَّحوا منه.

إنهم أربابُ الحقائق، وليسوا من «أهل الظَّاهر» أو «أهل الرُّسُوم»، إنَّهُم «رجال قطعهم الله إليه وصانهم صيانة الغيرة عليهم؛ لئلا تمتد إليهم عين فتشغلهم عن الله. لقد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين» بتعبير محيي الدين بن العربي، الذي كان من ضمن أسمائه «سلطان العارفين»، مثلما كان اسم عمر بن الفارض «سلطان العاشقين».

بَدْءٌ ثانٍ

ما الحُبُّ إلَّا مقامٌ إلهيٌّ

ما الحُبُّ العذريُّ إلا تصوفٌ أو طريقٌ إليه.

وما الحُبُّ إلا مقامٌ إلهيٌّ؛ لأنَّ «المحبة أصلُ جميع المقامات والأحوال»، و«أكمل مقامات العارفين»، والنبي محمد ﷺ يقول في الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ».

وفي الحُبِّ يُعوِّل المرءُ على القلبِ أكثر ممَّا يُعوِّل على العقلِ الذي قد يمثِّل حجابًا كثيفًا على الذات حين تفكِّر والرُّوح حين تشتغلُ؛ فالحب يهتك ما استتر، ويكشفُ ما هو مخبوءٌ، أو ما هو سريٌّ.

والذات العليا للإله تتمثَّل في الحب. وبالمحبة يقتربُ الإنسانُ من الله.

و«العاشق يسلبُهُ عشقهُ للكمال عن لذة المطعم والمشرب والنوم وهي من الأمور الضرورية للجسم. بل يحصل للنفس من الطرب والسرور بما هي فيه من اللذة الروحانية»، «وعند ذلك تتسلط عليه دواعي الشوق إلى استكمال وصال هذه النفس المعشوقة والاتحاد بها. إذ وصال الأرواح اتحادها الذي معناه قربُ المناسبة بين النفسين حتى لا يخطر للعاشق أن ذاته شيء غير ذات محبوبه، بل يعتقد أنه هو. وبحصول هذا الاتحاد يزول معنى الفراق الذي هو عذاب النفوس. فالفرقة عذابٌ ولا سيَّما فراق المُشاكِل. وكلما هاج الشوق انزعجَ القلب إلى كمال الوصال، والوصالُ وصال الأرواح لا مجرد لقاء الأجسام».

كما يشير عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بـ«ابن الدباغ (605-699 هجرية)» في كتابه «مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب»، الذي رأى في كتابه هذا أنَّ «المحبة لا يُـعبِّرُ عنها حقيقةً إلا من ذاقها. ومن ذاقها استولى عليه من الذهول عن ما هو فيه أمرٌ لا يمكنه معه العبارة». وأنَّ «حقيقة المحبة أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب»، وأنَّ «المحبة أن تهب كُـلِّيتكَ لمحبوبك فلا يبقى لك منك شيء».

وأنا أحاول مع الشَّاعر الروماني فرجيل (15 من أكتوبر 70 قبل الميلاد - 21 من سبتمبر 19 قبل الميلاد) أن أقول في هذا الكتاب: «الآن أجدني أعرف ما هو الحب؟».

فالحُبُّ لغةً كما جاء في لسان العرب لابن منظور (1232 - 1311 ميلادية - 630 - 711

هجرية): «نَقِيضُ البُغْضِ. والحُبُّ الودادُ والـمَحَبَّةُ، وكذلك الحِبُّ بالكسر.. وأَحَبَّهُ فهو مُحِبٌّ، وهو مَحْبُوبٌ.. والـمَحَبَّةُ أَيضًا: اسم للحُبِّ».

والحُبُّ الصُّوفيُّ أصلُ وجود الحُبِّ في العالم؛ لأنه مظهر للحب الإلهي؛ لأن الحُبَّ بطبيعته «أصل الموجودات»، الحُب المنبثق من الحقيقة والباطن، والمحبة هي من أعمال الباطن، والمتصوفة هم أهل المحبة ويُنسبون إليها. والحب عند المتصوف أسلوب حياة، ودليل المعرفة الصوفية التي تعكس حال القلوب السامية.

ويرى عبد الكريم الجيلي (767 هجرية / 1365 ميلادية - 832 هجرية / 1428 ميلادية) في كتابه «الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل» أن اسم الله مشتق من فعل «أَلِهَ.. يَأْلَهُ» بمعنى «عَشِق.. يعشق»؛ لذلك كان حنين الصوفي للعودة إلى أصله الإلهي هو ذاته الميل إلى الذوبان في الحب كحقيقة أو مبدأ كوني؛ فحُب الألوهية يخفي في ذاته حبًّا للحب نفسه، بكل أشكاله؛ لأن الله هو الحب المُطلق».

وبالحب - الذي هو منحة إلهية - يستطيع مَن يحبُّ أن يصل إلى الحقيقة المطلقة التي يريدها ويسعى إليها، ليسكن النقطة الأعلى من فردوسِ الرُّوح.والنبي محمَّد يقول: «جُبِلت القلوب إلى حبِّ مَن أحسن إليها».

وليس محيي الدين بن العربي وعمر بن الفارض بعيديْن عن ذهني حين أقول إنهما انطلقا إلى سماء الله من سماء خلقه: وهي المرأة «حيث اتخذا من الحب العذري والعشق الإنساني طريقًا إلى الحُب الإلهي والعشق الرباني».

فما المرأة كمخلوقٍ عالٍ، وكائنٍ سامٍ إلا مجْلَى من المجالي الربَّانية، وصورةٌ من صور الجمال السَّماوي القدسي، ومن هنا يأتي تقديس المرأة في الحُبِّ.

وقصة حُب ابن العربي لـ«النظام» معروفةٌ، وقد سجَّلها في ديوانه «ترجمان الأشواق»:

«لَوْلاَ جَمَالُكِ مَا تَهَتَّكَ سِرُّ عَاشِقٍ

بَلْ كُلُّ مَعْشُوقٍ عَلَيكِ دَلِيلُ»

«أدين بدينِ الحبِ أنّى توجَّهَت ركائبُهُ

فالحبُ ديني وإيماني»

«الحبُّ يُنسَبُ للإنسانِ واللهِ

بنسبةٍ ليس يدري عِلْمُنا ما هِي

الحبُّ ذوقٌ ولا تُدرى حقيقتهُ

أليسَ ذا عجبٌ واللهِ واللهِ

لوازمُ الحبِّ تكسوني هويّتها

ثوبَ النقيضيْن مثل الحاضرِ الساهي

بالحبِّ صحَّ وجوب الحقِّ حيث يُرَى

فينا وفيه ولسنا عيْن أشباهِ»

وابن العربي في شعره مثل ابن الفارض الذي يقولُ:

«وَعَنْ مَذْهَبِي فِي الحُبِّ مَا لِي مَذْهَبٌ

وَإِنْ مِلْتُ يَوْمًا عَنْهُ فَارَقْتُ مِلَّتِي

وَلَوْ خَطرَتْ لِي فِي سِوَاكَ إِرَادَةٌ

عَلَى خَاطِرِي سَهْوًا قَضَيْتَ بِرِدَّتِي»

ويقول ابن الفارض:

«إنَّ الغرامَ هو الحياةُ فمُتْ بهِ»

يمزجُ بين عشقه لامرأته وعشقه السَّماويِّ أو الربَّاني أو الإلهيِّ أو الصُّوفيِّ، كما أنه من السهل أن نقولَ عن عشقٍ إنسانيٍّ لامرأةٍ إنه عشقٌ صوفيٌّ إذا كان فيه فناءٌ واتحادٌ وحلولٌ بحيث يصيران رُوحيْن حَلَّا في بدنٍ واحدٍ: «أنا مَن أهوى ومَن أهوى أنا/نحنُ رُوحانِ حَلَلْنا بدَنَا» بتعبير الحلَّاج. بحيث لا يصير هناك عابدٌ ومعبودٌ، أو عاشقٌ ومعشوقٌ، حيث يحدث الانصهار في بوتقة العشق، ويندمجان معًا؛ للوصول إلى أعلى مدارج الكمال، ذلك الكمال الذي فُطِرَ الإنسان عليه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الآية 30 من سورة الروم).

ويوضح ذلك الاتحاد ابن العربي حين يقول: «الإنسان صورة من الله؛ لأنه نفخ فيه من روحه، فما يشتاق إلا إلى نفسه.. ثم اشتق له منه شخصًا على صورته سمَّاه امرأة، فظهرت بصورته فحنَّ إليها حنينَ الشيء إلى نفسه، وحنَّت إليه حنين الشيء إلى وطنه. فحُبِّبتْ إليه النساء...» ويقول في موضعٍ آخر من «فصوص الحكم»: «أعظم ظهور لله تعالى هو تجلِّيه في المرأة للرجل وفي

الرجل للمرأة».

فللعشق لغة لا ينطق بسواها، ولا يفهمها إلا أهلها، كما يقول جلال الدين الرومي.

والنظر إلى وجه المرأة الجميلة التي تفتنُ عبادةٌ، وهو نظرٌ وتفكُّرٌ في إعجاز الخالق الذي ركَّبَ وصوَّر في أحسن تقويمٍ، وفيه اعتبارٌ واستدلالٌ على عظمة المُصوِّر. «وإن أحببت الجمال فما أحببت إلا الله تعالى فإنه الجميل» كما يذكر ابن العربي. الذي يرى أنَّ «الحب لا يتعلق إلا بمعدومٍ يصحّ وجوده، وهو غير موجود في الحال، والعالم مُحدَث، والله كان ولا شيء معه، فكان الحبُّ أصل سبب وجود العالم، والسماع سبب كونه، وبهذا الحب وقع التنفّس، وأظهر العالَمُ نَفَس الرحمن، لإزالة حكم الحبّ، وتنفّس ما يجد المحب، وخرج ذلك النفَس عن أصل محبة في الخلق، الذي يريد أن يتعرف إليهم فيعرفوه، فكان العماء المسمّى بالحقّ المخلوق به، فكان ذلك العماء جوهر العالم، فقبل صور العالم وأرواحه وطبائعه كلها، وهو قابل لا يتناهى، فالعماء من تنفسه، والصور المُعبَّر عنها بالعالم من كلمة كُنْ، فالمحبة مقامها شريف، وهي أصل الوجود».

يقول ابن عطاء الله السكندري (658 هجرية/1260 ميلادية - 709 هجرية /1309 ميلادية):

«غرست لأهل الحب غصنًا من الهوى

ولم يكُ يدري ما الهوى أحد قبلي»

وفي رسالته «ما لا يُعوَّل عليه» يقول محيي الدين بن العربي: «كل محبة لا يُؤْثِر صاحبها إرادة محبوبه على إرادته فلا يُعوَّل عليها»، و«كل محبة لا يلتذّ صاحبها بموافقة محبوبه فيما يكرهه في نفسه طبعًا لا يُعوَّل عليها»، و«كل حبّ لا ينتج إحسان المحبوب في قلب المحبّ لا يُعوَّل عليه»، و«كل حب يُعرف سببه فيكون من الأسباب التي تنقطع لا يُعوَّل عليه»، و«كل حبّ يكون معه طلب لا يُعوَّل عليه»، و«كل حبّ لا يتعلق بنفسه وهو المسمَّى حبّ الحبّ لا يُعوَّل عليه»، و«كل حب لا يفنيك عنك ولا يتغير بتغير التجلي لا يُعوَّل عليه»، و«كل حبّ تبقى في صاحبه فضلة طبيعية لا يُعوَّل عليه»، و«كل شهوة غير شهوة الحب لا يُعوَّل عليها»، و«كل شوق يَسكُن باللقاء لا يُعوَّل عليه»، و«المحبة إذا لم تكن جامعة لا يُعوَّل عليها».

سلاطين الوجْد

يكتبون شرع الهوى

يسلك الشَّاعر الصُّوفي طريق المعرفة، ولا يرى طريقًا غيرها؛ ليعبِّر عن بواطنه وأشواقه، حين يكون في مقام الإشراق؛ إذْ إنَّ نصوصه نشيدٌ طويلٌ للعشق، والجمال المطلق.

ويعيش الشَّاعر حياته متقشفًا زاهدًا قانعًا بما اصطادت روحه في حياته، ونصِّه، حيثُ لا يبحثُ عن منصبٍ أو جاهٍ؛ لأنه باع كل ذلك في سبيل أن يكون سالكًا في طريقٍ رُوحيةٍ شائكة وشائقة، وطويلة مداها، يمضي في مدارج التجريد، ذاهبًا نحو أودية المستضعفين، الفارِّين من زحام التكالُب والتخالب على عظام الحياة العارية.

كما يعيش في مقامٍ خاصٍّ، معتزلًا، منتظرًا فتحًا وكشفًا وفيضًا يترادف ولا ينقطع؛ إذ إنَّ شِعرَ الصوفي نسخةٌ من مواجيده، يُعبِّر به عن رؤاه، أو هو صورة شعرية لنثره الفكري، ونظره إلى الوجود والحقيقة، يبتعد عن التصنُّع والتكلُّف، وإن كانت «الصناعة» قد تسرَّبت في أجساد أكثر من ديوان لشعراء التصوف، ربما لأن بعضهم كعمر بن الفارض (576 هجرية/1181ميلادية – 1235 ميلادية)، كان يعيش في عصرٍ كثرت فيه المحسِّنات البديعية، وأنواع الجناس، والولع باللفظ، حيث عاصر ممثِّلين لذلك التيار في زمانه، ومنهم القاضي الفاضل، والعماد الأصبهاني، وبهاء الدين زهير، وابن سناء المُلك.

وقد ترك ابن الفارض ديوانًا واحدًا هو الأشهر بين شعراء التصوف، أو بمعنى أدق لم يصل إلينا غيره من كتبٍ، ولولا ابنه، وجمعه لشعر أبيه، لحُرِمنا من ألفٍ وثمانمائة وخمسين بيتًا.

وإذا كان الشاعر الصوفي من ذوي الكشف، يرى فناء نفسه في حالة سُكرٍ ووجْدٍ، فهو ابنٌ للشَّطح، الذي ليس وهمًا ولا تخيُّلًا، بل صار هو المرآة، وهو أبعدُ زمنًا من تلك النظرة الضيِّقة التي يراها كارهو التصوُّف والصوفية، وهو قوتُ الشاعر وزاده كمسافرٍ في الأزمنة والأمكنة، خُصوصًا ذاته التي هي المصدر، والمكان الأول الذي يحتضن كل كلمة تُولد، فشطح الشاعر من قوة وجْدِه، وفيضان بحره، حتى لا يعود يطيق (ما يردُ على قلبه من سطوة أنوار حقايقه)، يقول صاحب كتاب «اللُّمع» أبو نصر السراج الطوسي (توفي 378 هجرية/988 ميلادية) في شطح الصوفية – ومنهم شعراء التصوف بالطبع - وقد يكونون في مقدمتهم: (... وصف وجْدٍ فاضَ بقوته، وهاج بشدة غليانه وغلبته...)، ويعتبر ابن خلدون (1332 - 1406ميلادية) الشاطحين من المتصوفة (ومنهم شعراء الصوفية): «أهل غيبة عن الحس، فالواردات تملكهم حتى ينطقوا بما

لا يقصدون».

الشاعر الصوفي - إذن - هو المُتحرِّر من رقِّ الأغلال، الناطق عن سرِّه؛ لأن «النقش هو النقَّاش»، في يديه جِنان الفردوس، وجنون جحيم الشطح، فهو كاشفٌ للحقيقة المطلقة، التي تتجلى في العرفان الوجداني والمعرفة الذوقية واللدنية التي يعتبرها بيان عشقه واتصاله، ووصله بمن يعشق.

ويُودِع الشاعر العارف سرَّه في نصه، معتمدًا مبدأ الذوق والمعرفة، أي «مَن ذاق عَرَف، ومَن عَرَف اغتَرَف»، ولا يمكن أن يتحقَّق ذلك إلا عبر ظاهر الأشياء، ولكنه يُعوِّل على الباطن، باطن المحبة باعتبارها مقام الشاعر الأعلى مكانةً ومرتبةً، حيث يمحو من قلبه ما سوى محبوبه، الذي يستولي ذكره على كُلِّه؛ حتى لا يبقى منه شيء لغير مَن يعشق.

والشاعر السَّكران بخمرةٍ رُوحية، تلك الخمرة الرامزة إلى العشق المُقدَّس، والتي هي أزليةٌ تشربها الروح فتنتشي وتثمل، حيث تسكر العقول «بما يُلقَى إليها من العلوم والحقائق العرفانية»:

«شَربنا عَلى ذكر الحبيبِ مُدامةً

سَكِرنا بها مِن قبل أن يُخلَقَ الكَرْمُ»

«وقالوا: شربتَ الإثمَ كلّا، وإنّما

شربتُ الّتي، في تركها عنديَ الإثمُ»

«فلاعيشَ في الدنيا لِمَن عاشَ صاحيا

ومَن لم يمُت سُكرًا بها، فاته الحزمُ»

والشاعر المُتجرِّد من الجسد والمادة، يكشف الحُجب، كي يرى محبوبه، ويفنى فيه:

«وأمّـا الذي أنْتَ أهلٌ لَهُ

فَلَسْتُ أرىٰ الكَوْنَ حَتىٰ أراكْ»

والحُب – الذي فيه أُنس القلب – هو هِبةٌ، ومِنَّةٌ، وعطيَّةٌ، ورزقٌ، ومُصادفةٌ إلهيةٌ، وليس كسبًا، يمكنُ للمرء أن يحصده، أو يتحصَّل عليه، لكنه بذرةٌ تسقيها السَّماء بمائها؛ حتَّى تكبر؛ لتصيرَ شجرةَ عشقٍ ومعرفةٍ.

ويعيش الشاعر الصوفي حياته تحت سقيفةٍ من الرموز والإشارات؛ لأنه يذهب بلغته إلى ما وراء اللغة، ولذا لا يفقهه الكثيرون، ومن ثم يتهمه أصحاب الظاهر، وأهل النظر الضيِّق بالكُفر

والزندقة، حتى إن كثيرين من أهل الإشارة، وأصحاب الوقت والحال قد اضُّطهدوا، أو سِيقوا إلى القتل، أو سُجنوا وضُربوا وعُذِّبوا؛ لأنهم لم يستطيعوا كتمان الأسرار على العامة والخاصة أيضًا، فباحوا:

«بِالسرِّ إِن باحوا تُباحُ دِماؤُهم

وَكَذا دِماءُ العاشِقينَ تُباحُ»

ولعل أبرزهم الحلاج (أُعدم سنة 309 هجرية)، والسُّهروردي (قُتل أو أُحرق أو تم تجويعُه سنة 586 هجرية، 1191 ميلادية)، ولهذا أخفى كثيرون مواجدهم وشطحاتهم، والمثال الأشهر على الإخفاء جاء من أبي بكر الشبلي (247 هجرية /861 ميلادية - 334 هجرية / 946 ميلادية): «كُنَّا أنا والحُسين ابن منصور الحلاج شيئًا واحدًا، إلا أنه أظهر وأنا كتمتُ»، كتمَ وأخفى أسراره، وسترَ حقائقه عن العامة، وأهل الجهل من فقهاء السلاطين، الذين كانوا بالمرصاد لأصحاب الطريق الصوفي من أقطاب التصوف وشيوخه.

فالشاعر الصوفي الذي يذهب إلى ما وراء الأشياء والمحسوسات، مقتصدٌ، لفظه قليل، ومعانيه كثيرة، بعيدة عن ظاهر لفظه، يختصر، ويوحي، ويلوِّح، ويُلمِّح، ويشير، ويرمز، كي يدل على جوهر باطنه، يقول الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي (558 هجرية / 1164 ميلادية - 638 هجرية / 1240 ميلادية): «اعلم أن الرموز والألغاز ليست مرادة لأنفسها، وإنما هي مرادة لما رمزت له، ولما ألغز فيها...»، وقال أيضًا: «قوالب ألفاظ الكلمات لا تحل عبارة معاني الحالات»، كأن الشاعر يضع الآية القرآنية من سورة آل عمران: ﴿ ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ ﴾ دستورًا له، وبيانًا لمنطقه الجمالي، إذ بالرمز يعبر عمَّا يحلم بكتابته، ويشير بحدسه الذاتي الباطني الأعلى إلى فيوضاته، لأنه يؤمن أن منازل الكون كلها رموزٌ.

ولأن باطن الشاعر الصوفي يحكمه الذوق والوجد، ولا يمكن للظاهر أن يحاكمه، فقد ظل في نصوصه الشعرية والنثرية - على مدار التاريخ
الإسلامي - محرومًا من العيش في طمأنينة، ومطرودًا من رحمة الحُكَّام والوُلاة والأمراء والخُلفاء والفُقهاء من عُدماء الدين وجهلته، وما أكثرهم في كتاب تاريخنا.

مَن الصُّوفيُّ ؟

الصوفي هو الذي ينفض يديه وقدميه وملابسه وهو ماشٍ على الأرض، أي أرض، سواء أكانت له، أم وقفًا، لا يبتغي منصبًا، أو جاهًا، أو سلطانًا، متيقنًا أنه صار نقيًّا من آثار الدنيا الزائلة الفانية.

ولا يتاجرُ إلا في ثمار الصدق، ومن دون تكالبٍ على ما هو دنيوي، يزهد فيما يُقبل الناس عليه، لا يتعلق بشيء، هو ابنٌ للمجاهدة، يسلك الطريق، مداويًا نفسه، قبل أن يداوي سواه، يسير في النور، مثلما تسري الإشاراتُ في روحه، يكشف ما احتجب وما استتر وخفي عنه، يجلو مرآة قلبه ويصقلها بالإشراق حتى تتجلى، وأن يعرف مكنون نفسه؛ كي يسهل له الوصول بعد تمام الوصل، حيث تنكشف له أمورٌ لا تُعد ولا تُحصى.

الصوفي رحب، وذو شسوع، قلبه يسع الكون، لا يفلت الزمام منه، مهما تكن المتع والمغريات، صاحب كبرياء وأنفة، على الرغم من بساطته وتواضعه، حبل روحه مربوط بالنور، وممتد بمشكاوات السموات. لا يقع في الشِّباك أو الحبائل التي يدبرها الأغيار أو العابرون أو المارون على الدين.

لا يعرف الخزي أو الخذلان أو الذلة أو الحسرة أو البغضاء أو الحسد، يصير شخصًا آخر جديدًا كلما طلعت شمس، يُسلَب ولا يَسلِب.

والصوفي يرى الفقراء إلى الله كحبات الزيتون فيهم الكبير، وفيهم الصغير، ومَن لم يكن فيه زيت فالصوفي زيته، كما قال السيد أحمد البدوي صاحب الطريقة الأحمدية (596 هجرية - 1199 ميلادية / 675 هجرية - 1276 ميلادية).

الصوفي صاحب نظر؛ لأنه من أهل الصفاء، ملآن بالإلهام، قلبه يشرق بالنور، يمتاز عن سواه بالعرفان، إذ يسمو عن عالم المادة، أفادته خلوته وغيبته عن الناس، فعَلَا فيضُه، وكثرت سياحته الروحية، يشتد به الوجد سواء أكان وحده أم وسط زحام من البشر، مصداقًا لقول الشَّاعر العربي دعبل الخزاعي (148- 246 هجرية / 756- 860 ميلادية):

«إنِّي أقلِّبُ عيني حين أفتحُها

على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا»

وفي الخلوة، حيث الوجد والذوق والتجلِّي «الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه مَن ينيب»، وفيها يقع التجرُّد من المظاهر، حيث تسبح الروح في بحرها الوسيع الذي لا ساحل له، ولا إدراك.

إن التصوف يفتح فيضًا من المعاني الربانية وآفاقًا معرفية لا حد لها أمام الصوفي، إذ يسلك الطريق ببصيرته المعرفية، وتنهمر الإلهامات على قلبه «وعلمناه من لدنا علما».

الصوفي هو عالم رباني، روحه تشرق بالأنوار، تربَّى على علم القلوب، وهو الوهب لا الكسب، أو العلم الوهبي.

والصوفي كما يقول شيوخي: «نالوا علوم الدراسة، ومنحوا علوم الوراثة»؛ حيث تكشف أمامه نواميس الله في الكون؛ لأن مَن يتدبَّر ويتأمل لهو في رزق دائم لا ينقطع.

الصوفي بحر لا يُدرك له قرار، ولا يُعرف له ساحل، وقديمًا قال السيد البدوي: «إن سواقيَّ تدور على البحر المحيط، ولو نفد ماء جميع سواقي الدنيا، ما نفد ماء سواقي».

مَن العارفُ؟

الذي يعيشُ في جنَّةِ المعارفِ، يشقَى ويسعى، ولا يكتملُ أبدًا، إذْ هو دائمًا في نقصانٍ؛ لأنَّ مَن يكتمل يدركه الموتُ، وتنعشهُ الحكمةُ، وتغنِيه الخواطرُ والوارداتُ والمُناجاةُ، إذْ هي تخطرُ وتردُ من سماء الرُّوح.

فمَن يدخل ميدانَ المعرفةِ يطب له كلُّ شيءٍ، ويقترب منه الحرفُ، ويصير قاب قوسين من الكرامةِ التي تمنحه اللذةَ القُصوى، والصورةَ الأتمَّ.

ومَن يغترف من بحرِ المعرفةِ تمسك يداه الأشياء، ويعرف شدائدَ الزمان، ويُرزق من حيثُ لا يحتسب، وتُفتح له المخارجُ والأبوابُ، ويدقِّق النظرَ في البواعث، ويدخل سرادق الحُبِّ كأنه في عليين.

العارفُ يسيرُ إلى الزيادةِ، يأنسُ إلى فتح قلبه، علَّه يصل إلى المُشاهدةِ ثم الاتحاد والحلُول فيمَن يعشقُ ويرتجي؛ مطلقًا لسان سرِّه، رافعًا الحِجاب عن كلِّ مستترٍ وخفيٍّ، واصلًا إلى معنى رُوح الحرْفِ الذي ينتظمُ في كلمةٍ، ثم في جُملةٍ، ثم في نصٍّ.

العارفُ ابن الذوق والحسِّ، وهو من أهلِ الإشارةِ، والعبارةِ، والحقيقة، باطنهُ غني، حتى لو شد الحجر على بطنه من فرطِ الجُوع والسَّهَر.

العارفُ يخرجُ ليس معه شيءٌ سوى الحرْفِ الذي يحمله قلبه، غارقٌ في بحر ذاته، يحيا في المقامِ والحالِ، ويسعى إلى سبيل الحكمةِ؛ ليلمحَ الحقائقَ وهي تطيرُ أمام عينيه، تتنزَّلُ بين يديه؛ كأنه من وارثي المنزلة.

العارفُ له موادٌّ خاصَّةٌ، يختارُ ما لا يختارُهُ سواه، ليس لهُ من نفسه شيءٌ، ابن الفِرار لا القرار، استوت له أرضُ الحقيقة، يسوقُ غمامَهُ نحو العلم الإلهيِّ، ينظر ببصرِ الإيقان، والإيقان بالشيء العلم بحقيقته بعد نظرٍ واستقراءٍ واستدلالٍ وتثبُّتٍ وتحقُّقٍ ووضُوحٍ، وهو إتقانُ العلم بإزالة الشَّك والشُّبهةِ عنه وتحقيق الأمر.

لا يدخلُ الوسواسُ بينه وبين حبيبه، ويُنسيه ما قدمت الرُّوح من عشقٍ، وما منح الجسد من عطاءٍ وجنان.

العارف لا يقيده زمنٌ، ولا يحدُّه مكانٌ، دومًا في تجلٍّ، وجلاءٍ، وتجوالٍ، وسياحةٍ، وسفرٍ، يسلم قلبه لمَن يحبُّ ويرجُو.

العارفُ محبٌّ للخلوة، مستعدٌّ للعرُوج، سبيلُ المناجاة منجاته، ومفتوحٌ أمامه، يقبسُ من النور ولا ينفد، يتركُ الانتصار لنفسه، إذْ يصفِّي رُوحه، وينقِّي قلبه مع كل طلعة شمسٍ.

لا غاية لديه إلا ذُروة الوصُول، حيث مدت رُوحه بمعاني المعارف، هو مفتاحٌ لقلوب الغير، ومصدرُ الحكمة الكبرى لأهل السرِّ .

باطنه مع مَن يعشقُ، وظاهرهُ مع مَن سواه، سترته الأقدارُ.

العارفُ يمتطي صهوة بُراقه، ويسعى نحو التمام والكمال، لا يكفُّ عن العرُوج، حتى يبلغ الذُّروةَ، سدرة منتهى الطلوع والفيْض.

طعامُ العارف ثمرةُ النُّور، وهي تنبت في أرض رُوحه، ويسقيها بماء ذهبِه، الذي تشطفه السَّماءُ، وثمرة العلم الإلهي وهي تنبتُ في أرض قلبه، ويسقيها بماء الحُبِّ الذي لا تنفد بحارُه، وثمرة الوصل وهي تنبتُ في أرضيْن: أرضُ العارفِ، وأرضُ مَن اتحد به، وإذا ما قطع المحبُوب الوصل، عطبت الثمرةُ، وسقطت تحت شجرتها، إذ لا يلتفتُ أحدٌ إليها.

في العُزلة، أو في الخلوة يعرفُ المحبوبُ كُنهَ ثمرةِ وصْلِه، هل شاختْ، وجفَّتْ وحان سقُوطُها، أم وهو في كهفه يدرك أن قلبه نامَ، أو ماتَ، أو ضاقَ، أو سُدَّت شرايينه من فرطِ الصَّدأ؛ لأنَّ المحبُوبَ يعرفُ أنَّ ثمرةَ العُزلةِ تتجلَّى في كشف الغطاء، أو هتك الحِجَاب عن تمكُّن المحبَّة وتحقُّقها، أو فتورها، أو برود نارِها، ولم تعُد المُجاهدةُ تجدِي؛ لكنَّ المحبُوب يخشى المُواجهة، أو يريد أن يحتفظَ بشكلِ الوصْل لا بجوهره، بسرابِ العشقِ لا مائه، بينما العارف يدركُ أنه لا سلطانَ على القلبِ، لكنَّ الناسَ تكرهُ التصريحَ خشية التجريح، مع أنَّ العاشقَ العارفَ يصبرُ على البلاء، ويرضى بالقضاءِ، ولا يعرفُ أنه لا يثبتُ على الحُب إلا أهل التجريدِ والقُربِ، لا أهل التقتيرِ والبُخلِ والشُّح والمَنِّ في المَنْح.

مَنْ أهلُ النَّظر؟

عودتُ نفسي منذ الصِّبا المبكِّر، وأنا في قريتي، أن أعتزل كي لا أبتذل، وأن أنفرد كي لا أزدحم، وأنشغل بالسفاسف والتوافه والقشور، وأن أغوص عميقًا في روحي الحيرى القلقة، مجهدًا عقلي؛ كي أدخل إلى المعاني الكامنة في القلب.

واستفدتُ من عزلتي التي اخترتها سبيلًا، ومصادقتي للكتاب حبًّا لازمني وبقي معي، ونورًا نافذًا ينير لي الطريق، كلما انحرفت في ناحية لا تشبهني، ولم أخلق لها أساسًا؛ لذلك كبرت داخلي رغم سني الصغيرة وقتذاك، وأكرمني الله عندما هجمت الشدائد وتوالت المحن، وما أكثر ما شُفتُ وعاينتُ وعانيتُ، لكنني سيد الكتمان، إذ في الصمت علو وارتفاع، على الرغم من أنَّ شواهد الألم تسطع في مرآتي، وتنعكس على كلي نفسًا وحرفًا.

وعلى الرغم من أنني لم أتعلم السباحة، وأخشى البحر وأراه غادرًا، حتى لو صدق؛ فإنني أحب أن أغرق في بحر نفسي، وفي محيط أشيائي؛ علني أقود سفائن روحي إلى الساحل حتى ولو كان نائيًا أو مجهولًا، وحتى لو انكسرت بعضها، أو حطَّمتها الأمواج؛ لأن الغرق في الذات إدراكٌ لماهية النفس ومساءلتها والوصول إلى قرارها الأعمق، حيث عشت أطمح أن أكون من أهل النظر بالدليل والبرهان، وعادة ما يكون برهاني محمولًا على كفتيْ ميزان قلبي.

ومَن امتلك برهانه عاين وكشف ما استتر، وزالت الحجب عن المخفي فيه وعنه، وترقَّى في الدرجات، وطوى المسافات بجناحي براقه إلى المعارج، وصار في حال الفتح، ومقام الإلهام.

والخسران هو أن يعيش المرء محجوبًا عن نفسه؛ لأن المحجوب قلبه فارغٌ، ومصروفٌ عن العشق، والأشياء ملتبسة عليه «لكل شيء حقيقة»، ومَن يتحصَّن بالمعرفة، تكتب له النجاة، ويحقق قول أهل الوقت والنظر: «المحب على الحقيقة مَن لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته...».

دع السر مغمورًا، ولا تكشف إلا إذا حضرت، واستزد، وفِضْ، واقتربْ، واذهبْ إلى البكْر من المعاني، ولا تهمل ثيِّبات العلوم، فالخلق يولد من اتحاد البكر بالثيب.

فكأس مَن تحب كامن في فم القلب، فعش ذائقًا تائقًا مشتاقًا، يدم لك الشرب؛ حتى تسكر، ولا يكن لك صحو أبدًا، وتصل إلى المحل الأعلى.

عشتُ أبحث عن الحال التي لا حال بعدها، وعن المعراج الذي لا معراج بعده، وعن القول الذي لا يشبهه قول، وأسعى في الغيوب التي ما بعدها غيوب، وعن السر العظيم الذي أستريح في

سريره؛ كي أصل مَن يبقى، وأهجر مَن يروغ وتعمى بصيرته، ولا أقف عند اللوم؛ لأن مَن برح لا مطرح له؛ إذ هو من أهل النسيان والعميان، يقتات أرز الغفلة، ويشرب ماء الضلال، نفسه أرضية، ولم تصل روحه إلى المرتبة السماوية، ولم يعش حال الوجد، وأدرك روحه الجدب والقحط، ولم تلحق اسمه الدرجة العلية، وظل في الاسم الدني، وانعدم وجوده، وصار محوًا.

في الخلوة لا يكون القلب مشغولا بغير من تحب، وإن سكن إلى غيره فقد أشركت به، حتى ولو كان بالخيال، حيث تستمسك بالحبل الذي يربطك به، إذ هو حبلٌ سِرِّي (من السِّر)، وسُرِّي (من السُّرَّة)، وفي هذه الحال
لا يمكن أن ترد خائبًا، حيث تكون في حال «غلبة الشوق»، ودوام التفكير، ويكون اسمك موصولًا باسم مَن تعشق، وتتنزَّل الكرامة، وتوهب السر الذي يبقي القلب متقدا، إذ يفتح بالنور، وتحمله نون الهوى على حوافها وفي قلب نقطتها إلى الفردوس.

أهل النظر هم أصحابُ بحر النور، والبين ساقط بينهم وبين مَن يحبون، يدخلون المحبة لا لشيءٍ، ولا على شيءٍ؛ لأن في عشقهم يقينًا لا يقابله شك، محاطون بالأسرار المكتومة عن سواهم، يرفع الواحد منهم يديه إلى السماء داعيًا: «امح من قلبي محبة غيرك»؛ لأن بالعشق يسلك طريق الصدق، حيث يُسخِّر الله له النور والنار والماء والخيال والجبال والشمس والقمر والنجوم والرياح والجن والبحار، ويحمل أمره - دائمًا - باليقين بعيدًا عن «الظنون والشكوك والأوهام الساترة للقلوب عن مُطالعة الغيوب»، كما جاء في «حزب البحر» لأبي الحسن الشاذلي، الذي كنت أقرؤه بعد صلاة كل عصر، وأنا في قريتي «كفر المياسرة »؛ طبقًا للتقاليد الشاذلية، وقد قال ابن عطاء الله السكندري وهو تلميذ الشاذلي عن هذا الحزب و الحزب الكبير: «إنهما سارا مسير الشمس والقمر، وأشيع ذكرهما في البدو والحضر».

اللهم أسألك «العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات...»، وصفاء البصيرة، وملائكية الروح.

رُوحي تنطقُ عن هواها

كلُّ شيءٍ لا يصدرُ عن الروح لا يُعوَّل عليه، فلكي تصلَ في الكتابةِ إلى نقطة الذروة، لا بد أن تكونَ قد مشيتَ على جمر رُوحك، وأمسكتَ النارَ غير خائفٍ، بعيدًا عن التكلُّف والتصنُّع والتعمُّد، وما طريقُ الفطرة والتلقائية إلا الجسرُ الواصلُ بين الذات وروحها.

وكلُّ تجربةٍ كتابيةٍ لا تتأسَّسُ أو تقوم أو تنطلقُ من تجربةٍ رُوحيةٍ هي ناقصةٌ، لأنَّ الشاعرَ - الكاتبَ من المفترضِ أن يكون مهجُوسًا بالوجود المحجوب، لا بالوجود المكشوف، المتاح والمرْضِي عنه من قبل سلطات الكتابة، التي تفرض سطوتها على المجتمع الأدبي.

فأنا لا أكتبُ عن عالمٍ مرئيٍّ جاهزٍ، ولكنني أحاولُ أن أخلُقَ عالمًا أراهُ في حلمي، هو عالمٌ آخر جديدٌ ينتمي إليَّ ويشبهُني، إنْ لم يكُن مطابقًا لروحي فهو على الأقل قريبٌ منها.

وكوني أطلب الحقيقةَ المطلقةَ، فأنا أمام عالمٍ غير محسُوسٍ لا متناهٍ لا تدركه الأبصارُ الماديةُ.

لي معراجٌ شعريٌّ استند في رحلته على أجنحةٍ كثيرةٍ، كان أبرزها التصوفُ والفلسفةُ، إذْ هما جناحان يمثلانني ويمنحانني درجةَ غليانٍ أعلى، ويجعلان روحي تنطق عن هواها، دون ترددٍ أو توجسٍ أو حذرٍ.

والأسرار لا تترى إنْ لم تَغْلِ أولًا في قِدْرِ الحياة الروحية للشاعر – الكاتب، والكتب الكبرى التي بقيتْ في نفوسنا طويلًا، صدرتْ عن معارجَ صوفيةٍ لأصحابها، حتى ولو لم يكونوا صُوفيين؛ لأنَّ كلَّ روحٍ تطيرُ عن أرضها، هي عندي روحٌ طائرةٌ في الطريقِ الصُّوفيِّ؛ لأنَّ حالَ الشاعر هي مزاجٌ يتفاعلُ مع التصوف أو الفلسفة وليس ابن العربي أو السُّهروردي أو ابن سبعين ببعيدينَ عن ذهني.

فالتجربة تكشفُ الكثيرَ من الحقائق، وما يشاهدهُ الشاعرُ في حاله،
لا يستطيعُ كتابته إلا عبر تجلي الروح وإشراقها، وليس استعارة أحوال آخرين، لأنَّ الشاعرَ لا يستعيرُ لسانَ غيره، وقديمًا قال النفَّري: «الجزء الذي يعرفني لا يصلح على غيري».

فالثقافة والعلم وحدهما لا يجعلان من الشَّاعر صوفيًّا؛ لأنَّ الوصولَ والوصلَ يحتاجان إلى مجاهدةٍ وروحٍ ولدت عارفة، تدرَّب مريدُها على المنح، ومن ثم سنكونُ بعد ذلك أمام مقام الذوق، كلما قرأنا عملًا شعريًّا نعرف من خلاله أن روح كاتبه تخرج إلى متلقِّيها من كل حرف، ولا يحتاج المرء إلى جهد، كي يكشف الكتابة الصادرة من موقف الروح، أو الصادرة من موقف «نويتُ أكتبُ».

الروح لا تحجبُ، بل جُبلتْ على الكشف، وكل روحٍ هي سادرةٌ في منحها، فقط تحتاج إلى بعض مثيراتٍ لتستجيبَ وتذهب إلى النار وحدها، ولا تهرب منها، هي كلما رأت نارًا، وقعت فيها باختيارها، فهي في الكتابة تكتب، وفي الصمت تصمتُ ولا حدَّ لشواطيها إذْ هي بلا سواحل.

الروحُ هي التي تسقي شجرةَ الكتابة، وهي التي تفتح الباب المسدود، وكل بابٍ مُغلقٍ تراه أمامها مفتوحًا، هي ترى، ولا تنامُ، ولا يدركُها تعبٌ، تأرَقُ وتقلقُ، لكنها لا تصدأ، قد توصدُ بابها أمام مبدعها المشغول اللاهي عنها؛ لأنَّها كالشعر، تُعطي ظهرها لمَن يهجسُ بغيرهما، هما لا يحبان شركاء، يريدان الجنةَ وحدهما؛ لأنَّ الرُّوحَ تغرسُ شجرةً أبديةً أمام باب كلِّ شاعرٍ، وتمنحه بئر ماءٍ لا تنفدُ، وتطلب منه أن يرويها، فإن تقاعسَ عن السقاية، نقلت شجرتها إلى باب آخر، ليس له، وربما قتلتها، إنعامًا في التنكيل بالمُهمل.

الرُّوحُ ظاهرةٌ، كأنَّها تنادي صاحبها: «لا تزالُ تراني» والغيبة عنها، والذهاب نحو آخر، يُفسد المحصول، فما يأتي بالذوق أبقى وأهم ممَّا يأتي بالتعلُّم، ودومًا أثقُ في الوهْبِ لا الكسب، وابن الروح هو صاحبُ وهبٍ وذوقٍ وكشفٍ، والشعراء أبناء الأرواح، هم أرباب أحوال.

الشاعر يذهبُ نحو المطلق اللا متناهي، يتحدُ بمَن يعشقُ، ويحلُّ فيمَن يحبُّ، يفنى، هو دومًا فوق طور العقل، دنياه في تعبيرهِ، وقبس نوره من السموات، و«شبيهُ الشيءِ منجذبٌ إليه»، وما من فرع إلا وهو دائم الحنين إلى أصله، والناي يبكي لفراق أمه الشجرة، ومن ثم تأتي لغته خاصةً لا شبيهَ لها، ليست لغة العقل، أو العلم، أو الفلسفة، الشاعر يدلُّ وليس عليه أن يدرك نتيجةً ما، هو يحدسُ ولا يتحدثُ، هو يرمزُ ولا يقولُ، هو يشيرُ ولا يشرحُ، هو يومئُ ولا يُفسرُ، هو يسألُ ولا يمنحك إجابةً.

الشَّاعر الحقُّ دومًا في الحال، التي هي التجربةُ الروحيةُ، وهي منزلةٌ سماويةٌ عليا، لا يصلُ إلى سدرتها إلا قليلونَ، هي عندي «الإشراقُ»، الذي تتنزَّلُ من سمواته النصوصُ الكبرى، التي تبقى، وتؤرِّقُ، وتحثُّ وتحرِّضُ، وتمنحُ مَن يتلقَّاها درجاتٍ عليا من الوصول والتحقُّق.

الشاعرُ ابن روحه، هو دومًا بين نقطتين: نقطة الابتداء ونقطة الانتهاء، وكلما وصل إلى إحديهما، عاد إليها من جديدٍ؛ لأنه يحيا ويموت بين الصفر والألف أو الواحد، يجرِّدُ بشريته ليفنى في الله، ويقول: أنا أكتبُ إذن أنا أحيا وموجودٌ في إرادتي، التي هي جوهرُ إنسانيته الإلهية لا عقله.

كشاعرٍ سأظلُّ من واقع حال تجربتي، أنني كلما أردتُ النطق بما رأت رُوحي لا أقدرُ، وستبقى لغتي دون الحال الذي أنا فيه؛ لأنَّ ما فيَّ أكبرُ من اللغة، وأسمى من التعبيرِ، ولذا أرى العاشق

دومًا عاجزًا عن كشف حاله، وهو في مقام الحُبِّ، ودائمًا لغته إلى المحبوب، أقلُّ وأدنى مما تكتبه روحُه في صفحاتها بقلم الدم.

والشَّاعر الذي لا يصدر نصُّه عن عاطفةٍ جامحةٍ لا يُعوَّلُ عليه كثيرًا، حيث تكونُ نسبة عصير الدماغ فيه أكثر طغيانًا من نسبة عصير الروح، إذ الشاعر كالصُّوفي تمامًا في كونه ابن استغراقه وفنائه وحدسه اللا متناهي. فهو يكتبُ من «عين البصيرة» أو كما يسميها الصوفية «اسم القلب والسر».

الشاعر يذهب إلى مناطقَ لا يطرقها الطارقون، ولا يعرفها أهلُ الحياة، ولا يدركها العابرون، أو كما قال النفَّري يومًا في مواقفه: «دعْ عنكَ كل عينٍ وانظر إلى ما سواها».

في «النُّقطة» طَاقَةٌ لا تُدْرَكُ

وَشَمْسُ الحَدْسِ بابي لمعرفة نَفْسي

بالحدس والتأويل تَصلُ إلى ما تريد.

لا يمكن أن تحيا وأنتَ ظِلٌّ لأحد، أو تظلّ – هكذا – طوال حياتكَ باحثًا عن قدوةٍ، لتتبعَها، وتسير وراءها، أو تستنسخها.

ابحثْ عن أسلوبٍ جديدٍ، أو طرائق مغايرةٍ ومختلفةٍ؛ لتكونَ الذي تريده أو تطمح إليه.

فالجِدَّة، والبحث سبيلان إلى الإضافة والإنجاز، وطريقان نحو الامتياز والخصوصية.

كُن دومًا خارج المألوف، وَلا تَسِرْ في الطرق المُمهدة؛ لأنَّ غيرَكَ طَرَقَها وَعَبَّدها وَسَارَ فيها، ولا مجال لأن تسيرَ في المسار نفسه، أو كما كُنَّا نقول ونحن أطفال في القرية: «تطبّل في المطبِّل» (حيث كان المسحراتي في رمضان يَنْسَى أَنَّه «طبَّل» في هذا الشّارع؛ ليصحو النائمون، فيعاود التطبيل مرةً ثانيةً ومن هنا جاءت هذه المقولة التي تشير إلى المُعاودة والتقليد والتكرار والإلحاح و...).

اذهب إلى ما وراء الشيء، إلى ما وراء الرمز، إلى ما وراء المعنى، إلى ما وَرَاءَ اللُّغة، إلى ما وراء الواقع، كيْ تنجوَ من شَركِ العاديّ والمطروقِ والمألوفِ، وتفتح المُغْلَقَ على أسرارهِ.

رُحْ إلى الخفيِّ لتكشفَهُ، وإذا ما ذهبتَ يومًا إلى الظّاهر أو الواضح أو الجليِّ، تأكَّد أنّ هناك باطنًا ينتظرك لو أحْسَنْتَ الدُّخُولَ إليه.

ومثلما يفشل الشَّاعر إذا عوَّل على الظَّاهر والواقع، كذلك يفشلُ العَاشِقُ الذي لا يرى من امرأتهِ إلَّا جسدها فيغرق فيه مُلْتذًّا لذائذَ مؤقتةً لا تدومُ ولا تتعمَّقُ؛ لأنه لم يرَ ما وراء الجسد، أو لم يتعلَّم من مُعَلِّم الحبّ الأوَّل في إرثنا الإسلاميّ والعربي المقدَّس محمد بن عبد الله (ﷺ)، ومن أراد أن يعرفَ أكثر، فليذهب إلى صحيح البخاري ليدركَ كم كان النبيُّ محمد مؤسِّسًا في فنون الحبّ، عارفًا ما وراء الأسرار، ناشدًا الديمومةَ، والوصلَ، والوصولَ إلى المنتهى بإشاراتٍ وتمهيداتٍ لا يفعلها (أو يلتزم بها) العاشقُ والمعشوقُ (الرجل والمرأة)، ومن ثم لا يدوم العشقُ كثيرًا في ظلِّ الجهلِ بأسرارِ الروحِ والجسدِ التي أشار إليها الرسول – في السنين الأولى من الهجرة – قَبْلَ أن يتوصَّل إليها العلماء والمختصون في العصر الحديث.

اذهبْ إلى النقطةِ مباشرةً، لا تترك نفسك للتداعي الحُر؛ لأنَّ فيه مَقْتَلَكَ.

ففي «النقطة» طَاقةٌ لا تُدْرَكُ، وأسرارٌ لا تُمْسَكُ، وعوالم غامضةٌ لا حدود لها، لا تصل إليها إلا إذا كنتَ من العارفين والإشراقيين.

النقطةُ تَصِلُ بَيْنَ ما هو علويٌّ وبين ما هو أرضيٌّ، وتجمع الإلهيَّ بالبشريِّ، والمقدَّس بالمدنَّس.

فالنقطة هي الحقيقة التي نبحث عنها وسنموت دونما أَنْ نصلَ إليها، وبمفهوم «الحلاَّج» ما النقطة الأصلية إلَّا الأصل، أصل كلِّ خطٍّ، أصل كلِّ كلمة، بدءُ السِّر، وَبَدْءُ سَيَلان الحِبْرِ، وسرُّ العلاقةِ بين الورقةِ والحِبْرِ، وبَيْنَ العَيْنِ، أوعَيْنِ الروحِ والورقةِ.

وعن الشيخ إبراهيم بن عمران النيلي أنَّه قال : سمعتُ الحلاَّج يقول : «النقطة أصل كل خطّ، والخطّ كلّه نقطٌ مجتمعةٌ، فلا غنى للخطِّ عن النقطة، ولا للنقطة عن الخطِّ، وكل خطٍّ مستقيم أو منحرف فهو متحرك عن النقطة بعينها، وكل ما يقع عليه بصرُ أحدٍ فهو نقطةٌ بين نقطتين. وهذا دليل على تجلّي الحق من كل ما يشاهد وترائيه عن كل ما يعاين ومن هذا قلت : ما رأيت شيئًا إلَّا ورأيت الله فيه».

ولعلَّ إلحاحي الدائم على الذهاب إلى الجَوْهَر، نَابِعٌ من كوني أُومن أنَّ النقطةَ وجودٌ ومعرفةٌ وأزلٌ، كُلُّ خَطٍّ ذَاهِبٌ إليه.

فالنقطة عِلْمٌ ليس كمثله شيء، كما يقول شيوخنا من المتصوّفة، ولأنني بدأتُ بـ«الحَدْس»، فإنَّني أعودُ إليه.

فأنا أخطو به، وأختبر أرواح الآخرين عَبْرَهُ، ودليلي في ذلك ما قاله عمر ابن الخطاب عن الحَدْس (الظنّ) إذْ كان يردِّد: «مَن لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه». فالحدس يَفْتَحُ بابَ الحقيقةِ لمَن يمتلكه، وهو وَهْبٌ لا كَسْبٌ، تُفْطَرُ الرُّوحُ عليهِ، فهو قَادِمٌ من مناطق الإشراقِ والحكمةِ، وهو حسبما يراه الإمام أبو حامد الغزالي : «نورٌ يقذفه الله في القلب فتصفو النَّفسُ ويدقُّ الحسّ ويرقّ القَلْبُ وتنقشع الغمامة وحينئذٍ يحدث الإشراق».

فمن الحدس تأتي المعرفةُ، وهو بحسب ديكارت «يصدر عن نور العقل وحده»، فمنه نَخْلُقُ، ونبتكرُ ونخترعُ ونذهبُ إلى الجديد.

فالحدس كَشْفٌ لما هو مَخْبُوءٌ وباطنيٌّ، نَظَرٌ إلى ما وراء الأشياء؛ لأن الحَدْسَ لُغَةً : هو التخمين، الظن، التوهم، التخيُّل، الفراسة، السَّبْر، التصوُّر، التوقُّع،...

فلا كتابةَ من دون حَدْسٍ، ولا محبَّةَ من دون حَدْسٍ .

فهنا ينكشفُ لَكَ الأفقُ، وَتُضَاءُ لروحكَ الكهوفُ، وَتَتَنَوَّرُ الظلماتُ، وتبتعدُ عن الشّرحِ، والإسهاب، والإطالةِ، والترادفاتِ، ذاهبًا نحو المحوِ والحَذْفِ، فَهُما رديفا الحدس ملازمان له.

والمَرْضيُّ عنه سماويًّا مَن يَنْقِلُ بَحْرَ ذاتِهِ إلى الورقةِ، مِن دون أن يستعيرَ ماءَ البحارِ الأُخْرى، والتي هي كثيرةٌ ومنتشرةٌ .

لأنه لا يمكن خَلْقُ شيءٍ حَيٍّ من مَاءٍ مُسْتَعَارٍ.

فبالحدس نَفْعَلُ ونَصِلُ وَنَعْرِفُ بروحنا.

لأنَّهُ «الأداةُ» التي تصيبُ ولا تخيبُ أَبَدًا. فهي تفوقُ العَقْلَ، وبها سَجَّل صوفيون إشراقيون تجاربهم النادرةَ الفريدةَ، وبها كَتَبَ شعراءٌ في مقتبل أعمارهم نصوصًا صارت علاماتٍ مُؤسِّسَةً، وَصَاروا هم شُهُبًا في سماءِ الكتابةِ، إذْ سرعان ما توقفوا عن الكتابةِ (رامبو مثالًا)، أو ماتوا في سنٍّ صغيرةٍ (الأمثلة أكثر من أن تُحْصَى).

إنَّ الحدس كان بابي إلى معرفة نفسي والآخرين .

وكم صَدَقَ حدسي منذ اللحظة الأولى في الحكم على البشر، حتَّى من اقتربتُ منهم، أو اقترنتُ بهم.

إنَّه البابُ المفتوحُ أمام عينيَّ دومًا، ومنه تُطِلُّ شمسُ روحي لترى وتعرفَ بفضلِ شمسٍ أخرى هي شمس الحدس.

وُعَّاظ السلاطين

الفقيه أو عالم الدين في زماننا، يُجالس السلطان، ويأكل أكله، ويشرب ماءه، ويجلس في حضرته، ويأتمر بأمره، ويبرِّر له قراراته وأوامره، ويُحلِّل له ما هو حرام، ويُحرِّم له ما هو حلال، ويشبِّهه بالرسل والأنبياء، وأنه يُوحَى إليـه، وقد يشطُّ في القول فيعتبره إلهًا لا بد للرعية من طاعته وعبادته والسجود في حضرته، ويذهب إلى القرآن – كتاب الله العلي القدير - ليؤوِّل آياته، كأنها أُنْزِلَتْ على السلطان، أو جاءت في شأنه، ومثل هذا الفقيه رأيناه – أيضًا - جليًّا واضحًا في تاريخنا، خُصوصًا في أزمنة الخلافة الإسلامية، ويتكرَّر بالحال نفسها، مع الفارق أنه في السنوات الأولى للهجرة كان هناك فقهاء وعلماء لهم مكانتهم بصرف النظر عن سلوكهم الذي لا أفصله عنهم، بينما في زماننا نجد خليطًا وهجينًا غريبًا وعجيبًا بين مَن يُسمُّون أنفسهم «علماء الدين»، إذ صاروا يصفون عددًا ممَن نالوا درجة الدكتوراه في فرع من الفروع الدينية بـ«كبار العلماء»، وصار كل مَن قرر أن يتربَّح من الدين فقيهًا وعالمًا، وهو بعيد كل البعد عن الفقه والعلم الدينيين.

بينما نجد بِشْر الحافي أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري، الذي ولد في بغداد سنة 179 هجرية، وعاش ومات فيها سنة 227 هجرية، كان «يشرب ماء البحر، ولا يشرب من حياض السلطان، حتى أضر بجوفه»، و«كان يأخذ من البحر حوتًا - سمكة -، فيشويه في عين الشمس».

وأنا هنا لا أعقد مقارنةً؛ لأنني لا أرى في المشهد أقطابًا في الفقه أو في التصوف، كالذين درستُهم، وقرأت عنهم ولهم، وسلكت طريقهم، ولكنني أردت أن أنبه وأؤكد أن العلاقة بين الفقيه والسلطان صارت مفسَدةً لا يمكن الصمت عليها، إذ هي من أسباب التخلف والاستبداد والتأخر الذي تنام فيه البلاد والعباد.

هؤلاء الفقهاء المعاصرون يعيشون تحت أضواء الإعلام، في ترف ورغد، همهم الأول الشهرة، ورحم الله بشر الحافي حين قال: «ما اتقى الله مَن أحب الشهرة».

علماء هذا الزمان، الذين لن يكون لهم ذكْر على ألسنة الخلق، حيث لا كتاب لهم يمكن أن يبقى، الذين هم بعيدون عن التقوى والورع والطاعة، ويُباهون بعبادتهم، وعلمهم المُشوَّه المنقوص، لا يراقبون الله، ولا يحاسبون أنفسهم، إذ يرونها فوق المُحاسبة والمُساءلة، باعتبارهم ممثلين لله، ونوابًا عنه في الأرض، مع أنهم يؤثرون حُبَّ الدنيا على حُب خالقهم، لا يزهدون ولا يتقشَّفون،

يشتهون ولا يعرفون فضيلة التَّرْك، ولا يعزفون نفوسهم، ولا يسقطون فضولهم، ولا يحفظون ألسنتهم، يعيشون في القصور، ويركبون أغلى السيارات، ويكنزون المال، ويكثرون من الزواج، مطلاقين مزواجين، تسلب الشهوات عقولهم، إذ لا يجعلون بين شهواتهم وعبادة الله سدًّا وراء سدٍّ؛ كي يذوقوا حلاوة الإيمان، بينما نرى الصوفي (وهم يكرهون التصوف كسادتهم الوهابيين والمُتسلِّفين) بشر الحافي كان يقول: «الجوع يُصفِّي الفؤاد، ويُميت الهوى، ويورِّث العلم الدقيق». وكان يقول دومًا: لا يفلح مَن أَلِفَ أفخاذ النساء، مُناجيًا ربه: «اللهم إنك تعلم أن الذل أحبُّ إليَّ من العزِّ، وأن الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى، وأن الموت أحبُّ إليَّ من البقاء».

ودعاء بشر الحافي هذا «اللهم إن كنتَ شهرتني في الدنيا؛ لتفضحني في الآخرة فاسلبها عنِّي»، لو قرأه أحد ممَن أقصدهم من شيوخ هذا الزمان، لاعتبره مجنونًا، ولو قرأ كلامه: «مَنْ طَلَبَ الدنيا فليتهيَّأ للذل» لعدَّهُ معتوهًا لا يدري من أمره شيئًا، ورآه مُجرَّد صوفي جوَّال يهذي في الطرقات.

وهؤلاء أعظُهم أو أذكِّرهم بموعظة بشر الحافي علَّهم يتعظون ويؤبون إلى ربِّهم: «إن في هذه الدار نملة، تجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء؛ فلما كان يومًا أخذت حبة في فمها، فجاء عصفور فأخذها، فلا ما جمعت أكلت، ولا ما أملت نالت».

ولا بد للفقيه أن يكون مُخلصًا، وألا يُولِّي وجهه قِبلة السلطان، أو يرائيه؛ لأن (لله الدين الخالص)، وليس لأحدٍ سواه، مهما تكُن المغريات، وهي كثيرة، ويعرف السلطان متى وكيف يمنحها أو يمنعها، والإيمان هو الإخلاص، والجزاء عند الله، وليس عند السلطان، ولكن السلاطين من فرط تقديس الفقهاء لهم، ومديحهم، ظنوا أنفسهم آلهةً على الأرض بيدها المُلك والرزق.

وهؤلاء بدلًا من أن يهاجروا إلى الله ورسوله، صارت هجرتهم نحو السلطان، وهو الشِّرك بعينه لو يعرفون، حيث عميت أبصار قلوبهم، وتلك عقوبتهم في الدنيا.

وأسوأ السوء قاطبةً أن يفسد العلماء، وكنتُ أسمع دومًا وأنا طفل صغير في قريتنا (كفر المياسرة) مَن يقول: «اتقِ شر الأزهري إذا فسد»، ولا أدري مَن صاحب هذا القول الذي ما زال عالقًا في ذهني، وكنت أغضب كثيرًا؛ لأنني تربيتُ في بيتٍ أزهريٍّ عماده القرآن، ودستوره السماحة والاعتدال، ولا أحب لأحدٍ أن يلفظ مقولة كهذه، ولكن مع انخراطي في الطريقة الشاذلية، ثم سلوكي الطريق الصوفي، ومعرفتي بقطب صوفي أحبه كثيرًا هو بشر الحافي، رأيت أنه يكاد يكون هو أول مَن نبه إلى فساد العلماء قبل ما يزيد على ألف سنة: «إذا فسد العلماء، فمن بقي من الدنيا يصلحهم»، ثم أنشد شعرًا: (لا أدري إن كان له أم لسواه):

يا معشر العلماء يا ملح البلد

ما يصلح الملح إذا الملح فسد

والذين فسدوا في زماننا كثرٌ، وربما من الصعب حصرهم، وإن كان منهم عددٌ معروفٌ من فرط فدائحه وفضائحه، حيث يأكلون دنياهم بدينهم وعلمهم، متخذين الدِّين وسيلة تكسُّب وتربُّح وارتزاق، وصار كل همُّهم جمع المال، والعيش في ترفٍ، كما يعيش نجوم المجتمع، ولو لم أضع هذه الجملة التي قالها بشر الحافي بين قوسين لظن القارئ أنها صيغت اليوم: «علماء زماننا، إنما هم متلذذون بالعلم، يسمعونه، ويحكونه فقط»، ومثل هؤلاء كمثل الذين يغسلون أياديهم برائحة سمك نتنة.

والمفضوحون من الفقهاء والعلماء في تاريخنا الإسلامي، وحتى يومنا هذا، لا يكفي مجلد لحصرهم، إذ بتقربهم إلى الحكام والسلاطين، وشوا بأقرانهم ومعاصريهم ومجايليهم، حتى دُفعوا وسيقوا إلى القتل، ومن هؤلاء المقتولين أقطاب في الشعر والنثر والتصوف والدِّين بشكل عام، وفي أمر هؤلاء قال بشر الحافي: «لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَذْكُرَ شَيْئًا مِنَ الْحَدِيثِ فِي مَوْضِعِ حَاجَةٍ يَكُونُ لَهُ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا يُرِيدُ أَنْ يَتَقَرَّبَ بِهِ، وَلا يَذْكُرُ الْعِلْمَ فِي مَوْضِعِ ذِكْرِ الدُّنْيَا، وَقَدْ رَأَيْتُ مشايخَ طَلَبُوا الْعِلْمَ لِلدُّنْيَا فَافْتُضِحُوا،...».

ومثلي لا يأبه بفقيهٍ حاسدٍ حاقدٍ مغتابٍ يفتي ضد فقيهٍ آخر، ليرضي حاكمًا أو أميرًا أو خليفة ما، وتكون النهاية المحتومة والمقررة سلفًا هي مقتل الخصم بعد اتهامه بالكفر والزندقة.

مَن كان منكم بلا معرفةٍ

فلا يُعوَّلُ عليه

أن تدرك، وتعي، وتفقه، وتعلم، وتتعلَّم، وتتأمَّل، وتفكِّر، وتفهم، وتبحث، وتستبطن، وتستشرف، وتتنبَّأ، وترى، و تُفسِّر، وتشرح، وتستقصي، وتناقش، وتُحاجج، وتُجادل، وتُحاور، تلك هي المعرفة.

فـ«الكَاملُ مَنْ عَظُمَتْ حَيْرَتُهُ» من فرط السُّؤال والسَّعي والحيْرة والمشاهدة، والكشف والإلهام، حيث إنَّ بحر المعرفة وسيعٌ ولا سواحل له، و«من ذاق عرف»، حيث الذوق سبيلٌ للمعرفة عند المتصوفة، ولكنه ليس السبيل الأوحد، وبالطبع ليس وحده وسيلة المعرفة، فـ «ما يجده العالم على سبيل الوجدان والكشف، لا البرهان والكسب، ولا على طريق الأخذ بالإيمان والتقليد» كما جاء في «طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن محمد ابن الحسين السُّلَمِي (325 - 412 هجرية). ويقول محيي الدين بن العربي في كتابه «فُصوص الحِكَم»: «اعلم أنَّ العلومَ الذوقية الحاصلة لأهل الله مختلفةٌ باختلاف القوى الحاصلة مع كونها ترجع إلى عينٍ واحدة».

ويذكر أبو القاسم القشيري (376 - 465 هجرية) في «الرسالة القشيرية» أن: «المعرفة على لسان العلماء هي العلم، فكل علم معرفة، وكل عالم بالله عارف، وكل عارف عالم»، وشجرة المعرفة مُتعدِّدة الجُذور والفرُوع، ومتنوِّعة الثمار، ولا تمنح نفسها لقاطفها بسهولةٍ ويُسرٍ، إذْ لا بد من دأبٍ ومُجاهدةٍ ومثابرة ومُراودة وخلوة وكشف؛ حتى يصل إلى المجهول.

و«المعرفة التي تُسْقِطُ التمييزَ، بين ما لا يجوزُ للمُكلَّف التصرُّف فيه، وبين ما لا يجُوز لا يُعوَّل عليه»، كما قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي في «رسالةُ الذي لا يُعوَّلُ عليه»، إذ ليس وراء المعرفة - التي تُدْرَكُ بالحواس والنظر والملاحظة والغرض والاستنتاج والاستنباط والاستدلال والتجربة والبحث وراء الأسباب والخبرة والاكتساب والتحصيل والاطلاع والتعليم والحدْس والعقل - مرمى ماديًّا سوى المعرفة ذاتها، والإفادة منها في بناء مُدن المعرفة، وتحقيق «الإنسان الكامل» التام الذي يعيشُ في هذه المدن، والمثالية في المعرفة ليست يوتوبيا أفلاطونية، ولكنها واقعٌ يسهلُ تحقيقه بيننا مثلما تحقَّق بين بشرٍ آخرين غيرنا، وبالتالي الجهل والفقر والجوع والمرض لا يُعوَّل على واحدٍ من بينها؛ لأنها تقف حائلًا وحائطًا عائقًا أمام تحقيق المعرفة التي تُثْمِرُ «السعادة المطلقة»، وتُحقِّق الرفاهيةَ القصوى للرُّوح والنفس التي تسعى إلى تغيير ذاتها؛ لأن المعرفة في حد ذاتها قوَّة، إذ هي في معناها العام «إدراك الشيء على ما هو عليه».

ومَن يمتلك المعرفة يكون صاحب رأي يخصُّه وقرار يتخذه، غير منتظر مساعدةً من أحدٍ، حيث يصبح سيد نفسه، وليس عبدًا لسيدٍ أو سيديْن أو أكثر في الوقت نفسه، وليس تابعًا لغيره مهما يكُن شأن هذا الغير، ومن ثم لا بد من قراءة كتاب الذات ومعرفة النفس، وشرح صدر الإنسان لآيته امتثالًا لقول النِفَّري: «وقال لي اعرف من أنتَ، فمعرفتك من أنت، هي قاعدتك التي لا تنهدم وهي سكينتك التي لا تزل».

وهنا لا بد من عقلٍ يفكِّر، وليس عقلًا ينقل عن سواه، يقلد أو يتبع، أو ينام في حِضن ما تركه الأسلافُ دون أن يغيِّره أو يطوِّره أو يضيف إليه، حيث المعرفة تُحرِّر الإنسان (صاحب المعرفة) من التقليد والتبعية.

وصدق أبو العباس أحمد بن العريف الصنهاجي (481 - 526 هجرية / 1088 - 1141 ميلادية) حين قال: «المعرفة محجَّتي و العلم حُجَّتي، فالعلماء لي والعارفون بي، والعارف يستدل بي، والعالم يستدل لي». فأصحاب المعرفة (لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

وقديمًا قال النفَّري (المُتوفَّى نحو 354 هجرية): «العِلْمُ الْمُسْتَقِرُّ هُوَ الْجَهْلُ الْمُسْتَقِرُّ»، وقال ابن العربي : «المَعْرِفَةُ إِذَا لَمْ تَتَنَوَّع مَعَ الأَنْفَاسِ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهَا». وقال أيضًا: «كل معرفة لا تتنوع لا يعول عليها»، ومهما أوتي الإنسانُ من معرفةٍ فـ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلً﴾.

أن نصل إلى الحقائق بدلًا من أن ننام في العماء، وننعم في الجهالة، فلن تضطلع بشيء لو لم تطَّلع على ذاتك؛ لتقرأها بعمقٍ وتجرُّد، بحيث تنحاز إلى التجريب والمغامرة. مردِّدًا مقولة ديكارت: «أنا أفكر إذن أنا موجود»، والتي تعني مباشرةً «أنا أعرف»؛ ولذا أرى أن الحُب يقود إلى معرفة الأشياء وإدراك كنهها؛ لأن الحُب يحرِّر الروح من ربقتها، ويمنحها حرية طيران لا تُحدُّ، خصوصًا إذا أدركنا أن النفس تتجدد خلاياها بالمعرفة.

ودائمًا ما أفصل بين المعرفة – التي هي إدراك الأسرار – وبين المعلومة، فالثانية هي الطريق الذي يمهِّد لمَن يسلك درب المعرفة الطويل الذي يؤدِّي إلى الحقيقة الكلية والمطلقة والتي لا يعتورها شكٌّ، ولا يعتريها بهتان.والعارف الرَّائي – من أهل الذوق وأصحاب الأسرار وحاملي نور الكشف - مَن يستطيع تحليل واستخدام ما تراكم أمامه من معلوماتٍ أيًّا ما كانت كميتها.

والمعرفة لا تحيا في مجتمعٍ يكرهها أو يعرقلها ويعوق شجرتها؛ لأن المعرفة بنت التعدُّد والتنوُّع والفرق والاختلاف وتموت مع الاستبداد والأحادية والقهر وإغلاق الأبواب والنوافذ حتى يفسد الهواء، و«المعرفة في اصطلاح النحاة هو اسم وضع لشيءٍ بعينه، وقيل ليستعمل في شيءٍ بعينه. ويقابله النكرة. التعريف عبارة عن جعل الذات مشارًا بها إلى خارج إشارة وضعية. ويقابلها التنكير وهو جعل الذات غير مُشارٍ بها إلى خارجٍ في الوضع»، ولابن العربي (558 هجرية - 1164 ميلادية / 63 هجرية - 1240 ميلادية) رسالة منشورة في كتاب اسمها «كتاب المعرفة»، و«شجرة المعرفة» - أو شجرة الوجدان أو الشجرة المُحرَّمة - وتلك الشجرة تقع كما جاء في «سفر التكوين» التوراتي في منتصف جنة عدن، وقد حرَّم الله على آدم وحواء أكل ثمار هذه الشجرة، فأغواهما الشيطان بالأكل منها ليخلدا، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [سورة الأعراف - الآية 22].

أمَّا شجرة المعرفة في زماننا، فحتمًا لا بد من أن تُذاق وتُؤكل.

وللمعرفة سبلٌ وطرائقُ يمكن تحصيلها والوصول إليها عبر الحواس والعقل والقلب والوحي والإلهام، و كسب المعرفة يتطلّب مثابرةً وجهدًا.

ولهذا يقول أبو علي الدقَّاق: «المعرفة توجب السَّكينة في القلب، كما أنَّ العلم يوجب السُّكون، فمَن ازدادت معرفته ازدادت سكينته».

يقتلُونَ أهلَ الله

الصوفيون لا يكفِّرون أحدًا من أية ملَّة.

وهم ليسوا أهل استبداد أو طغيان أو عدوان، إنهم فقط قريبون من الله.

لا يعرفون غلوًّا أو تعنُّتًا، بل هم أبناء السماحة والاعتدال، بديعون وليسوا مبتدعين، متفانون في عبادته، وزاهدون في الثروة والمظاهر، لا يبتغون ملذَّات الدنيا الفانية، ومتقشِّفُون في كل شيءٍ، ومكتفون بقلوبهم النقية المتطلعة إلى الحُب، وبعيدون عن التحارُب والتقاتُل والتطاحن والتكالب والمذهبية، مشغولون بتصفية قلوبهم، فهم يجاهدون روحيًّا ولا يحملون أيَّ أنواع من الأسلحة، مسالمون بطبيعتهم، وبحكم أخلاقهم وتربيتهم النفسية، ويسلكون طريق الحق والهداية، يبحثون عن الحقيقة المطلقة التي يسعون إليها، ويطلبون الوصول إليها.

ويؤمنون أن الذهاب إلى الله وعبادته والتضرُّع إليه على عدد أنفاس البشر، ويرشدون الخلق إلى طرق الحق، يدفعون الشر ويستجلبون الخير.

وهنا علينا أن نستعيد ما كتبه الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي شعرًا عن موقف المتصوفة من الأديان والمعتقدات :

لقد كنتُ قبل اليوم أنكرُ صاحبي

إذا لم يكُن ديني إلى دينِه داني

لقدْ صارَ قلبي قابلًا كلَّ صورةٍ

فمَرْعًى لغِزْلانٍ وديْرٌ لرُهْبانِ

وبَيْتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ

وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ

أدينُ بدينِ الحبِّ أنَّى توجَّهتْ

رَكائِبُهُ فالحُبُّ دينِي وإيماني

وللأسف يقول المتخلفون من السلفيين والوهابيين عن ابن العربي: «الشيخ الأكفر محيي الشرك»، ومَن يصفه بذلك من المؤكَّد أنه لم يقرأ كتابًا واحدًا له.

المتصوفة في مصر أو في غيرها من الدول مستهدفون ومُطاردون ومُحاربون من المتشدِّدين

قديمًا وحديثًا، ويُسَاء الظن بهم دائمًا، والأمر لا يختلف كثيرًا عندما سيق إلى الذبح قطبان صوفيان من أقطاب الوقت وهما الحلَّاج والسُّهروردي، حيث تُهدم أضرحة الأولياء والمتصوفة، أو تُحرق مساجدهم أو يتم تدميرها، والاعتداء على المصلين بها، إذ يرى السلفيون بطوائفهم المختلفة أن الصوفيين كفَّار وملاحدة، ويناهضونهم، ويناصبونهم الكراهية والعداء، وفي زماننا هذا يُكفِّر الوهابيون - أينما كانوا – المتصوفة ويحرقون كتبهم ويمنعونها، ويستهدفون المكتبات التي تبيعها، والناشرين الذين ينشرونها.

ففي مصر مثلًا رأينا سلفيين متطرِّفين ضالين مُضِلِّين مأجورين ومرتزقة من داعش أو سواها من جماعات الإسلام السياسي قتلت الأب الروحي للصوفيين الشيخ سليمان أبو حراز السواركي الأشعري الشافعي في سيناء، وأحد أبناء قبيلة السواركة، وكان ضريرًا و مُسنًّا يبلغ عمره حوالي مئة سنة، وخير مَن يمثِّل الإسلام المعتدل، الذي يتنافى مع أفكار الجماعات المتطرفة والشاذة، التي تلبس الدين رداءً خارجيًّا لها، حيث اتهمت الشيخ الزاهد بالكهانة والسِّحر، وادِّعاء علم الغيب، ودعوة الناس للشِّرك، وذبحته، وذبحت معه الشيخ قطيفان المنصوري الذي تم قتله بالطريقة نفسها، وبالتهم نفسها، وقد وزَّعت داعش أو تنظيم أنصار بيت المقدس أو ولاية سيناء (لا فرق عندي بينها في التطرُّف والتشدُّد وممارسة الإرهاب باسم الدين) فيديو يصوِّر مقتلهما مصحوبًا بجُملة: «تنفيذ الحكم الشرعي على كاهنين»، وكان ذلك في سنة 2016 ميلادية.

كأن هؤلاء القتلة المجرمين لا يدركون أن الدِّين – أي دين - يُحرِّم سفك دم الأبرياء، ويُشدِّد على حرمة دماء العجزة والضعفاء وكبار السن.

كما فجَّرت عددًا من الأضرحة الخاصة بالصوفيين في كل من الشيخ زويد والروضة بسيناء، ثم فجَّرت مسجدًا في يوم جمعة (مسجد قرية الروضة)، وكان مقرًّا للطريقة الجريرية الأحمدية الصوفية، ببئر العبد في سيناء، أثناء صلاة الجمعة، وسميت هذه الطريقة بالجريرية نسبةً إلى مؤسِّسها الشيخ عيد أبوجرير (1910 – 1971 ميلادية) المدفون في قرية سعود التي يسكنها أهل قبيلة الطحاوية أخوال ابني الوحيد أحمد، وقد رعاها بعد رحيله ابنه أحمد الأمين (توفي عام 2014 ميلادي)، وكان للشيخ عيد أبي جرير دور مهم في مقاومة أهل سيناء للعدو الإسرائيلي عندما كان يحتل جزيرة سيناء، ويعد من الرموز الكبار لمجاهدي سيناء.

حيث كان المصلون المسالمون بين يدي الله، الذي يعتقد السلفيون الوهابيون (عُبَّاد ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب) أنه مِلكُهم وحدهم، و يحتكرونه لهم، وأن سواهم كفَّار وزنادقة وملحدون ومشركون ومُهرطقون وخارجون على الدين. ويُخْرِج السلفيون - والوهابيون

منهم في المقدمة – الصوفيين من مذهب أهل السنة والجماعة، ويعتبرون أن مَن رجع عن طريق التصوف فقد تاب وعاد إلى ربه.

وقد أحكم القتلة قبضتهم على المسجد وأبوابه، وأطلقوا النيران على المصلين وهم يهتفون: «اقتلوا الكفار والمرتدين». فقُتل نحو ثلاثمائة وهم بين يد الله، وفي مسجده بقرية الروضة، التي يسكنها مسلمون ينتمون إلى الطريقة الصوفية الأحمدية أو البدوية، وهي إحدى الطرق الصوفية السنيّة، التي تنسب إلى الشيخ أحمد بن علي إبراهيم البدوي، السيد (فاس 596 هجرية /1199 ميلادية - طنطا 675 هجرية /1276 ميلادية) المُلقَّب بالشيخ المعتقد الصالح أبي الفتيان، وعُرف بأبي اللثامين السطوحي، وله الكثير من الألقاب، أشهرها شيخ العرب، وينتسب السيد البدوي من جهة أبيه إلى الحُسيْن بن علي بن أبي طالب، وقد عاش في العصر المملوكي، و نشر طريقته من طنطا، وتولَّى أمور الطريقة بعده عبد العال، وهو من أوائل مريديه الذين تربُّوا على يديه، وكان قد أوصاه قائلًا: «يا عبد العال، اعلم أنني اخترتُ هذه الراية الحمراء لنفسي في حياتي وبعد مماتي، وهي علامة لمَن يمشي على طريقنا من بعدي»، وبالفعل انتشرت طريقته من مصر إلى بلدان العالم الإسلامي مثل: تركيا وليبيا والسودان وغيرها من البلدان العربية والأوربية والآسيوية.

ولقد تفرَّعت منها طرق كثيرة من بينها الطريقة الجريرية الأحمدية.

ولمَّا كان المصلون يهرولون خارجين من المسجد؛ لينجوا من القتل، كأنني سمعت أحدهم يردِّد ما قاله الحلاج يوم مقتله: «... هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصُّبًا لدينك وتقرُّبًا إليك. فاغفر لهم. فإنك لو كشفتَ لهم ما كشفتَ لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترتَ عني ما سترتَ عنهم لما ابتُليتُ بما ابتُليت. فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد».

إن تاريخ المسلمين ملآن بتعذيب وقتل المتصوفة والعلماء والفقهاء والأئمة والشعراء، ولو منحتُ نفسي فرصة الجمع والإحصاء لاحتجتُ سنواتٍ؛ كي أفي بملف كهذا، ولكنني سأضع هنا عددًا قليلًا من رموز التراث الذين اتهموا بالزندقة والإلحاد مثل: الرازي، والخوارزمي، والكندي، والفارابي، والبيروني، وابن سينا، وابن الهيثم، وأبو حامد الغزالي، وابن رشد، والعسقلاني، وابن حيان، والنووي، وابن المقفع، والطبري، والكواكبي، والمتنبي، وبشار بن بُرد، ولسان الدين بن الخطيب، وعمر بن الفارض، ورابعة العدوية، والجاحظ، وأبو العلاء المعري، وابن طفيل، وابن بطوطة، وابن ماجد، وابن خلدون، وثابت بن قرة، و ابن المنمر، والأصفهاني، والجعد
ابن درهم، وأحمد بن نصر، وأحمد بن حنبل، وفضل الله الأسترابادي مؤسِّس المذهب

«الحروفي»، والذي اتُّهم بالهرطقة، وأُعدم في عام 1393، وعلي عماد الدين النسيمي أحد أبرز شعراء الصوفية باللغة التركية ومؤسس الشعر التركي باللهجة الجنوبية الغربية (التركمانية الأذرية)، تخلَّصت منه الدولة المملوكية في سورية، بعدما اتهمه علماء الدين في حلب بالهرطقة، وتشير المصادر إلى «أنه بعد أن سُلخ جلده وقُطع رأسه وبُترت أعضاؤه، حَمل جلده المسلوخ على كتفيه وغادر حلب عبر أبوابها الاثني عشر معًا». وتعدُّه الطائفة البكداشية (البكتاشية) أحد شعرائها السبعة المقدَّسين»... وهؤلاء وغيرهم من الرموز قد كُفِّروا وعذِّبوا وطوردوا ونكِّل بهم، وضُرِبوا بالسياط، وأُحرِقت كتبهم أو دُفنت في باطن الأرض أو أُتلفتْ أو غُسلتْ بالماء.

القتل في المساجد

«سُنَّة» سلفية قديمة

قتْلُ المسلم وهو يصلِّي، على يد مَن يرى نفسه مسلمًا عبثٌ، وحدثٌ لا معقول، لا تستطيع الروح إدراكه.

إذ هو عبثٌ بالدين، وبالروح معًا، واستخفاف بأصول العقيدة، وجهل بقرآن الله، وسُنَّة نبيه، وكراهية وحقد للإنسان، في مكانٍ له حُرمته وقداسته وجلاله، خُصِّص للخشُوع والتقوى والورع والعبادة والوقوف بين يدي الله، والخضُوع له، وهو في هذه الحال ضيفٌ عند الله، فكيف يتم قتله؟: «إنّ بيوتي في الأرض المساجدُ وإنّ زُوّاري فيها عمّارها فطوبى لمَن تطهّر في بيته وزارني في بيتي وحقٌّ على المَزُورِ أن يكرم زائره».

ودعك من أن الدستور المصري الذي تحمي مادته الرابعة والستون حرية ممارسة الشعائر الدينية: (حرية الاعتقاد مطلقة، وحرية ممارسة الشعائر الدينية وإقامة دور العبادة لأصحاب الأديان السماوية، حق ينظمه القانون)، و لنذهب إلى النصوص المقدَّسة مباشرةً، ونسأل: ألا يحفظها هؤلاء القتلة المجرمون إن كانوا حقًّا مسلمين؟

ألم يقُل الرسول ﷺ: «جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ وَشِرَاءَكُمْ وَبَيْعَكُمْ وَخُصُومَاتِكُمْ وَرَفْعَ أَصْوَاتِكُمْ وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ، وَاتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ، وَجَمِّرُوهَا فِي الْجُمَعِ».

وقد رأى الخليفة عُمر بن الخطاب رجلًا يرفع صوته وهو في المسجد، فنهره مستنكرًا: «أتدري أين أنت؟»، فما بالك بالقتل؟

وسُئِل الإمام مالك (93 -179 هجرية / 711-795ميلادية) عن حُكم رفع الصوت في العلم بالمسجد، فكانت إجابته: «لا أرى في ذلك خيرًا»، فما بالك – إذن - بالقتل ؟

ومن ثم لا اجتهاد مع نصُوصٍ وردت في القرآن والسنة الصحيحة.

إنَّ سفك الدماء في المسجد، بات يعدُّ ثقافةً راسخةً في أذهان المتشدِّدين السُّفهاء، والمنحرفين دينيًّا من الغُلاة المُتعصِّبين، والمختلفين عقائديًّا مع المقتول، والمختلين عقليًّا ونفسيًّا، حيث يرونه كافرًا، حتى ولو كان يصلِّي في مسجدٍ، وهم يطبِّقون حرفيًّا ما فعله أسلافهم منذ السنوات الأولى بعد وفاة النبي محمد، حيث استحلُّوا دماء صحابة الرسول، واثنين من خلفائه، سواء وهم يصلُّون، أو وهم في طريقهم إلى المسجد.

فالقتل في المسجد أمر ليس جديدًا في تاريخ المسلمين، بل إنه تكرَّر آلاف المرَّات وبطرائق شتَّى، وأساليب مختلفة، بدءًا من خُلفاء وصحابة رسول الله الذين اغتيلوا وهم يصلُّون في المساجد، وحتى انتهاك حُرمة المساجد في زماننا، والتي هي إفسادٌ في الأرض ليس بعده إفساد؛ لأن المساجد جُعلت لله وحده : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.. [البقرة: 114].

فعُمر بن الخطاب قُتل أثناء إمامته لصلاة الفجر بمسجد الرسول في المدينة بثلاث طعناتٍ بخنجرٍ مسمُومٍ على يد فيروز، الذي يُكنّى بأبي لؤلؤة، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة (سنة 23 هجرية / 644 ميلادية)، وطُعن مع عمر ثلاثة عشر رجلًا من المسلمين، مات منهم سبعة، ثم قَتل أبو لؤلؤة نفسه، لمَّا اشتد الحصار عليه، ورأى نفسه مقتولًا لا محالة.

وقُتل عليٌّ بن أبي طالب (13 من رجب 23 قبل الهجرية/17 من مارس 599 ميلادية - 21 من رمضان 40 هجرية/27 من يناير 661 ميلادية) بعدما طعنه عبدالرحمن بن ملجم المرادي في مسجد الكوفة، حيث ضربه بسيفٍ مسمُوم على رأسه، فمات بعد يومٍ، وقبل موته طلب عليٌّ بن أبي طالب أن يرى قاتله، فقال له ولأصحابه الذين أحضروه إلى فراشه حيث يصارع الموت: «احبسوه فإن متُ فاقتلوه ولا تمثِّلوا به، وإنْ لم أمُت فالأمر إليَّ في العفو أو القصاص.. النفس بالنفس، إن هلكتُ فاقتلوه، وإنْ بقيتُ رأيتُ فيه رأيي.. يا بني عبدالمطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين.. ألا يقتلن إلا قاتلي، إنْ عشت فالجرُوح قصاص، وإنْ مت فاقتلوه.. لكن احبسوه وأحسنوا». وابن ملجم كان يؤمن أنه «قتل شر البرية دينًا»، ومن قتلهما (عمر وعليٌّ) في المسجد يدركان أنهما من المبشَّرين بالجنة، ومع ذلك تم القتل وفي بيت الله، ولم يختارا مكانًا آخر.

وأهل الوهابية أجازوا القتل في المساجد، واعتبروه جهادًا ضد الكفر والزندقة، حيث يرون مَن يختلف معهم مشركين وخارجين على المِلَّة، كما أنهم أنعموا في هدم الدور التاريخية لرموز الإسلام منذ بزوغه في الجزيرة العربية؛ بحجَّة أن الناس ستفتتن ببيوت هؤلاء، بدلًا من أن يتوجَّهوا إلى الكعبة، وخسرت الحضارة الإسلامية آثارَ خلفاء وصحابة رسول الله التي كان ينبغي الحفاظ عليها.

والوهابيون هم مَن قتلوا الأمير عثمان بن غنام بعد صلاة الجمعة في مسجده بالعيينة، وكان ذلك في الخامس عشر من شهر رجب من عام 1163هجرية الموافق 16 من يونيو عام

1750ميلادية، وكان ذلك أول قتل ينفِّذه الوهابيون في بيتٍ من بيوت الله، وفي سنة 1802 ميلادية، قُتل خمسة آلاف مسلم، وأصيب ألفان في مسجد كربلاء، حيث كانوا يحتفلون بعيد الغدير (يحتفل الشيعة بهذا اليوم، ويعتبرونه ثالث الأعياد وأعظمها، ويقام يوم 18 من ذي الحجة من كل عام هجري)؛ بحجَّة أن مَن فيه هم كفار لأنهم يتبعون المذهب الشيعي، كما تذكر المصادر فقد هُدِم مسجد الحسين وسُرقت محتوياته، وغنم الوهابيون ما مقداره حمل أربعة جِمالٍ ملأى بالغنائم.

كما سلب الوهابيون ونهبوا ما يحتويه المسجد النبوي سنة 1804 ميلادية، وذكر عبد الرحمن الجبرتي (1167 - 1237 هجرية - 1754 - 1822 ميلادية) المتعلقات التي سُرقتْ من المسجد النبوي في مؤلفه الأشهر «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» والمعروف اختصارًا بـ«تاريخ الجبرتي»؛ إذ ذكر أن ما سُرق هو: «أربعة أوعية كبيرة من الجواهر المُحلاة بالماس والياقوت العظيمة القدر، ومن ذلك أربعة شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة ماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام، ونحو مئة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص ومنزل عليها ماس وياقوت، ونصابها من الزمرد واليشم (اليشْب أو الجاد Jade) ونحو ذلك، وسلاحها من الحديد الموصوف كل سيف منها لا قيمة له، وعليها دمعات باسم الملوك والخلفاء السالفين وغير ذلك».

مع أن الله في عُلاه يقول في سورة النور: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصلاةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ والأبصار﴾.

و قُتل العالم الإسلامي الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (1347 - 1434 هجرية / 1929 - 2013 ميلادية) وهو فقيه سنِّي معتدل، وقُتل معه جماعة ممَّن التفوا حوله يستمعون إليه في مسجد الأمويين بدمشق بلغ عددهم تسعة وأربعين شخصًا وجرح أكثر من ثمانين.

وقد رأيت الكثير من الفيديوهات المصورة في غزة، حيث يمارس أعضاء من جماعة أو حركة حماس تعذيب الشباب المختطف داخل المساجد، التي جعلوها سجونًا لمَن يناهضهم أو يختلف معهم، ناسين قول الله تعالى:

﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾، وما قاله رسول الله: «لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَي الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ مِن الإِثْمِ، لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ، خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ». وهم بدلًا من أن يدعوا إلى الاعتكاف، صار الاعتقال دينهم وديدنهم.

وقد أفتى د. يوسف القرضاوي لحركة حماس باقتحام مسجد ابن تيمية في غزة سنة 2009

ميلادية، وقتل جميع مَن كان بالمسجد من مصلين، كأنه لا يدرك – وهو المتخصِّص – قول الله في قرآنه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

والصوامع أي: الأديرة، والبيع أي: الكنائس، والصلوات أي: معابد اليهود.

وقد انتهجت جماعة «بوكو حرام» في نيجيريا ظاهرة قتل المصلين في المساجد، وزادت حالات اغتيال الخطباء وأئمة المساجد ومشايخ العلم، حيث فعلت ذلك في المسجد المركزي بمدينة «كانو»، كبرى مدن شمال نيجيريا، وفي غيره من المساجد. وهذه الجماعة كغيرها من جماعات العنف الديني تدعو إلى هدم وحرق المساجد التي بناها أفراد أو هيئات أو مؤسسات دينية (رسمية)، حيث يرونها كافرة ومرتدة.

وفي اليمن طالب أحد السلفيين أئمة المساجد بأداء صلاة الفجر في منازلهم بدلًا من المساجد؛ ليتفادوا عمليات الاغتيال التي طالت كثيرين من نظرائهم.

ولعل العراق يحتل المرتبة الأولى بين البلدان العربية والإسلامية في ظاهرة حرق وهدم وتفجير المساجد والزوايا والحُسينيات المخصَّصة لأصحاب المذهب الشيعي.

وظاهرة القتل في مساجد للسنَّة والمتصوفة والشيعة، وتفجير وهدم المراقد والمقامات والأضرحة صارت شائعة في كل من العراق وسوريا واليمن والسعودية والكويت وليبيا وتونس ونيجيريا والهند وباكستان وأفغانستان ثم مصر.

الموالد ليست خطرًا

مصر بلا موالد ينقصها الكثير من الفرح والبهجة والإشراق.

وإذا كان للمسلمين في مصر عيدان هما عيد الفطر، وعيد الأضحى، فإن الموالد الدينية الصوفية، كانت أعيادًا دائمةً موزَّعةً على جغرافية مصر المُمتدة في ريفها وحضرها.

والمولد كما عرفتُه في طفولتي وصباي طقسٌ شعبيٌّ دينيٌّ، يتم فيه الاحتفاء والاحتفال برمزٍ صوفيٍّ، أو بطريقةٍ صوفيةٍ رئيسيةٍ، أو فرعيةٍ تمثِّل جُزءًا من خريطة الطرق الصوفية في مصر.

ومنذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ومصر تحتفل بأوليائها وأقطابها من المتصوفة، سواء مَن وُلدوا على أرضها، أو مَن مَرُّوا بها في طريقهم إلى الحجِّ، أو مَن مكثُوا فيها بضع سنوات من أعمارهم، ولكنَّ الحال تبدَّلت واختلفت مع هبُوب رياح المذاهب السلفية المُتشدِّدة، وبروز الجماعات الدينية المُتطرفة والمُوغلة في سفك الدماء، وتكفير الناس والدولة، وإطلاق يد جماعة الإخوان، حتى تمكَّنت من مفاصل الحياة جميعها، وصار لها ذراعٌ طويلة تضرب وتنخُر في كل شأن.

وكل طائفة من هذه الطوائف أرادت بهمَّةٍ ودأبٍ أن تطرُد الصوفيين من الساحة، فعمدت إلى تكفيرهم ومحاربتهم بدعمٍ خارجيٍّ من دولٍ ترى في التصوف كُفرًا، وتريد تسييد مذهبها الذي لا محل له بين المذاهب الدينية التي يعرفها المسلمون في العالم، وتحضُّ على هدم مقامات أقطاب التصوف، وتدمير مقابر الأولياء، بحيث لا يكون في المشهد الديني - الذي هو أساسًا سياسي، ولا يزيد على كونه صراعًا على السلطة - غير الإخوان والسلفيين، ومَن دار في فلكهم، ومن ثم انتشر الدم، وبرزت إلى السطح جرائم الاغتيالات، وقتل السُّيَّاح، وضرب المدارس، وسكب مياه النار على النساء في الشوارع؛ لأن لباسهن ليس شرعيًّا، ولأنهن تاركات شعورهن تنسدل على أكتافهن، وسرقة محلات الذهب، والنَّيْل من الأقباط، ومُهاجمة الكنائس، واغتيال الكُتَّاب والمُفكِّرين ممَّن لهم آراء أخرى تناهض هؤلاء الأدعياء الذين نصَّبوا أنفسهم أوصياء على الدين، وحُماة العقيدة، ونوَّاب الله، وأصحاب التوكيل الوحيد من السماء، والوسطاء الرسميين بين العبد وربه.

ورأينا الأزهر والأوقاف ودور النشر تمتنع في أغلبها عن نشر كُتب التصوف، بل إن هناك دورًا للنشر، كانت تأخذ دعمًا سخيًّا من إحدى الدول مُقابل ألا تنشر كُتبًا للتصوف، إلى حدِّ أن هذه الدار، ارتكبت جريمةً لا تُغتفر، حيث امتنعتْ عن تسليم أصول الكتب التي لديها حول التصوف، ومنها كتبٌ مُترجمة من الفرنسية إلى العربية، أنفق أصحابها سنواتٍ من أعمارهم في الاشتغال

عليها، وكان رد الدار أنها فُقدتْ وضاعت، ولم يكن المؤلفون وقتذاك لديهم نسخٌ أخرى كعادة هذه الأيام، حيث وسائل التكنولوجيا الحديثة في الطباعة.

لقد مات فؤاد كامل أحد أهم مبدعي مصر في الترجمة إثر فقده لأربعمائة صفحة، كان قد سلمها لهذا الناشر، ترجمها عن الفرنسية لكتاب المستشرق الشهير هنري كوربان (1903 - 1978 ميلادية) «الخيال الخلَّاق في تصوف ابن عربي»، والذي سيترجمه بعد ذلك صديقنا المغربي فريد الزاهي، وهو يعتصر ألمًا، لأنه يترجم كتابًا ترجمه قبله عظيمٌ من مصر، أضاعه عمدًا الناشر المصري الشهير الذي كان يتلقَّى الأموال للإسهام في إماتة التصوف، ويعيش بيننا كملاكٍ لم يرتكب إثمًا.

الموالد في مصر لا تكلِّف الدولة مليمًا واحدًا، وليست خطرًا على الأمن الوطني أو الأمن القومي، وما التجمعات فيها سوى تجمُّعٍ للأحباب والمُريدين الذين يبحثون عن الفناء في الذات الإلهية، هم وقُود العشق الإلهي، وليسوا قتلةً ولا سفَّاكي دماء، أنقياء أتقياء، سمْتُهم النقاء وصفاء الروح.

وليلة المولد ليست عُطلةً رسميةً، كما أن الأرض التي تُقام عليها الموالد هبةٌ من أهل كل قرية، ولكن مع زحف التشدُّد الديني على أرض مصر، اغتُصبت ساحاتُ وميادين وأراضي الموالد.

وفي حوار أجراه معي في مونتريال «كلود ليفيك» نُشر 21 من أكتوبر 2013 ميلادية بجريدة «لو دوفوار» الكندية بلسانٍ فرنسيٍّ، وهي من أشهر وأكبر الصحف في كندا، وقد ترجم فقرات من الحوار إلى اللغة العربية الشاعر والناقد الدكتور وليد الخشاب أستاذ الأدب بجامعة تورونتو الكندية قلتُ: «إن المتصوف كائن منفتح على العالم، يقبل الديانات كافة. وكما قال الشيخ الأكبر والصوفي المسلم العظيم، ابن العربي: الحب ديني وإيماني».

«المتصوفة مسالمون، يحبون الحياة والعشق، ولا يمارسون السياسة». إلا أن هذه السمة لم تجنبهم ويلات الاضطهاد على مر العصور. وهم يشكِّلون الأغلبية في العديد من البلاد الإسلامية، ومنها مصر، لكن «تم إسكات أصواتهم».

«يؤسفني أن أقول إن الغرب لا يحتفظ (من العالم الإسلامي) إلا بصورة المتطرفين. يظن أن هذا العالم لا يقدم سوى المجرمين».

هذا جزءٌ من حواري، لكنني قلتُ أيضًا لمحاوري إن الغرب وأمريكا دائمًا ما يقدمان الدعم المادي والمعنوي لكل الجماعات الدينية المتشددة ولم نرهما مرةً واحدةً يدعمان المُتصوفة أو

التصوف، أو حتى ينفق مالًا قليلًا لنشر كتابٍ صوفيٍّ؛ لأنه يدرك أن التصوف صورة مشرقة للإسلام، وهو لا يريد لهذه الصورة أن تنتشر وتتعمَّق في نفوس العالم، الغرب لا يريد ابن العربي (558 هـ - 1164م/638 هـ - 1240م) آخر، ولا جلال الدين الرومي (604 هـ - 672 هـ/1207 - 1273 م) آخر؛ لأنهما أبرز أنموذجين يدلان على سماحة واعتدال الدين الإسلامي.

الموالد كما شهدتُها ومارستُ الذِّكْر فيها، تعبيرٌ عن فرح القلب بالحب الذي يُعمِّر الأرواح، ومع ذلك اعتادت الدولة المصرية من دون سببٍ واضحٍ على مدى قرنٍ من الزمان أن تضحِّي بقيم وتقاليد هذه الموالد بالمنع لا بالمنح والتصريح، حتى رأينا المصريين يزدادون خسارةً مع استفحال وتمدد إسلام الصحراء وآسيا (ممارسةً وملبسًا)، حيث اعتادت كسر خاطر المُحبين، وقتل الفرحة عند المُريدين من بسطاء الناس وفقرائهم وعامتهم والذين تركوا قُراهم ومدنهم وأتوا للاحتفال بالمولد، ومن ثم هناك احتقانٌ مدفونٌ في صدُور الذين حُرموا من الموالد؛ لأن الدولة خذلتهم أيام حكم الرئيس محمد حسني مبارك، ولم تؤازرهم يومًا في صراعهم مع السلفيين والإخوان وطوائف ومِلَل الجماعات الدينية، حيث غابت السعادة مع مُهاجمة الموالد وحرقها وتخريبها وتدميرها، وهي عندي عادة مصرية أصيلة ومُحبَّبة وخاصة، وتشير إلى محبة المصرين للتصوف، ولآل البيت من دون تزمُّتٍ أو ادِّعاء، والموالد كنزٌ من كنوز مصر وثرواتها، فكيف لها أن تُلغى وتُشطب من تاريخ مصر الحديث، فلا شك أن هناك تضييقًا على مَن يتولون إقامة الموالد، ناهيك عن الخسارة الروحية.

لا أريد أن يقول لي أحد إن الموالد ممنوعة بأمر من الدولة المصرية، وأن الفرح بطقسٍ كهذا صار عادةً ذميمةً، وأن الموالد ما هي إلا بدعة ومَن يرتادها كافر وزنديق وخارج على الإسلام، إلا إذا كان مَن يتولَّى الأمور سلفيون ودواعش وإخوان وجماعات دينية.

وفقط سأذكِّر بما مضى وأقول: إن حامد محمود باشا وزير الصحة، هو مَن كان يدعم مولد طوخ، وإن طه حُسين (1306 هـ / 15 من نوفمبر 1889م - 1393 هـ / 28 من أكتوبر 1973م) وزير التعليم وعميد الأدب العربي، هو مَن أنقذ مولد مغاغة من الضياع، بل إن أقباط مصر في الزمن الماضي، كانوا يدعمون الموالد الدينية الإسلامية في مصر، بل و يشاركون فيها بالمؤازرة والتعاطف.

شعب الموالد، شعب وديع ومُحب وودود، لا يحمل في يديه سلاحًا، ولا يمارس شغبًا، ولا يخرِّب مُنشأة، ولا يخلُق اضطرابات ما في أي مكان يكون فيه.

فأحدهم - في زمنٍ ماضٍ - سعى يومًا إلى إلغاء مولد السيد البدوي (فاس، 1200 - طنطا، 1276هجرية) في طنطا أو تأجيله إلى أجل غير مُسمًّى، بعدما قرأ وصفًا للمولد، من أنه يجتذب مُريدين وأتباعًا ومُحبين أكثر ممَّا تجتذبُ مكة.

المُولد حريةٌ وبهجةٌ وتجارةٌ رابحةٌ لكل مَن يشارك فيه.

ذُو النُّون المصري

رأسُ الصُّوفية

«لا تَسْكُنُ الْحِكْمَةُ مَعِدَةً مُلِئَتْ بِطَعَامٍ..»

منذ قرأتُ هذه الجملة الدَّالة، وأنا في التاسعة عشر من عُمري، أتحثَّثُ خُطاي في أرضٍ جديدةٍ هي سوهاج موطن صاحبها «أخميم»، وأنا أسعى أن أملأ معدةَ رُوحي بتصوفٍ آخر غير الذي سلكتُه مع الشاذلية في قريتي كفر المياسرة، وأنا صبيٌّ صغيرٌ، وكنتُ قد تعرَّفتُ خلال سنتي الأولى في قسم الصَّحافة بكلية آداب سوهاج جامعة أسيوط وقتذاك بالسيد أبي ضيف المدني، وكان يعمل وقتذاك موجِّهًا بالتربية والتعليم في سوهاج، وامتدَّت علاقتي به، حتى بعد تخرُّجي في الصَّحافة واشتغالي في مؤسسة «الأهرام»، عندما كان يأتي إلى القاهرة لمتابعة كُتبه حول التصوُّف، ومنها كتابه المُبكِّر عن ذي النون المصري «ذو النون المصري.. والأدب الصُّوفي»، وقد صدر عن دار الشروق في القاهرة، والذي قرأته قبل قراءتي كتابيْ د.عبد الحليم محمود «العالم العابد العارف بالله ذو النون المصري»، و«المكنُون في مناقب ذي النون» لجلال الدين السيوطي. لكنَّني لم أكُن قد قرأتُ رسالة محيي الدين ابن العربي «الكوكب الدُّري في مناقب ذي النون المصري» إلا بعد إعادة نشر رسائل ابن العربي، وقد اهتم بنشر هذه الرسالة وتحقيقها وتقديمها صديقي الكاتب سعيد عبد الفتَّاح. وهناك أطروحة للماجستير نوقشت سنة 1993 ميلادية، لم أتمكَّن من قراءتها لصعُوبة التوصُّل إليها موضوعها «ذو النون المصري وتصوُّفه» للباحث مؤيد فيصل السَّاعدي نالها من جامعة بغداد - كلية العلوم الإسلامية، بإشراف فرج توفيق الوليد.

وكان ذو النون المصري هو البابُ الذي فُتِح لي نحو التصوُّف الإشراقي، وذهابي نحو أقطاب الوقت والشَّطح الذين رافقوا رحلتي في هذه الدنيا

– حياةً وشِعْرًا -، وليس غريبًا أن أتحمَّسَ وأكتبَ كتابًا عن ذي النون المصري، وأنا طالبٌ في الكلية، لكنه ضاع مني ولم يُقدَّر له النشر، وقصة ضياعه مؤلمة وعبثية، ولا مكان هنا للحديث عنها.

كما أنَّني لم أنسَ المقُولة التي حفظتها عن ذي النون: «عرفتُ ربِّي بربِّي، ولولا ربِّي ما عرفتُ ربِّي»، ولم أحتج وسيطًا في حياتي أو هاديًا ولا مُرشدًا أو دليلًا لحيرتي.

يكاد يكُون ذُو النون المصري - الذي كانت له زاويةٌ صوفيةٌ في أخميم يرتادُها رجالُ الطَّريق الصُّوفي - أسطوريًّا من فرط القصص التي نُسجت حوله، والمتصل أغلبها بكراماته وقُدراته

الخارقة للعادات، فهو ابنٌ لتراثٍ مصريٍّ يونانيٍّ، كان موجُودًا في زمانه، خُصُوصًا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة المتأخرة والفلسفة الهرمسية (نسبةً إلى هرمس، وهو عند المصريين آخنوخ، وعند اليونانيين آرميس، وعند المسلمين إدريس، أوَّل مَن علَّم الكتابة والصَّنعة والطِّب والتنجيم والسِّحْر..)، وهو ابن العاطفة الشاعرية الجيَّاشة، وابن المعرفة الذوقية، وقد انسحب ذلك على آثاره التي تركها شِعْرًا ونثرًا، فاض قلبه بالمحبة الإلهية، وشُغِل بوحدة الشُّهود، أي لا يرى الصُّوفي شيئًا غير الله، أي حال الفناء، لا وحدة الوجُود أي لا يرى الصُّوفيُّ شيئًا إلَّا ورأى الله فيه، أي حال البقاء.

وبالفعل كان ذُو النون المصري لا يرى شيئًا إلا ورأى الله فيه. حيث عاش منذ شبابه بقلبٍ سماويٍّ، إذ جال منذُ البداياتِ، فزار مكة ودمشق وأنطاكية وبغداد والمغرب وتونس، وبيت المقدس واليمن والمدينة، وجبل الكام ووادي كنعان، وجبال نيسان، وبوادي الحجاز والشام وتيه بني إسرائيل، عدا تنقلاته الكثيرة في صحارى مصر وطور سيناء، وغيرها من المدائن والبلدان. «ارتحلتُ ثلاث رحلاتٍ وعدتُ بثلاثة علوم: أتيتُ في الرحلة الأولى بعلم يقبله الخاص والعام، وأتيتُ في الرحلة الثانية بعلم قبله الخاص ولم يقبله العام، وأتيتُ في الثالثة بعلمٍ لم يأخذ به الخاص ولا العام فبقيتُ شريدًا طريدًا وحيدًا». «وقد ظل ذو النون على هذه الحال من الإقامة والرحلة، يتلقَّى العلم حينًا، ويلقى الحكمة حينًا آخر، ويعظ الناس ويرشدُهم ويبصِّرُهم بالحقائق ويوقفهم على الدقائق».

وجابَ الآفاقَ المجاورةَ له حيثُ آثار ما تركه المصريون القدماء، باعتبار أنَّ أخميم «بيتٌ من بيوت الحِكمة القديمة، وفيها التصاويرُ العجيبةُ والمثلاثُ الغريبةُ، التي تزيد المؤمن إيمانًا والكافر طغيانًا».

الأمر الذي جعله يسعى إلى معرفة لغتهم وفكِّ رمُوزها، وكثير من الشواهد تثبت أنه كان يقرأ الرموز الهيروغليفية قبل أن يفكَّها شامبليون (فيچيك، 23 من ديسمبر 1790 – باريس، 4 من مارس 1832ميلادية) بألف سنةٍ من على حجر رشيد الذي نقش عام 196 قبل الميلاد. وقد ذكر المسعودي (283 - 346 هجرية / 896 - 957 ميلادية) الذي توفي بعد ذي النون المصري بمئة عام «أنه وُفِّق إلى حلِّ كثيرٍ من الصور والنقوش المرسُومة عليها». وكان والده نوبيًّا، وكان حارسًا لبعض المعابد المصرية في أخميم، وله ثلاثة بنين آخرين هم: ذُو الْكِفْلِ، وَعَبْدُ الْخَالِقِ، وَعَبْدُ الْبَارِئِ، وكان ذو النون يَعرف اللغة المصريَّة القبطيَّة، لغة قدماء المصريين، تعلَّمها من الكتابة التي على المعابد، ومن بعض الرهبان الذين كانوا يعرفونها في القرن الثالث الهجري، حيث

ولد وعاش ذو النون في زمن الخلافة العباسيَّة.

ويذكر المستشرق الإنجليزي رينولد نيكلسون (1285 - 1364 هجرية /1868 - 1945 ميلادية) «أن ذا النون كان كثير العكوف على دراسة النقوش البصرية المكتوبة على المعابد وحل رموزها، كما كانت مصر القديمة في نظر المسلمين مهد علوم الكيمياء والسِّحْر وعلوم الأسرار، وكان هو من أصحاب الكيمياء والسِّحْر مع أن الإسلام حرم السِّحر، ولذلك ستره بلباس الكرامات، ومن هنا بدا تأثير السِّحر في التصوف، ويؤيد ذلك استخدام ذي النون الأدعية السِّحرية واستعماله البخور لذلك كما ذكره القشيري في رسالته».

وقد التقى ثماني عشرة امرأة من العابدات الزاهدات الناسكات خلال أسفاره وسياحاته في الجبال والوديان والبراري والبلدان والمدائن التي ارتحل إليها، حيث قضى شطرًا كبيرًا من حياته متنقِّلًا وسائحًا، ولعلَّ العارفة فاطمة النيسابورية وهي من خراسان أبرز مَن التقى في تطوافه، وقال عنها ذو النون: «هي ولية من أولياء الله وهي أستاذي»، سكنت مكة، وتوفيت في طريق العمرة سنة 223 هجرية.

وهي أحد أعلام التصوف السني، وكانت من قدماء نساء خراسان، قال عنها أبو عبد الرحمن السلمي (24 من أبريل 937 - 11 من نوفمبر 1021ميلادية /10 من جمادى الآخرة 325 - 3 من شعبان 412 هجرية) إنّها: «من العارفات الكبار، لم يكُن فِي زمانها فِي النِّسَاء مثلهَا»، كما قال عنها أبو يزيد البسطامي: «مَا رَأَيْت فِي عمري إِلَّا رجلًا وَامْرَأَة فالمرأة كَانَت فَاطِمَة النيسابورية مَا أَخْبرتهَا عَن مقَام من المقامات إِلَّا وَكَانَ الْخَبَر لَهَا عيَانًا»، ومن أقوالها: «مَن لم يكُن الله مِنْهُ على بَال فَإِنَّهُ يتخطَّى فِي كل ميدان وَيتَكَلَّم بِكُل لِسَان، وَمن كَانَ الله مِنْهُ على بَال أخرسه إِلَّا عَن الصدْق وألزمه الْحيَاء وَالْإِخْلَاص». و«الصَّادِق والمتقي الْيَوْم فِي بَحر يضطرب عَلَيْهِ أمواجه وَيَدْعُو ربه دُعَاء الغريق يسْأَل ربه الْخَلَاص والنجاة».

ومن بين مَن التقاهن رابعة العدوية، وقيل إنها تابت على يديه، حين استمعت إلى إنشاده، وهما في سفينةٍ، إذ كانت مع جماعةٍ تشرب الخمر:

أحسن من قينةٍ ومزمارِ

في غسقِ الليلِ نغمة القاري

يا حُسنه والجليل يسمعُهُ

بطيب صوتٍ ودمعه جارِ

وخدهُ في الترابِ معفرٌ

وقلبه في محبةِ الباري

يقولُ يا سيدي ويا سندي

أشغلني عنك ثقل أوزارِي

وقال ذو النون: «مَن أراد أن يتعلم المرُوءة والظرف فعليه بسقَّاء الماء ببغداد، ومَن أراد أن يسمع تجريد التوحيد وخالص التوكُّل فعليه بالنساء الزَّمِني»، أي الدائمات المرض أو الضعيفات من كِبَر السن.

ويعد شقران العابد هو شيخ ذي النون المصري، وقبره موجودٌ بمصر كما جاء في كتاب «مرشد الزوار إلى قبور الأبرار» لزين الدين بن الموفق (توفي في سنة 615 هجرية) عند رأسه من الغرب، قال القضاعيّ في كتابه الخطط: «هو شقران العابد، أستاذ ذي النون، توفي قبل ذي النون، لا أعلم في أيّ سنة توفي، فإنني لم أقف له على تاريخ وفاةٍ، وقبره شرقيّ التربة التي فيها قبر ذي النون، بينهما تربتان: إحداهما لأبي جعفر بن حواصل، والأخرى تلاصقها، يُصعد إليها بدرَج، ويُنزل إلى هذا القبر بدرج أيضًا، وهو أحد القبرين اللّذين في ظهر محاريب ابن حولي القرقوبي، ذات القبور التي أكثرها منكَّسة، وهي ملاصقةٌ لظهر أحد المحاريب التي بالتربة المذكُورة، إلى جانب القبر الذي عليه عمود كدان، يعرف بأبي الربيع الزبدي».

وأخذ ذو النون على شقران، وتأدّب بأدبه، وتوفي وهو في صحبته.

قال ذو النون: «سمعت شقران يقول: إنّ لله عبادًا خرجوا إليه بإخلاصهم، وشمّروا إليه بطيب أسرارهم، فأقاموا على صفاء المعاملة في محاريب الكدّ، فساروا في ميادين أنوار ملكوته، وبادروا لاستماع كلامه بحضور أفهامهم، فعند ذلك نظر إليهم بعين الملاحظة، وشاهد منهم نهدات الأسف، وفي ضمائرهم حرارات الشّغف، فعندها أسرج لهم نجائبَ المواهب، وحفّت بهم منه العطايا والتّأييد، وأذاقهم كأسَ الوِداد، فطلعت في قلوبهم كواكب مراكب القلق، وجرت بهم في بحار الاشتياق، فوصلت إلى روح نسيم التّلاق، فكيف إذا رأيت ثريّا الإيمان قد علقت في قلوبهم، وهلال التوحيد قد لاح بين أعينهم، وبحار الوفاء قد تدفّقت في قلوبهم، وأنهار ماء الحياة قد تصادمت إلى جوارحهم، فتنسّموا روائح الدّنوّ من قربه، وهبّت رياح اللقاء من تحت عرشه، فوفدت هواتف الملكوت بألسنة القدرة إلى أسماعهم وأفهامهم، وشيّعها رُوح نسيم المصافاة إلى أذهانهم، وأوقدت في أسرارهم مصابيح الأفكار، واشتعلت ضمائرهم، وزّفت إلى قلوبهم أزواج القلق، وزجّ بها

الشوق في مفاصلهم، فتطايرت أرواحهم إلى روح عظيم الذخائر، ثم نادت: لا براح وذلك أنها لمَّا وصلت إلى الحجاب الأعظم المعظم أقسمت ألّا تبرح ولا تزول حتى تنعم. فكشف لها الحجاب، وناداها: أنا الرّبّ الأعظم المعظم، أنا علّام الغيوب، أنا المطّلع على الضمائر، أنا مراقبُ الحركات، أنا راصدُ اللّحظات، أنا العالم بمجاري الفكر وما أصغت إليه الأسماع.

ثم قال لأرواحهم: أنا طالعتك ورفعتك إلى قربي، وقرنت ذكري مع ذكرك ائتلافًا، وعرّفتك نفسي وصافيتك إعطافًا، وجلّلتك ستري إلحاقًا، فاشكري لي أزدك أضعافًا .

ثم قال: يا قلوب صفوتي التنمي، ويا أهل محبّتي حافظوا على لزوم مودّتي.

فلما وعت القلوبُ كلامَ المحبوب وردت على بحر الفهم، فاغترفت منه ريَّ الشراب، فهلَّ عليها عارض صدر إليها من محبوبها، فسجدت له تعظيمًا، وأذن لها فكلّمته تكليمًا، وأفرغ عليها من نوره فزادها تهييمًا، فرجعت إلى الأبدان بطرائف الفوائد، فظمئت وعطشت.. فهل تدري ما أعطشها؟ كشف لها عن غيوبه فطاشت، وشاهدت قربه فعاشت، في كل يوم تطالع علمًا جديدًا، فهو لها يزيد، وكيف لا يكون هذا العبد كذلك وأنوار الصدق عليه متراكمة، ومراتب الحقائق فيه منتصبة، وروحه قد سارت في مواكب التوفيق؟ فلو شاهدت سرائرهم وقد وصلت إليه فروّاها من نسيم قربه، وزوّدها من طرائف علمه المكنون، «وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ».

ثم بكى طويلًا وقال: يا ذا النون، أين مَن أسرجت بواطنه بحبّ الله؟ أين مَن ظهر على جوارحه نور خدمة الله فشهد شواهد الهيبة عطاياه فحمد الله؟ أين مَن شهد القرب فلم يتحرك؟ أين مَن راقب الرّبّ في سرائره؟ أين مَن دامت بمعاملته ظواهره؟ أين مَن نطق بعلم القرب منه؟ أين مَن شرب بكأس المحبة؟ أين مَن عرف الطريق؟ أين مَن نطق بالتحقيق؟ أين مَن أدني فلم يبرح؟ أين مَن شوّق فلم يفرح؟ أين مَن سقى فباح؟ أين مَن بكى فناح؟ أين مَن ألف فشغل؟ أين مَن وصل فغنم؟ أين مَن لزم فأخبر؟ أين مَن صلح فأحضر؟ أين مَن رضي فقنع؟ أين مَن صبر فاقتنع؟ أين مَن بكى بعويل؟ أين مَن صرخ بغليل؟

أين مَن رضي فطاب؟ أين مَن شوّق فذاب؟ أين مَن شفّه الوداد؟ أين مَن جدّ باجتهاد؟ أين مَن همّه الحبيب؟

أين مَن دهره غريب؟ أين مَن طالع المكشوف؟ أين مَن أمر بالمعروف؟ أين مَن تألّف الهموم؟ أين خدّامه الصّيام؟ أين عمّاله القيام؟ أين مَن ذاق ما أصف؟ أين مَن جدّ ملتهف، أين مَن كان ذكره غذاه، أين مَن قلبه مرآه؟ أين مَن بان واستبان؟

يا ذا النّون، فلو رأيتهم وقد أخرجهم بعد ما أحسن تقويمهم، وأجلسهم على كراسي الأطبّاء وأهل المعرفة، وجعل تلامذتهم أهل الورع والتّقى، وضمن لهم الإجابة عند النداء، ثم قال لهم: يا أوليائي وأهل صفوتي، إن أتاكم عليلٌ فداووه، أو فارٌّ منّي فردُّوه، أو آيس من رحمتي وفضلي فعدوه، أو مبارز لي بالمعاصي فنادوه، أو مستوصف نحوي فدلّوه، أو خائف منّي فأمّنوه، أو مسيء بعد إحسان فرغّبوه، أو من جنا جناية وحزن فسرّوه، وإن وهبت لكم هبة فشاطروه.. ويا أهل صفوتي من خلقي لا يفزعنّكم صوت جبّار دوني، ولا مخلوق من خلقي.

إنه مَن أراد بكم سوءًا قصمته، ومَن آذاكم أهلكته، ومَن عاداكم عاديته، ومَن أحبّكم أحببته.

فلما نظر القوم إلى حسن لطفه بهم اجتهدوا غاية الاجتهاد، وألفت الجوارح منهم المسارعة إلى مرضاته، والمبادرة إلى خدمته، وأسقطت الرّاحات، وأزالت الآلات، فورّثهم إخلاصهم الزّفرات، ثم تضاعفت لهم التّحف، فإذا جاء أحدهم النّهار بكى عليه الدُّجى، ويستشرف به الفجر، وتودّعه الكواكب، ويصافحه النّهار، وتساعده الأفلاك.

ثمّ يصل فكره إلى العرش، ثم تصل أنفاسه إلى الكرسي، فعند ذلك يا أخي ترحّب به السّموات، وتسلّم عليه الجبال، وتأنس به الوحوش، وتفرح به المواطن، وتخضع له الملوك، وتلوذ به المواشي، وتتبرّك به الأشجار، وتحنّ إليه البهائم، ويأتي من أجله القطر، ويتضاعف ببركته النبات، وتهابه الفجّار، وترهبه الشياطين، وتحفّه الملائكة في اللّيل والنهار بأجنحتها، وتسلم عليه الحيتان في البحار إذا مرّ بها، وإذا نظر إلى الأرض تقلبت عن أنوار الزهر، إذا مرّ بيده على العليل أبرأه، وإذا وعظ سقيم الذّنوب أشفاه، وإذا نظرت إليه شهد له قلبك بالصّدق. أنس بالوحدة بعد الاجتماع، وخالط الجوع بعد الطعام، وسارع إلى الظمإ بعد الشراب، ولبس الخرق بعد الخزّ، وركن إلى الخراب بعد القصور.

قال خادم شقران: دعاني شقران ليلة فقال: أريد أن أغتسل. فلم أجد ماء، فلحظ السماء بطرفه وقال: اللهم إني قد عجزتُ عن الماء، وانقطع رجائي من غيرك، فاعطف على قلّة حيلتي. فقمت فسمعت وقع الماء في الإناء، فمسّ الشيخ الماء بيده فوجده باردًا، فحرّك شفتيه فسخن الماء، ثم جاء إلى المغتسل، وكانت ليلة باردة مظلمة، فقال: لو كان معنا مصباح كان أمكن في طهري. فرأيت مصباحًا قد أنفذ له فاغتسل.

وبلغ ذا النّون خبر شقران بالمغرب، فأتاه من مصر، فسأل عنه، فقيل له: السّاعة قد دخل الخلوة، وهو لا يخرج من بيته إلّا من الجمعة إلى الجمعة، ولا يكلم أحدًا إلّا بعد أربعين يومًا .

قال ذو النون: فأقمت أربعين يومًا على بابه، فلما خرج قال: ما الذي أقدمك على بلادنا؟ قلت: طلبك، فوضع في يدي رقعة قدر الدّينار، مكتوبًا فيها: «يا دائم الثّبات، يا مخرج النّبات، يا سامع الأصوات، يا مجيب الدّعوات». فما سألت الله بها حاجة إلّا قضاها لي. وكانت هذه الرحلة مغبوطة بهذه الدعوات.

وأتى شقران بصغيرٍ أعمى فدعا له، فأبصر.

وجاء له الناس مرة يسألونه أن يستسقي لهم، وخرج من بيته والسماء صاحية، ووقف بينهم والسماء صاحية، وجعل يقول: اسقني اسقني، السّاعة السّاعة، فأرعدت السماء وأبرقت، وجاء مطر عظيم كأفواه القرب.

وكان شقران من أجمل الناس، فنظرت إليه امرأة فشغفت به، فذكرت شأنها لعجوز، فقالت العجوز: أنا أجمع بينكما. فمرّ شقران يومًا، فقالت له العجوز: لي ولد غائب، وقد جاءني كتابه، وله أختٌ تحبُّ أن تسمع كتابه، فلو جئت وقرأته على الباب لشفيت الغليل، وأطفأت النّار . فقال: نعم. ودنا من الباب، فقالت: ادخل يسيرًا، فدخل، فقالت: يا سيدي، أخته تخشى أن يدخل أحدٌ، فهل لك أن تغلق الباب؟ فقال: نعم. فلما أغلق الباب برزت إليه امرأةٌ جميلةٌ قد تعطَّرت، فولّى بوجهه عنها، فقالت: كنتُ مشتاقةً إليك. فقال لها: أين الماءُ حتى أتوضّأ؟

فأتته بالماء، فقال: اللهم إنّك خلقتني لما شئت، وقد خشيت الفتنة، وأنا أسألك أن تصرف شرّها عني وتغيّر خلقتي. فخرجت إليه، فوجدت خلقته اليوسفيّة أيّوبيّة، فدفعته في صدره وقالت: اخرج. فخرج وهو يقول:

الحمد لله رب العالمين. ثم عاد إليه حسنه.

وجاءه رجل ومعه صغيرة قد لحقها الجنون، فقرأ عليها شقران، ثم أخذها أبوها ومضى بها إلى البيت، فصرعت، وتكلّم الجنّيُّ على رأسها وقال: أمّا أنا، فو الله لا سكنت هذه البلدة ولا عدت إليها خوفا من شقران أن يحرقني، فإن مسّها غيري فلا حرج عليَّ، وعرّفوا شقران بذلك.

قبر صاحب الدّرّابة:

وتخرج من التربة وتأتي إلى الجهة البحرية تجد على يمينك قبر صاحب «الدّرّابة» رحمه الله تعالى، قيل: إنّ ذا النّون المصريّ، رضي الله عنه، رأى في المنام كأنّ قائلًا يقول له: يا ذا النّون، إذا كان غدًا، اجلس على شفير الخندق يجيء إليك ولي من أولياء الله تعالى، ميت محمول على

درّابة، فجهّزه وصلِّ عليه. قال: فلما أصبحت جئت وجلست على الموضع الذي وصف لى، وإذا برجلين، يحملان رجلًا ميّتًا على درّابة، فقلت لهما حطّاه واذهبا .

قال ذو النون: فغسّلته، وكفّنته، وصلّيت عليه، ودفنته. وأوصى ذو النون إذا مات أن يدفن تحت رجليه . ففعل ذلك به . قال ذو النون: فرأيت تلك الليلة في منامي ذلك الرّجل الذي دفنته وعليه حلّة من السّندس، فقال: يا ذا النون، جزاك الله عني خيرًا.

ومن تلاميذه يوسف بن الحسين الرازي أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، وقد وصفه الذهبي بـ«الإمام العارف شيخ الصوفية»، وقال عنه أبو عبد الرحمن السلمي بأنه «شيخُ الرّي والجبال في وقته، كان أَوْحدَ في طريقته في إسقاط الجاه وتَرْك التصنُّع واستعمال الإخلاص»، أكثر الترحال، وأخذ عن ذي النون المصري، وقاسم الجوعي، وأحمد بن حنبل، وأحمد بن أبي الحواري، ودحيم، وأبي تراب عسكر النخشبي، ورافق أبا سعيدٍ الخرَّازَ – وهو أحد تلاميذ ذي النون المصري أيضًا - في بعض أسفاره.

يُقَال: كَتَبَ إِلَى الجُنَيْد: لا أَذَاقَكَ اللهُ طعم نَفْسك، فَإِنْ ذُقْتَهَا لا تُفْلِح.

وَقَالَ: إِذَا رَأَيْتَ المُرِيدَ يشتغلُ بِالرُّخَص فَاعلمْ أَنَّهُ لا يَجِيْء مِنْهُ شَيْء.. وَقِيْلَ: كَانَ يَسْمَعُ الأَبيَاتَ وَيَبْكِي. مَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلاثِ مئَةٍ من الهجرة.

وَقَدْ سَمِعَ قَوَّالًا يُنشد:

رَأَيْتُكَ تَبْنِي دَائِمًا فِي قَطِيْعَتِي

وَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ لَهَدَّمْتَ مَا تَبْنِي

كَأَنِّيْ بِكُمْ وَاللَّيْتُ أَفْضَلُ قَوْلِكُم

أَلا لَيْتَنَا كُنَّا إِذَا اللَّيْتُ لا تُغْنِي

فَبَكَى كَثِيْرًا وَقَالَ لِلْمنشد: يَا أَخِي، لا تَلُم أَهْلَ الرَّيِّ أَنْ يُسَمُّونِي زِنْدِيْقًا، أَنَا مِنْ بكرَةٍ أَقرأُ فِي المُصْحَفِ، مَا خَرَجَتْ مِنْ عَيْنِي دَمْعَة، وَوقَعَ مِنِّي إِذْ غَنَّيْتَ مَا رَأَيْتَ.

قَالَ السُّلَمِيُّ: كَانَ - مَعَ عِلْمه وَتَمَامِ حَاله - هَجَرَهُ أَهْلُ الرَّيّ، وَتكلَّمُوا فِيْهِ بِالقَبَائِح، خُصُوْصا الزُّهَّاد، وَأَفْشَوْا أُمُورا، حَتَّى بَلَغَنِي أَنَّ شَيْخا رَأَى فِي النَّوْمِ كَأَنَّ براءةً نزلتْ مِنَ السَّمَاء، فِيْهَا مَكْتُوْب: هَذِهِ برَاءةٌ لِيُوْسُفَ بنِ الحُسَيْنِ مِمَّا قِيْلَ فِيْهِ.فَسَكَتُوا.

وهُوَ صَاحِبُ حِكَايَة الفَأْرَة مَعَ ذِي النُّوْنِ لَمَّا سأَله الاسْم الأَعْظَم. وَعَنْهُ، قَالَ: بِالأَدب تَتَفَهَّم العِلْم،

وَبَالعِلْمِ يصحُّ لَكَ العَمَل، وَبَالعَمَلِ تنَالُ الحِكْمَة، وَبَالحِكْمَة تفهَمُ الزُّهْد، وَبَالزُّهْدِ تتركُ الدُّنْيَا، وَترغبُ فِي الآخِرَةِ، وَبِذَلِكَ تنَالُ رِضَى الله تَعَالَى.

قَالَ الخُلْدِيّ: كتبَ الجُنَيْد إِلَى يُوْسُفَ بن الحُسَيْنِ: أُوْصِيْكَ بِتَرْكِ الاَلتفَاتِ إِلَى كُلِّ حَالٍ مَضَتْ، فَإِنَّ الاَلتفَاتَ إِلَى مَا مَضَى شغلٌ عَنِ الأولَى، وَأُوصِيْكَ بِتَرْكِ ملاَحظَةِ الحَالِ الكَائِنَة، اعملْ عَلَى تخليصِ هَمِّكَ مِنْ هَمِّكَ لِهَمِّكَ، وَاعملْ عَلَى محقِ شَاهِدِكَ مِنْ شَاهدك حَتَّى يَكُوْنَ الشَّاهدُ عَلَيْكَ شَاهدًا لَكَ وَبِكَ وَمنكَ... وليوسف رسالة إلى الجُنيد منها:

كَيْفَ السَّبِيْلُ إِلَى مَرْضَاةِ مَنْ غَضِبَا

مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَلَمْ أَعْرِفْ لَهُ سَبَبَا

قَالَ وَالد تمَام: سَمِعْتُ يُوْسُفَ بنَ الحُسَيْنِ يَقُوْلُ: قيلَ لِي: ذُو النُّوْنِ يَعْرِفُ الاسْمَ الأَعْظَم. فَسِرْتُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِي وَأَنَا طَوِيْلُ اللِّحْيَة، وَمعِي ركوَة طَوِيْلَة، فَاسْتَشْنَعَ مَنْظرِي. قَالَ وَالد تمَام: يُقَال: كَانَ يُوْسُفُ أَعْلَمَ أَهْلِ زَمَانِهِ بِالكَلاَم وَبعلم الصُّوْفِيَّة.

قَالَ: فَجَاءَ مَتَكَلِّمٌ، فَنَاظَر ذَا النُّوْنِ، فَلَمْ يَقم لَهُ بِحجَّة.

قَالَ: فَاجْتَذَبْتُهُ إِلَيَّ، وَنَاظرْتُه، فَقَطَعْتُهُ، فَعَرَف ذُو النُّوْنِ مَكَانِي، وَعَانَقَنِي، وَجَلَسَ بَيْنَ يَديَّ، وَقَالَ: اعذُرْنِي. قَالَ: فَخَدَمْتُهُ سنَة .

ومن تلاميذ ذي النون المصري ابْنُ الجَلَّاءِ أَبُو عَبْد اللهِ أَحْمَدُ بنُ يَحْيَى، وقد جاء في كتاب «سير أعلام النبلاء» لشمس الدين الذهبي (المتوفَّى سنة 748 هجرية) أنه: القُدْوَةُ، العَارِفُ، شَيْخُ الشَّام، أَبُو عَبْدِ اللهِ ابْنُ الجلَّاء، أَحْمَدُ ابنُ يَحْيَى، وَقِيْلَ: مُحَمَّد بن يَحْيَى. يُقَالُ: أَصلُه بَغْدَادِيّ، صحبَ وَالدَه، وَأَبَا تُرَابٍ النَّخْشَبِيّ، وَذَا النُّوْنِ المِصْرِيَّ وَحَكَى عَنْهُ.

وَكَانَ يُقَالُ: الجُنَيْدُ بِبَغْدَادَ، وَابْنُ الجلَّاء بِالشَّامِ، وَأَبُو عُثْمَانَ الحِيْرِيُّ بِنَيْسَابُوْرَ – يَعْنِي: لا نَظِيْرَ لَهُم.

قَالَ الدُّقِّي: مَا رَأَيْتُ شَيْخًا أَهيَبَ مِنِ ابْنِ الجلَّاء مَعَ أَنِّي لقيتُ ثَلاثَ مئَةِ شَيْخ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَا جلا أَبِي شَيْئًا قَطُّ، وَلكِنَّهُ كَانَ يَعِظُ، فيقعُ كَلامُه فِي القُلُوبِ، فسُمِّيَ جَلَّاءَ القُلُوب.

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ الجُلندى: سُئِلَ ابْنُ الجلَّاء عَنِ المحبَّة، فَسَمعْتُهُ يَقُولُ: مَا لِي وَلِلْمحبَّة؟ أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَتعلَّم التَّوبَة.

قَالَ أَبُو عُمَرَ الدِّمَشْقِيّ: سَمِعْتُ ابْنَ الجلَّاء يَقُولُ: قُلْتُ لأَبويَّ: أُحِبُّ أَنْ تَهَبَانِي للهِ. قَالا: قَدْ فَعَلْنَا.

فَغِبْتُ عَنْهُم مُدَّة، ثُمَّ جِئْتُ فدققتُ البَاب، فَقَالَ أَبِي: مَنْ ذَا؟

قُلْتُ: وَلدُك. قَالَ: قَدْ كَانَ لِي وَلدٌ وَهبنَاهُ للهِ.

وَمَا فتحَ لِي.

وَعَنِ ابْنِ الجلَّاء، قَالَ: آلَةُ الْفَقِير صِيَانَةُ فَقْره، وَحِفْظُ سِرّه، وَأَدَاءُ فَرْضِه. تُوُفِّيَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَثَلاَثِ مئَةٍ من الهجرة.

وعَنْ أَيُّوْبَ مُؤَدِّبِ ذِي النُّونِ، قَالَ: جَاءَ أَصْحَابُ المَطَالِبِ ذَا النُّوْنِ، فَخَرَجَ مَعَهُم إِلَى قِفْطَ، وَهُوَ شَابٌّ، فَحَفَرُوا قَبرًا، فَوَجَدُوا لَوْحًا فِيْهِ: اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ، فَأَخَذَهُ ذُو النُّونِ، وَسَلَّمَ إِلَيْهِم مَا وَجَدُوا .

قَالَ يُوسُفُ بنُ الحُسَيْنِ الرَّازِيُّ – وهو أحد أبرز وأخلص تلاميذه الذين نقلوا عنه الكثير وكان ملازمًا له في مصر: حَضَرْتُ ذَا النُّوْنِ، فَقِيْلَ لَهُ: يَا أَبَا الفَيْضِ، مَا كَانَ سَبَبُ تَوْبَتِكَ؟

قَالَ: عجب لا تطيقه، قال: بمعبودك إلا أخبرتني، فقال ذو النون: أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى؛ فنِمْتُ فِي الطريق في بعض الصَّحَارى، فَفَتَحْتُ عَيْنِي، فَإِذَا أنا بقُنْبَرَةٍ عَمْيَاءَ سَقَطَتْ مِنْ وَكْرِها، فَانْشَقَّتِ الأَرْضُ، فَخَرَجَ مِنْهَا سُكُرُّجَتَانِ إحداهما ذَهَبٌ وَالأخرى فِضَّةٌ، فِي إِحْدَيهمَا سِمْسِمٌ، وَفِي الأُخْرَى مَاءٌ، فَجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا، فَقُلْتُ: حَسْبِي. قد تُبْتُ، وَلَزِمْتُ البَابَ، إِلَى أَنْ قَبِلَنِي الله.

ذو النون المصري
الذي زَهَتْ به مصر

ذو النون المصري الزاهد الناسك الورِع المتقشِّف البسيط - الذي يمكن معرفة الكثير عن رُوحه عبر قراءة ما ترك من أقوالٍ ومواقفَ وقصصٍ وصلت إلينا - هو لسان أهل الباطن، أي ينطق بلسان الحقيقة، يطابق كلامه حاله، أي أنَّ كلامه عين حاله.

وكان ذو النون – الذي له لسانٌ في المعرفة والمحبَّة، ومُولعٌ في طلب العلم - يجد الأنس في خلوته.

وهو أوَّل من وضع تعريفاتٍ للوجْد والسَّماع، وكان أول مَن تكلم في مصر في الأحوال ومقامات أهل الولاية، وهو أول مَن فسَّر إشارات الصوفية وتكلَّم في هذا الطريق، ويُعتبر بحق واضع أسُس التصوُّف، فعنه أخذ الكثيرون، ويكفي أنَّ ابن العربي قد خصَّص له رسالةً وحده، كما خصَّص له جلال الدين الرومي نصوصًا شعريةً في كتابه الأشهر «المثنوي» – الجزء الثاني - وسأورد هذه النصوص في مكانها حين الحديث عن محنة ذي النون واتهامه بالكُفر والزندقة. وقد أثَّر في متصوفة المشرق والمغرب حتى أنَّ تأثيره وصل إلى بلاد الأندلس.

ولم يكن لابن العربي أن يخصِّصَ له كتابًا، لو لم يكن يعرف مكانه ومكانته عندما كان في إشبيلية، قبل أن ينتقل إلى المشرق، جائلًا متنقِّلًا بين مكة وحلب وقونية، ثم دمشق التي ختم فيها حياته ودُفِنَ فيها.

وأكثر مَن تأثَّروا تأثرًا عميقًا – في الأندلس – بذي النون المصري، هو ابن مسرَّة (المُتوفَّى سنة 319 ميلادية)، الذي اتهم بالزندقة، وأحرقت كتبه. والذي اعتبره ابن العربي رجلًا «من أخير أهل الطريقة» في العلم والحال والكشف.

وكان ذو النون المصري حادًّا وحارًّا وحميمًا وغيورًا على بلده ودينه، لم يعرف المُهادنة ولا المُواربة، وكان بابه دائمًا مفتوحًا، لم يغلقه في وجه مُقيمٍ أو عابرٍ غريبٍ، أو حائرٍ يبحث في مسألةٍ تؤرِّقه، ويريد لها جوابًا كافيًا شافيًا مريحًا للنفس والروح، على الرغم ممَّا واجهه من صعاب ومشكلات خصوصًا من فقهاء عصره في مصر الذين أوغرُوا صدر السلطة الحاكمة ضده، ولم يتركوه حتى سيق إلى الخليفة في بغداد مقيَّدًا في الأغلال، وتلك قصة سنأتي على الحديث فيها بتفصيلٍ، وذكر المرويات التي صاحبت محنة أحد أبرز روَّاد الطريق الصوفي، الذي ظلم حيًّا وميتًا، إذ حتى اللحظة لم نجد له كتابًا مطبوعًا محقَّقًا، ولم نجد له جمعًا لما ترك من نثرٍ وشعرٍ

وإشاراتٍ وتلويحاتٍ ومواقف ومخاطبات وفتوحات، وما هو متاحٌ أمامنا إلا محاولات خجلى لا تُشبع، وكان عليَّ أن أذهب إلى المصادر القديمة من كتب الطبقات والأولياء، والتي يوجد فيها كغيره، لأجمع ما تناثر، ويوافق ذوقي، ويتواءم أيضًا مع ذائقة محبِّي التصوف، وأختار من بين ما ترك ما هو ذهب لامع، وأحجار حرة كريمة، يمكن لها أن تبقى وتؤثِّر في نفوس متلقِّيها.

كان ذو النون أبيًّا شامخًا معتدًّا بنفسه لا يطأطئ الرأس لأميرٍ أو حاكمٍ أو حتى خليفة، متواضعًا في سلوكه وردوده، ومواقفه المتكرِّرة طوال حياته تثبت ذلك، يُكثِرُ من الدعاء لنفسه وللآخر، يوصي، ويلقي حكَمه، ويسدي النصيحة .

وكان «تصوف ذي النون... خطوة في سبيل تكوين فلسفة وحدة الوجود التي فصَّلها ابن العربي، والتي أشار إلى أنها تستمد من رأي لذي النون في العرش» كما يذكر الدكتور محمود علي مكّي في مجلة «دعوة الحق» المغربية عام 1962ميلادي، في عددين متتابعين تحت عنوان: «التصوف الأندلسي مبادئه وأصوله»، مضيفًا أنه «ظلت قداسة ذي النون المصري تأسر ألباب الأندلسيين بعد ذلك بمدة طويلة، ولعل ذلك يرجع إلى اعتدال ذي النون، وعدم تطرُّفه في تصوُّفه إذا قسناه بغيره من متصوفة العراق، أو إيران مثل أبي يزيد البسطامي، أو الحلاج، وقد ألَّف ابن شعبان المعروف بابن القرطي (270 - 355 هجرية / 883 - 966 ميلادية) كتابًا أسماه «مواعظ ذي النون الأخميمي» متناقلًا في الأندلس، وابن شعبان فقيه أندلسي استقر بمصر وأصبح رئيسًا للمذهب المالكي بها خلال القرن الرابع الهجري، كما عرفت بالأندلس خلال هذا العصر مؤلفات منسوبة إلى ذي النون نذكر منها رسالة «سؤال ذي النون المصري بعض الزهاد عن صفة المؤمن»، وهي رسالة أذاعها في الأندلس مسلمة بن القاسم القرطبي (المتوفَّى سنة 353 هجرية)، و«ظل التصوف الأندلسي حتى انتهاء القرن الرابع الهجري أقرب إلى البساطة وأشبه بالتصوف المصري البعيد عن التطرُّف».

وأقام سهل التستري (200 - 283 هجرية، 815 - 896 ميلادية) سنين لا يسندُ ظهره إلى المحراب ولا يتكلَّم، فلما كان ذات يومٍ بكى، واستند وتكلَّم، وبالغ في إبراز المعاني العجيبة والإشارات الغريبة، فقيل له ماذا فيه، فقال: كان ذو النون بمصر حيًّا فما تكلمت ولا استندتُ إجلالًا له، والآن قد مات، فقيل لي: تكلم فقد أذنت.

كان ذو النون المصري - الذي زَهَتْ به مصر وديارها - يستعمل البخُور، وقد زاره رجل يومًا فرأى بين يديه طستًا من ذهبٍ وحوله الند والعنبر يُسْجَر، فصاح به ذو النون قائلًا: «هل أنت ممَّن يدخلُ على الملوك في حال بسطهم»؟

يذكر القشيري في رسالته أنَّ ذا النون المصري هو أول مَن عرَّف التوحيد بالمعنى الصوفي، وأنه أول مَن وضع تعريفات للوجد والسماع والمقامات والأحوال.

ويقول عنه «صاحب الكواكب الدرية» إنه: «العارف الناطق بالحقائق، الفاتق للطرائق، ذو العبارات الوثيقة، والإشارات الدقيقة، والصفات الكاملة، والنفس العالمة العاملة، والهمم الجلية، والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة المتبعة، والأفعال والأقوال التي لا تخشى منها تبعة، زهت به مصر وديارها، وأشرق بنوره ليلها ونهارها».

وذو النون – الذي رآه أبو طالب المكِّي (المتوفَّى 998 ميلادية) من أهل الصحو لا الشَّطح - صاحبُ قدمٍ أولى في ازدهار الصُّوفية، وله أثرٌ لا يُنسى في الصَّنعة، وكان صاحبَ حكمةٍ وفلسفةٍ مشتغلًا بالكيمياء، وهو من طبقة جابر بن حيان (101هجرية / 721ميلادية -197هجرية / 815 ميلادية) وهو أوَّل مَن استخدم الكيمياء عمليًّا في التاريخ ولذي النون قدمٌ أخرى في صناعة الكيمياء، له كتبٌ لكن أغلبها صار منسيًّا أو مجهُولًا أو تلف وضاع.

«ويعد ذو النون رأس الصوفية، وهم يضافون إليه ويُنسبون، وأول مَن فسَّر الإشارات الصوفية، وعبَّر عنها، ونطق عن هذا الطريق، ولم يكن الشيوخ من قبله يفعلون ذلك، وعنه أخذ مَن أتى بعده، وتكلم عن المعرفة بقوله: إنها على ضروبٍ ثلاثة هي: معرفة العامة، ومعرفة المتكلمين والحكماء، ومعرفة الخاصة من الأولياء والمقرَّبين الذين يعرفون الله بقلوبهم، وهي أسمى وأيقن؛ لأنها لا تحصل عن التعلُّم والكسب والاستدلال، ولكنها إلهام يفيضه الله على قلب عبده، وعنده أنَّ بين الرب والعبد حُبًّا متبادلًا، ومَن ذاق الحُب الإلهي عرف الذات الإلهية وتحقيق وحدانيتها وأصبح من العارفين المقربين». وقال عنه ابن عساكر (499- 571 هجرية): «كان رئيس القوم، المرجوع إليه والمقبول على جميع الألسنة، وأول مَن عبر عن علوم المنازلات، وله السياحة المشهورة والرياضات المذكورة».

ومن مؤلفاته كتاب «حل الرموز وبرء الأرقام في كشف أصول اللغات والأقلام»، وكتاب «الركن الكبير» أو«الركن الأكبر»، وكتاب «الثقة بالصنعة» وكتاب «المجربات» ويضم وصفات في الطب والكيمياء والسحر والطلاسم، وموجود في مكتبة باريس، ويتكون من إحدى وتسعين ورقة، وكتاب «القصيدة في الصنعة الكريمة»، ويوجد منه نسختان إحداهما في مكتبة باريس، والأخرى في مكتبة المتحف البريطاني، وهناك نسخة أخرى بعنوان «أرجوزة في علم الصنعة». وضع لهذه القصيدة أيدمر الجلدكي (توفي 743 هجرية/1342 ميلادية) شرحًا بعنوان: «الدر المكنون في شرح قصيدة ذي النون» كما شرحها آخرون. ولذي النون «رسالة في العناصر

الثلاثة»، و«رسالة في تدبير الحجر المكرم أو الكريم»، وكتاب «صفة المؤمن والمؤمنة»، ورسالة في ذكر مناقب الصالحين، وأشعار في حجر الحكماء، ويوجد في مكتبة باريس أيضًا، مناظرة بينه وبين تلميذه يعقوب، وموجودة في مكتبة برلين، والعجائب ويوجد في دار الكتب المصرية، وهناك مخطوط موجود في مكتبة جامعة لايبزج في ألمانيا تحت عنوان: «جزء فيه قصة العباس بن حمزة مع ذي النون المصري رحمة الله عليه». وكما يظهر من خلال العنوان، يرصد المخطوط زيارةَ أبي الفضل العباس بن حمزة بن أشوش النّيسابوري (توفي 288 هجرية /901 ميلادية) لذي النون المصريّ، وقد نُشرَ هذا المخطوط في كتابٍ سنة 2019 ميلادية بعنوان: «الحديث والتصوف»، دراسة وتحقيق بلال الأرفه لي وفرانشسكو كيابوتي..

وقد عدتُ إلى الرسالة القشيرية للقشيري الذي ابتدأ به رسالته فذكر أنه «أوحد وقته علمًا، وورعًا، وحالًا، وأدبًا. سعوا به إلى المتوكِّل، فاستحضره من مصر، فلمَّا دخل عليه وعظه فبكى المتوكِّل وردَّه إلى مصر مكرَّمًا، وكان المتوكل إذا ذُكر بين يديه أهل الورع يبكي. وكان رجلًا نحيفًا، تعلوهُ حُمرة، ليس بأبيض اللحية.

ويذكرأحد تلاميذ ذي النون وهو يوسف بن الحسين الرازي المتوفَّى سنة 301 هجرية - والذي اتصل به، واستمع إليه، وأخذ عنه - أنه خرج ذات يوم من لدن أستاذه فوجد فقهاء أخميم تعصَّبوا ونزلوا إلى زورقٍ ذاهبين إلى سُلطان مصر ليشهدوا بكُفره فانقلب الزورق والناس ينظرون.

وكان معاصروه من أصحاب المذهب المالكي، ومن المعتزلة وسواهما قد اتهموه بالزندقة، وقد حاربه – خصوصًا - عبد الله بن الحكم شيخ المالكية (772 ميلادية /156 هجرية - 26 من نوفمبر 829 ميلادية /21 من رمضان 214 هجرية) فقيه مالكي مصري. وصف بأنه «كان من ذوي الأموال والرِّباع، عظيم القدر، ويقال إنه دفع للإمام الشافعي عند قدومه إلى مصر ألف دينار»، وابن أبي الليث شيخ الحنفية (لمَّا استخلف الواثق ورد كتابه على محمد بن أبي الليث بامتحان الناس أجمع، فلم يبقَ أحدٌ من فقيهٍ ولا مُحدِّث ولا مؤذِّن ولا معلِّم حتى أُخذ بالمحنة «محنة خلْق القرآن»، فهرب كثيرٌ من الناس، وملئت السُّجون ممن أنكر المحنة، وأمر ابن أبي الليث بالاكتتاب على المساجد «لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق» فكتب بذلك على المساجد فُسطاط مصر، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المساجد، وأمرهم ألَّا يقربوه)، وحاولوا الإيقاع بينه وبين الخليفة المتوكل واصفينه بأنه أحدث علمًا لم تتكلم به الصحابة، فاستجلبه المتوكل إليه في بغداد سنة 829 ميلادية، ويقال إنه لمَّا دخل عليه وعظه فبكى، ووَلِعَ بِهِ، وَأَحَبَّهُ، وَكَانَ يَقُولُ: إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُوْنَ، فَحَيَّ هَلا بِذِي النُّوْنِ.

فردَّه إلى مصر مكرمًا، وكان ذا تأثير قوي على أهل مصر، إلى الحد الَّذي جعل حُسَّاده ينظرون إليه على أنَّه زنديق.

وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أن ذا النون المصري «كان مصري المولد والنشأة، والعناصر التي تتألف منها حياته وثقافته وولايته، والأحداث التي وقعت له، والأقوال التي أُثرت عنه، كل أولئك وغيره... سيظهر من غير شك أن الطابع الَّذي غلب عليه كان مصريًّا، وأنَّه قد استمد تلك العناصر من صميم الحياة المصرية، وأنه وإن كان واحدًا من أئمة صوفية المسلمين، الذين ظهروا في تاريخ التصوف الإسلامي، فإنه كان أولًا وقبل كل شيءٍ إمامًا لمن ظهر من الصوفية المسلمين في تاريخ التصوف المصري .

وكان المتوكل قد أمر بإشخاصه سنة خمس وأربعين ومائتين فوصل إلى سُر مَن رأى، فأنزله الخليفة في بعض الدور وأوصى به رجلًا يُعرف بزرافة، وقال: إذا أنا رجعت من ركوبي فأخرج إليَّ هذا الرجل، فقال له زرافة: إنَّ أمير المؤمنين قد أوصاني بك؛ فلمَّا رجع من الغد قال له: تستقبل أمير المؤمنين بالسلام، فلما أخرجه إليه قال: سُلِّم على أمير المؤمنين، فقال ذو النون ليس هكذا جاءنا الخبر، إنَّ الراكب يسلِّم على الرَّاجِل، قال: فتبسَّم الخليفة وبدأه بالسلام، ونزل إليه فقال له: أنت زاهد مصر، قال: كذا يقولون، ثم وعظه، وأكرمه الخليفة.

يقول صاحب «الكواكب الدرية» عنه: «ولما تكلم بعلوم لدنية لا علم لأهل مصر بها، وشوا به إلى خليفة بغداد، فحُمل إليه في جماعة، مغلُولًا مقيدًا، فقُدم للقتل، فكلم الخليفة، فأعجبه، فأطلقه ورفقته، وقال: إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلمٌ».

وقال: «هو رجل بريء ممَّا قيل عنه».

قَالَ السُّلَمِيُّ فِي كتابه «تاريخ الصوفية: وبذيله مِحَنِ الصُّوْفِيَّةِ»: ذُو النُّوْنِ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِبَلْدَتِهِ فِي تَرْتِيْبِ الأَحْوَالِ، وَمَقَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبْدِ الحَكَمِ، وَهَجَرَهُ عُلَمَاءُ مِصْرَ، وَشَاعَ أَنَّهُ أَحْدَثَ عِلْمًا لَممًا يَتَكَلَّمْ فِيْهِ السَّلَفُ وَهَجَرُوْهُ حَتَّى رَمَوْهُ بِالزَّنْدَقَةِ.

فَقَالَ أَخُوْهُ: إِنَّهُم يَقُوْلُوْنَ: إِنَّكَ زِنْدِيْقٌ، فَقَالَ:

وَمَا لِي سِوَى الإِطْرَاقِ وَالصَّمْتِ حِيْلَةٌ

وَوَضْعِيَ كَفِّي تَحْتَ خَدِّي وَتَذْكَارِي

قَالَ ذو النُّونِ وَهُوَ دَاخِلٌ إِلَى الْحَبْسِ: الْحَسَدُ دَاءٌ لا يَبْرَأُ وَحَسْبُ الْحَسُودِ مِنَ الشَّرِّ مَا يَلْقَى، وَدَخَلَ الْحَبْسَ .

يقول ذو النون المصري - الذي عاصر رابعة العدوية (100 هجرية / 717 ميلادية - 180 هجرية / 796 ميلادية): لما حُملتُ من مصر في الحديد إلى بغداد لقيتني امرأةٌ زمنَةٌ (مُسنَّة، دائمة المرض أو ضعيفة من الكِبَر)، فقالت: إذا دخلت على المتوكل فلا تهَبْهُ، ولا ترَ أنه فوقك، ولا تحتجَّ لنفسك مُحقًّا كنتَ أو متهمًا؛ لأنك إنْ هبته سلَّطه الله عليك، وإنْ حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالًا؛ لأنك باهَتَّ الله فيما يعلمه، وإن كنت بريئًا فادعُ الله تعالى أن ينتصر لك، ولا تنتصر لنفسك فَيكلَكَ إليها.

فقلتُ لها: سمعًا وطاعة.

فلما دخلتُ على المتوكل سلَّمتُ بالخلافة. فقال لي: ما تقولُ فيما قيل فيك من الكُفر والزندقة؟

فسكتُّ.

فقال وزيره: هو حقيقٌ عندي بما قيل فيه.

ثم قال لي: لِمَ لا تتكلم؟

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنْ قلتُ لا كذَّبتُ المسلمين، وإن قلتُ نعم كذبتُ على نفسي بشيءٍ لا يعلمه الله تعالى مني؛ فافعل أنتَ ما ترى فإنِّي غير منتصرٍ لنفسي.

فقال المتوكل: هو رجل بريء ممَّا قيل فيه.

فخرجتُ إلى العجُوز، فقلتُ لها: جزاكِ الله عني خيرًا، فعلتُ ما أمرتني به، فمن أين لك هذا؟

فقالت: من حيث خاطب به الهُدهد سليمان عليه السلام.

حدَّث أبي عن زرافة صاحب المتوكل قال: لما انصرف ذو النون من عند أمير المؤمنين، دخل عليَّ ليودِّعَني فقلتُ له: اكتب لي دعوة ففعل، فقربت إليه جام لوزينج (شِبه القطائف يُؤْدَم بدُهن اللَّوز، وهي حلوى معجونة بالفستق واللوز) فقلتُ له: كُلْ من هذا فإنه يرّزّن (ينفع) الدماغ، وينفع العقل، فقال: العقل ينفعه غير هذا، قلتُ: وما ينفعه؟ قال: اتباع أمر الله والانتهاء عن نهيه، أما علمتَ أنَّ النبي ﷺ قال: إنما العاقل مَن عقل عن الله أمره ونهيه، فقلتُ له: أكرمني بأكله، فقال: أريد ألذ من هذا، فقلتُ له: وأي شيءٍ ألذ من هذا؟ فقال: هذا لمَن لا يعرف الحلواء ولا يعرف أكله، وإن أهلَ معرفة الله يتخذون خلاف هذا اللوزينج، قلتُ: لا أظن أحدًا في الدنيا يحسن أن يتخذ أجود من هذا، وإن هذا من مطبخ أمير المؤمنين المتوكل على الله، فقال: أنا أصف لك لوزينج المتوكل على الله، فقلتُ: هات لله أبوك، فقال: خُذ لباب مكنون محض طعام المعرفة، واعجنه بماء

الاجتهاد، وانصب أثفيّه الانكماد، وطابق صفو الوداد، ثم اخبز خُبز لوزينج العُبّاد، بحر نيران نفَس الزُّهَّاد، وأوقده بحطب الأسى حتى ترمي نيران وقودها بشرر الضنا، ثم احش ذلك بقند الرضى، ولوز الشجا مرضوضان بمهراس الوفا، مطيبان بطيبة رقة عشق الهوى، ثم اطوه طي الأكياس للأيام بالعزا، وقطِّعه بسكاكين السَّهر جوف الدُّجى، ورفض لذيد الكرى، ونضّده على جامات القلق والشهق، وانثر عليه سكرًا يعمل من زفرات الحرق، ثم كل بأنامل التفويض، في ولائم المناجاة، بوجدان خواطر القلوب، فعند ذلك تفريج كرب القلوب، ومحل سرور محب الملك المحبوب.

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ السَّرَخْسِيُّ، بِمَكَّةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ يَقُولُ وَفِي يَدِهِ الْغُلُّ وَفِي رِجْلَيْهِ الْقَيْدُ، وَهُوَ يُسَاقُ إِلَى الْمُطْبَقِ وَالنَّاسُ يَبْكُونَ حَوْلَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذَا مِنْ مَوَاهِبِ اللَّهِ تَعَالَى، هَذَا مِنْ عَطَايَاهُ، وَكُلُّ فِعَالِهِ عَذْبٌ حَسَنٌ طَيِّبٌ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصُونُ

كُلَّ يَوْمٍ عَلَيَّ فِيكَ يَهُونُ

لَكَ عَزْمٌ بِأَنْ أَكُونَ قَتِيلًا فِيكَ

فَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لا يَكُونُ

وَعَنْ عَمْرِو بنِ السَّرْحِ، قُلْتُ لِذِي النُّونِ: كَيْفَ خَلصتَ مِنَ المُتَوَكِّلِ، وَقَدْ أَمَرَ بِقَتْلِكَ؟

قَالَ: لَمَّا أَوْصَلَنِي الغُلامُ، قُلْتُ فِي نَفْسِي: يَا مَنْ لَيْسَ فِي البِحَارِ قَطَرَاتٌ، وَلا فِي دَيْلَجِ الرِّيَاحِ ديْلَجَاتٌ، وَلا فِي الأَرْض خَبِيئَاتٌ، وَلا فِي القُلُوْبِ خَطَرَاتٌ، إِلَّا وَهِيَ عَلَيْكَ دَلِيلَاتٌ، وَلَكَ شَاهِدَاتٌ، وَبِرُبُوبِيَّتِكَ مُعتَرِفَاتٌ، وَفِي قُدرَتِكَ مُتَحَيِّرَاتٌ، فَبِالقُدْرَةِ الَّتِي تُجِيْرُ بِهَا مَنْ فِي الأَرَضِيْنَ وَالسَّمَاوَاتِ إِلاَّ صَلَّيْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، وَأَخَذتَ قَلْبَه عَنِّي.

فَقَامَ المُتَوَكِّلُ يَخْطُو حَتَّى اعْتَنَقَنِي، ثُمَّ قَالَ: أَتْعَبْنَاكَ يَا أَبَا الفَيْضِ.

ويروي فريد الدين العطار النيسابوري (618 - 540 هجرية) في كتابه «تذكرة الأولياء»، كيف استدعى «المتوكل» في عام 244 هجرية ذا النون: «روي أنه لما ترقَّى أمره وعظم شأنه، وحسده بعض الناس، وسعوا به إلى المتوكل، فاستحضره المتوكل إلى بغداد، فلما وصل إلى باب الخليفة، قال: تعلمت الإسلام في الطريق من عجوز، والفتوة من سقَّاء. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لما رأيت حشمة الخليفة، وكثرة الحجاب والغلمان على باب الخليفة كدتُ أتغير، قالت عجوز: انظروا إلى هذا الشخص، فإنه يذهب إلى الحبس، والحال أنه والذي أمر بحبسه عبدان ومملوكان لسيدٍ

واحد - جلَّ جلاله، وعزَّ شأنه - فإن لم يؤلمه الله لا يقدر أحد على أن يؤلمه. وأيضًا استقبلني سقَّاء، وناولني شربة ماء، وأنا أشرت إلى صاحب لي بإعطاء شيء، فلم يقبل السقَّاء، وقال: هو أسير محبوس مقيد، وليس من الفتوة أخذ شيء منه. ثم برز مرسوم الخليفة ليحبس، فبقي في الحبس أربعين يومًا، وكانت أخت بشر الحافي ترسل إليه كل يوم رغيفًا تذهب به إلى باب الحبس وتعطي البواب ليوصله إليه، فلما طلع من الحبس كان هنالك أربعون رغيفًا إذ ما أكل شيئًا، فقيل: إن أخت بشر لم ترسل إليك إلا وجهًا حلالًا؟ قال: نعم ولكن وَصَل إليَّ على يدٍ ليست نظيفة، يعني يد السجَّان».

وإذا كنتُ قد أوردتُ رواية فريد الدين العطَّار عن ذي النون، فأنا هنا أورد رواية جلال الدين الرومي التي أتت شعرًا، في الجزء الثاني من كتابه «المثنوي» بترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، وقد اعتمدت الطبعة التي صدرت في قونية (تركيا)، تلك المدينة التي عاش فيها الرومي ومات، وبذا أكون قد أوردت «شهادات» أكبر ثلاثة أقطابٍ في التصوف عن ذي النون، وهم: ابن العربي، والعطَّار، والرُّومي.

نصوص جلال الدين الرومي عن ذي النون المصري

1385 - لقد صرتُ ثانيةً مجنونًا أيها الطبيبُ، وصرتُ ثانيةً مُتيَّمًا أيها الحبيبُ.

- وحلقاتُ سلسلتكَ يا ذا الفنون، كلٌّ حلقةٍ منها، تمنحُ نوعًا مختلفًا من الجنونِ.

- وكلُّ حلقةٍ، أعطت فنونًا من نوعٍ آخر، ومن ثم فإنَّ لي في كلِّ لحظةٍ جنونًا مختلفًا.

- ومن ثم، «صار الجنونُ فنونًا»، وهذا مثل، بخاصَّةٍ في سلسلةِ هذا الأمير الأجلِّ.

- ومثل ذلك الجنُون قد حطم القيدَ، بحيثُ أخذَ كلُّ المجانين يسدُونَ إليَّ النصحَ.

مجيء الرفاق إلى البيمَارستان «دار المجانين» لعيادة ذي النُّون المصري رحمة الله عليه.

ولقد حدث مثل هذا لذي النُّون المصري، فقد تولد لديه وجْدٌ وجنونٌ جديدان.

- وصار الهياجُ شديدًا حتى بلغَ ما فوق الفَلكِ، ومنه كان المِلحُ ينثرُ على الأكبادِ «الجريحة».

- وحذارِ يا ترابًا مِلْحًا أن تجعلَ من مِلحكَ مساويًا لمِلحِ الأطهارِ.

- ولم يكُن عند الخلق طاقةٌ على «تحمُّل» جنونه، فلقد كانت نارُه تختطفُ لحاهُم.

- وعندما شبَّتِ النارُ في لِحَى العَوام، قيدُوه، ووضعُوه في السِّجن.

1395 - وليس في الإمكان جذب هذا اللجام، بالرغم من العوام يضيقون به.

- لقد رأى هؤلاء الملوكُ من العامَّة الخوفَ على الرُّوح، فهذه الجماعة عمياءُ، والمُلوكُ لا أمارات لهم.

- وما دام الحُكمُ في أيدي العَوام، فلا جُرمَ أنَّ ذا النون يكونُ في السجن.

- والملكُ العظيمُ يمضي «وحيدًا» كفارسِ الميدانِ، ويكون بين أيدي الأطفال مثل هذا الدُّر اليتيم.

- وما الدرُّ؟ إنه بحرٌ مخبوءٌ في قطرةٍ، وشمسٌ مخبوءةٌ في ذرَّة.

1400 - إنه شمسٌ، يبدي نفسه في ذرَّةٍ، وقليلًا قليـلًا يكشفُ النقـابَ عن وجهه.

- وكلُّ الذرَّاتِ ممحوةٌ فيه، والعالم منه، صار في سُكْرٍ ثم في صحوٍ.

- وعندما يكون القلمُ في يد غادرٍ، يكون المنصورُ (الحلَّاج) بلا شكٍّ فوق المشنقة.

- وما دام للسفهاء هذه الأبهةُ والعظمةُ، صار لازمًا لهم قتل الأنبياء.

- ومن سفههم، قال قوم ممَّن ضلُّوا الطريق للأنبياء: «إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ».

1405 - وانظُرْ إلى جهلِ النصرانيِّ، إنهُ يطلبُ الأمانَ من ذلك السيد الذي صُلِبَ.

- وإذا كان اليهودُ قد صلبوه على حدِّ قوله، فكيف يستطيعُ أن يمنحَهُ الأمانَ؟

- وإذا كان ذلك الملكُ قد دَمِيَ قلبه منهم، فكيف بعصمةِ «وَأَنْتَ فِيهِمْ»؟

- والذهبُ الخالصُ والصائغُ كلاهما يتعرَّضانِ للخطرِ أكثر من المزيف والخائن.

- وأمثال يوسف مختفون من حسدِ القُبحاءِ، والحِسانُ يعيشون في النارِ «خوفًا» من العدو.

1410 - وأمثال يوسف في الجُبِّ من خوفِ الإخوانِ، الذين يسلمون يوسف حُسَّدًا إلى الذئبِ.

- فما ذا جرى ليوسُف المصريِّ من الحسدِ؟ وهذا الحسدُ ذئبٌ ضخمٌ مُترصِّدٌ.

- فلا جرمَ أنَّ يعقوبَ الحليم، كان دائمَ الخوفِ على يوسُفَ من هذا الذئبِ.

- وذئب الظاهر، لم يقترب في الأصل من يوسُف، وهذا الحسدُ في فعلِهِ، جاوزَ فعلَ الذئابِ.

- ولقد طعنهُ هذا الذئبُ، ومن العُذر اللبقِ، جاءَ قائلًا: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ».

1415 - ومئاتُ الآلافِ من الذئابِ ليس لديها هذا المكر، وفي النهاية، سوف يفتضحُ هذا الذئبُ، فاصبرْ.

- ذلك أنَّ حشْرَ الحاسدينَ يوم العقابِ، لا شكَّ سوف يكونُ على صُورةِ الذئابِ.

- وحشْرُ شديدِ الحرصِ الخسيسِ آكلِ الجيفِ، يكونُ على صورة الخنزيرِ يوم الحساب.

- والزُناةُ يُحشرونَ بعوراتٍ نتنةٍ، ولمعاقري الخمر يكُونون نتنِي الفم.

- والنتنُ الخفيُّ الذي كان يصلُ إلى القلب، صار يوم الحشر محسوسًا ظاهرًا.

1420 - وإنَّ وجُودَ الإنسانِ قد خُلقَ على مثالِ غابةٍ، فكُن على حذرٍ من ذلك الوجُودِ، إن كنت من ذلك النَّفَس «الإلهي».

- وفي وجودنا آلافٌ من الذئابِ والخنازيرِ، والصَّالح والطالح، والشَّريف وابن الزنا.

- والحُكمُ يكُون لتلك الخصلة التي تكون غالبة، ويكون حشرُك واجبًا على صُورتها.

- ففي لحظةٍ يدخل ذئبٌ إلى «طبيعة» البشرِ، ولحظة أخرى يدخلُ مَن هو في وجه يوسف، كالقمر.

1425 - وتمضي من الصُّدورِ إلى الصُّدورِ، من طريقٍ خفيٍّ، أنواعُ الصَّلاح، وأنواعُ الحقد.

- بل إنه من الإنسان نفسه، يمضي إلى البقر والحُمُر، المعرفةُ والعلمُ والفضلُ.

- والحِصانُ الذي يمضي حَرُونًا، يصبحُ حسنَ السَّيرِ وديعًا، والدبُّ يقومُ بالألعاب، والماعز يقوم بالتحية.

- انتقل الهوسُ إلى الكلبِ من البشرِ، حتى صار راعيًا أو حارسًا أو قنَّاصًا.

- ومن أصحاب الكهف، انتقل الخيرُ إلى كلبهم، حتى صار باحثًا عن الله.

1430 - وفي كلِّ لحظةٍ، يطل برأسه نوعٌ ما في الصدر، حينًا شيطان، وحينًا ملاك، وحينًا شبكة ووحش.

- وكلُّ أسدٍ ذي وعْيٍ له إلى تلك الغابةِ العجيبةِ، طريقٌ خفيٌّ، حتى شباك الصُّدُور.

- فاختلس الرُّوح من داخلِ المَرْجان، يا أقلَّ من كلبٍ، اسرقها من بواطنِ العارفين.

- وما دمت لصًّا، فاسرقْ هذا الدُّرَّ اللطيف، وإن كنتَ حاملًا «لحمل»، فليكُن حملًا شريفًا.

فهْمُ المريدين أنَّ ذا النون

لم يُجَنّ بل فعلها عامدًا

- وسمعَ المريدون ما حدث لذي النون، فمضوْا إلى السجن، وتشاورُوا فيما بينهم.

- اتجه إليه رفاقُهُ من كل صوبٍ، نحو السجن لعيادته.

1435 - فلعله متعمِّدٌ، أو أنَّ في ذلك حكمةً، إنه في هذا الدين آيةٌ وقِبلةٌ.

- وبعيدٌ بعيدٌ عن عقلِهِ الشبيهِ بالبحرِ، أن يكونَ الجنونُ آمرًا له بالسَّفهِ.

- وحاشا لله من كمالِ جاهِهِ، أن يغطِّي غمامَ المرض قمرُهُ.

- لقد قبع في السِّجن «هربًا» من شرِّ العامة، ولقد تظاهرَ بالجُنونِ من عارِ العُقلاء.

- فهو من عارِ العقلِ البليدِ عابدُ الجسدِ، قد ذهبَ عمدًا، وصارَ مجنُونًا.

1440 - قائلًا: شُدُّوا وثاقِي، واضربُوني على رأسِي وظهري بذيلِ بقرةٍ، ولا تسألُوا عن السَّبب.

- حتى أجدَ من ضرباتِ الذيلِ الحياةَ، مثلما وجدَها القتيلُ من «ذيلِ» بقرةِ موسى أيُّها الثقاتُ.

- وحتى أشفَى بضرباتِ ذيلِ البقرةِ، وأربو مثل قتيلِ بقرةِ موسى.

- لقد انبعث القتيلُ حيًّا من ضرباتِ ذيلِ البقرةِ، ومن الكيمياءِ، صار ذهبًا خالصًا، بعد أن كانَ نحاسًا.

- ولقد قفز القتيلُ ونطقَ بالأسْرَارِ، وأبدى تلك الزمرةَ السَّفاكةَ للدماءِ.

1445 - وقال بوضوحٍ: إنَّ تلك الجماعةَ قد قتلتني، عندما لجُّوا في خُصُومتِي.

- وعندما يصيرُ هذا الجسمُ الثقيلُ قتيلًا، يُبعثُ حيًّا الوجودُ العالمُ بالأسرارِ.

- وترى روحُه النارَ والجنةَ، وتستردُّ علمها بكلِّ الأسرار.

- وتُبدِي السَّفاحينَ الشياطينَ، وتكشفُ عن شِباكِ الخديعةِ والرياءِ.

- وقتلُ البقرةِ إنما يكُونُ من شرطِ الطَّريق، حتى تصيرَ الرُّوح مفيقةً من ضرباتِ ذيلها.

1450 - فقُم سريعًا بقتلِ بقرةِ نفسكَ، حتى تصبحَ الرُّوحُ الخفيةُ حيَّةً ذات ذكاءٍ.

عودةٌ إلى قصَّةِ ذي النون

- عندما اقترب منه ذلك النفرُ، صاح بهم: هه؟ مَن أنتم... اتقُوا.

- فقالوا بأدبٍ: إنَّنا من الأصدقاء، وجئنا إلى هُنا مخلصينَ من أجلِ السُّؤالِ.

- فكيف أنتَ يا بحرَ العقلِ ذا الفنون؟ وأيُّ بهتانٍ هذا بأن يصيب عقلك الجنون؟

- ومتى يصلُ دُخَانُ المستوقدِ إلى الشَّمسِ؟ وكيف تصبحُ العنقاءُ مهزُومةً من غُرابٍ؟

1455 - لا تكتم عنَّا «السرَّ»، وفسِّرْ هذا الكلام، ولا تتصرَّفْ معنا هكذا، فنحنُ محبُّونَ.

- ولا ينبغي إبعادُ المُحبِّين، أو صرفهم بالحِيلةِ والدَّريئةِ.

- وبُحْ لنا بالسرِّ أيُّها المليكُ، ولا تُخْفِ وجهَكَ خلفَ الغمامِ أيها القمرُ.

- نحنُ مُحبُّونَ صادقون، «نشعرُ» بالألمِ في قلوبِنا، وفي كلتا الدارينِ علقنا بكَ القُلوبَ.

- فبدأ في السبِّ والشَّتمِ المُقْذعِ، وتحدَّث بطريقةِ المجانين حديثًا لا رابطَ فيه.

1460 - وقفزَ وبدأ في رميِهم بالحجارةِ والخشبِ، فهربوا جميعًا خوفًا من الإصابةِ.

- فضحكَ مُقهقهًا، وهزَّ رأسَهُ، وقال: أنظر إلى نفاجِ هؤلاء الأصدقاءِ وادِّعائهم.

- أنظر إلى الأصدقاء، فأين أمارةُ الأصدقاء؟ إنما يحبُّ الأصدقاءُ الألم كأنهُ الرُّوحُ.

- وكيف يحسُّ الصَّديقُ بأنَّ إيلامَ الصَّديقِ ثقيلٌ؟ إن الألم لبٌّ، والصداقةُ له كالقشرِ.

- وأليست علامةُ المحبَّةِ هي السرورُ في البلاءِ والآفةِ ومعاناةِ المِحَنِ؟

1465 - والصديق كالذهبِ، والبلاءُ مثل النَّارِ، والذَّهبُ الخالصُ مُتهللُ الوجْهِ في قلبِ النَّارِ.

....

كَانَ أَهْلُ ناحية ذي النون المصري يُسَمُّوْنَهُ الزِّنْدِيْقَ، فَلَمَّا مَاتَ، أَظَلَّتْ الطَّيْرُ الخضر جِنَازَتَه، حتى وصل إلى مدفنه، فَاحْتَرَمُوا بَعْدُ قَبْرَهُ. وقد مَاتَ بِالجِيْزَةِ، وَعُدِّي بِهِ إِلَى مِصْرَ فِي مَرْكِبٍ خَوْفًا مِنْ زَحْمَةِ النَّاسِ عَلَى الجِسْرِ.

وفي تلك الليلة التي فارق الدنيا فيها، رأى سبعون رجلًا النبي محمد في النوم يقول: «إن حبيب الله ذا النون يزمع المجيء، وقد جئتُ لاستقباله»، وحين مات ظهر مكتوبًا على جبينه: «هذا حبيب الله، مات في حب الله، قتيل الله»، فلما حملوا جنازته تجمَّعت طيور السماء وظللتها، فتحيَّر أهل مصر جميعًا، وتابوا عمَّا كانوا قد ارتكبوه معه من جفاء).

ولما دفن غابت الطيور، وعندما رأى أهل مصر ذلك، ندموا على ما فرط منهم في حق ذلك الولي، واستغفروا ممَّا أنكروه عليه من ولايته، وما ألحقوه به من الأذى في حياته، وأجلُّوه بعد ذلك واحترموا قبره . وذكر المناوي أن ذا النون قد دُفن بالقرافة، وأن قبره بها ظاهر مقصود بالزيارة وعليه أنس ومهابة، وأن هذا القبر بالقرب من قبر عقبة بن عامر الجهني الصحابي، وأنه يقال إنَّ ذا النون وعقبة وعمرو بن العاص في قبرٍ واحدٍ .

وَلَمَّا مَرِضَ ذُو النُّونِ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ قِيلَ لَهُ: مَا تَشْتهِي؟ قَالَ: أَنْ أَعْرِفَهُ قَبْلَ مَوْتِي بِلَحْظَةٍ، وَلَمَّا مَاتَ وُجِدَ عَلَى قَبْرِهِ (وفي رواية أخرى جبينه) مَكْتُوبٌ: مَاتَ ذُو النُّونِ حَبِيبُ اللَّهِ مِنَ الشَّرَقِ

قَتِيلُ اللَّه.

وقيل له عند النزع: «أوصنا»، فقال: «لا تشغلوني فإني متعجِّبٌ من سر لطفه».

قال فتح بن شخرف: «دخلتُ عليه عند موته، فقلتُ له: كيف تجدك؟ فقال:

أَموتُ وما ماتَتْ إليك صَبابَتي

ولا قضَّيتُ مِن صِدْق حُبك أَوطاري

مُناي المنى كلُّ المنى أنتَ لي مُنًى

وأَنْتَ الغِنى كلُّ الغِنى عِنْد أقتاري

وأنتَ مَدَى سُؤْلي وغايةُ رَغْبَتِي

ومَوضِعُ آمالي ومَكْنُونُ إضماري

تَحمَّلَ قلبي فيك ما لا أَبُثُّه

وَإِنْ طالَ سُقْمِي فيكَ أو طال إِضْراري

وبَيْنَ ضُلوعي منكَ مَا لَكَ قَدْ بدا

ولَمْ يَبْدُ باديه لأهلٍ ولا جارِ

وبي مِنكَ في الأحشاءِ داء مُخامِر

فقد هَدَّ مِنِّي الركنَ وانْبَثَّ إسْراري

أَلَستَ دليلَ الرَّكْب إنْ همُ تَحَيَّروا

ومُنْقِذَ مَن أَشْفي عَلَى جُرُفٍ هار؟

أَنَرتَ الهُدَى لِلْمُهْتَدِين ولم يَكُنْ

مِنَ النُّور في أيديهمُ عُشْرَ مِعْشارِ

فَنَلْني بعفوٍ مِنْك أحيا بِقُرْبِه

أَغِثْنِي بِيُسْرٍ منك يَطْرُدُ إِعْساري

كان ذو النون المصري صوفيًّا من أصحاب الرياضات والمجاهدات، ووليًّا من أرباب الأذواق والمشاهدات؛ وقد كان له بحكم هذا كله حياة روحية تأتلف فيها العناصر العلمية والعملية التي

يتألف منها مذهبه الصوفي.

و قد اتصل بالإمام أحمد بن حنبل واجتمع به، كما اجتمع به غيره من مشايخ الصوفية الذين كان منهم بشر الحافي (179 – 227 هجرية)، والسري السقطي (160 -253 هجرية)، وهو خال الجُنيْد، ومعروف الكرخي (توفي في بغداد سنة 200 هجرية / 815 ميلادية).

«وكما كان العصر الَّذي عاش فيه ذو النون حافلًا بأرباب العلم من الفقهاء والمحدثين الذين أخذ عنهم، فقد كان كذلك عصرًا مزدهرًا من الناحية الروحية مشرقًا بكثير من الشخصيات الصوفية التي طبعت روح العصر بطابعها، والتي كان من بين أصحابها أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي المتوفى سنة 261 هجرية. وأبو محمد سهل بن عبد الله التستري المتوفَّى سنة 273 هجرية أو 283 هجرية، وقد لقي ذا النون بمكة سنة خروجه إلى الحج، وأبو سعيد أحمد ابن عيسى الخرَّاز المتوفى سنة 277 هجرية، وقد صحب ذا النون، وإسحاق ابن إبراهيم السرخسي.

وأبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي المتوفى سنة 304 هجرية، وقد صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي، ورافق أبا سعيد الخرَّاز: فكل أولئك وكثير غيرهم كانوا من كبار الصوفية الذين عاصروا ذا النون، واتصلوا به ألوانًا مختلفة من الاتصال ، وكان لهم في حياته وفي مذهبه آثار لها قيمتها العلمية والعملية، كما كان له في أنفسهم منزلة كبرى ومكانة عظمى من الناحية الروحية.

ويذكر الدكتور محمد مصطفى حلمي (1904 – 1969 ميلادية) أنه إن «لم يكن زاهدًا أو عابدًا من طراز الزهاد والعباد الذين حفلت بهم عهود الحياة الرُّوحية الإسلامية الأولى فحسب، وإنما كان صاحب منهج وصاحب مذهب، وكان أخص خصائص منهجه التحليل والتعليل والتأويل وكلها أشياء تبيّنا بعض آياتها من خلال ترتيبه وتصنيفه للأحوال والمقامات، كما كان أبرز ما يتسم به مذهبه من سمات، هذه الصبغة التيوزوفية التي اتخذ فيها من الله موضوعًا أسمى لمعرفته ومحبته وغاية قصوى لرغبته ومنيته».

ويرى أحمد أمين (1 من أكتوبر 1886 - 30 من مايو 1954ميلادية) في كتابه «ظُهر الإسلام» أن «له تأثيرًا كبيرًا في نقل التصوف من حالٍ إلى حال، وينسب إليه إدخال الكلام في المقامات والأحوال في الصوفية، وقد شغلت جزءًا كبيرًا منها؛ فللصوفية كلامٌ طويلٌ في الأحوال والمقامات التي وضع فكرتها ذو النون».

البلاءُ مِلْحُ العارف

أفرحُ كثيرًا كلما كتبتُ حرفًا عن ذي النون المصري؛ لأسبابٍ كثيرةٍ من بينها أنه أولُ متصوفٍ إشراقيٍّ أتعرفُ حياته الشخصية الثرية والغريبة، الملأى بالأحداث والوقائع والمِحَن، وطريقه الصُّوفي، وعجائبه، وكراماته، ومدى تأثيره فيمَن جاء بعده من أهل الوقت، وكنتُ وقتذاك طالبًا في سنته الأولى يدرس الصحافة، قادمًا من عند أبي الحسن الشاذلي، والطريقة الشاذلية، فـ«قلَبَ» حياتي مع رحلة التصوُّف، وصرتُ أعرفُ شيوخ الوقت الذين أثَّرُوا فيَّ، وأثْروا رُوحي وتجربتي الشعرية، خُصوصًا الحلاج، وابن العربي، والجُنيْد، والشبلي، وشهاب الدين السُّهروردي، و البسطامي، وعمر بن الفارض، وسواهم ممَّن قُتل أو عذِّب أو عاش طريدَ الفقهاء المتشدِّدين – فقهاء السَّلاطين، وخُدَّام الحكَّام – وهم كثْرٌ في زماننا وأزمنة سلاطين الصوفية.

كما أشعرُ أنَّني مدينٌ طَوالَ الوقتِ لذي النُّون، وأحزنُ كثيرًا أنه لا يلقَى الاهتمام الكافي في الدراسات الأكاديمية العلمية داخل مصر وخارجها، وأحاولُ التنبيه إلى ذلك، على الرغم من أنَّ كبارَ المُتصوفة قد اهتموا به وأفردُوا صفحاتٍ أو كُتبًا، وهذه المحاولة منِّي لرسم صورةٍ لهُ عبْري، وعبر مَن عايشُوه أو نقلوا عنه، وكي أكملَ الصُّورة، فقد اخترتُ له شعرًا، وحِكَمًا، وإشاراتٍ، وكراماتٍ، وعجائبَ، وقصصًا، ومرويات، ومحكيات عنه رواها تلاميذه المُقرَّبُون الثقات.

كما أنه كان ثالثَ ثلاثةٍ حاولوا معرفةَ الهيروغليفية وفكّ خُطوطها ورُموزها مع يوحنا النقيوسي (توفي نحو 700 ميلادية) في القرن السَّابع الميلادي، وفي القرن الثَّالث الهجري / التاسع الميلادي أبو بكر أحمد بن وحشية النبطي (وهو كيميائي، وعالم لغوي نبطي، وله كتاب «شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام»، يتناول نحو تسعٍ وثمانين لغة قديمة وكتاباتها ومُقارنتها بالعربية، ومن ضمنها اللغة الكُردية والهيروغليفية، وقد كشف ابن وحشية أنَّ الرموز الهيروغليفية رموزٌ صوتية، وحلّل العديد منها، قبل كشف شامبليون، بل إن ترجمةً إنجليزيةً لمخطوطة «شوق المستهام...» التي حقَّقها المستشرق النمساوي جوزيف فون هامر- برجشتال (1774-1856 ميلادية) نشرت في لندن عام 1806 ميلادي، أي ستة عشر عامًا قبل كشف شامبليون ذلك، وذهب البعض إلى القول إنَّ شامبليون كان قد اطَّلع على هذه المخطوطة).

كما أنَّ ذا النون المصري قد قارن الخط الهيروغليفي بالكتابة القبطية التى كانت معاصرةً له، والتي كان يستخدمها القساوسة الأقباط في زمانه.

كان ذُو النون المصري يقولُ ويفعلُ، وينظرُ في الأمور، وفي المقادير التي وثق بها فاستراح، وفي الخلائق، لا يخشى تبعات شيءٍ، صاحب طريقة خاصة في الحكمة، «امتُحن وأُوذي لكونه أتاهم – أهل مصر- بعلمٍ لم يعهدوه» كما قال ابن يونس المصري (342 هجرية - 950 ميلادية

1009/ ميلادية) وهو من مشاهير الفلكيين العرب، وسبق جاليليو في اختراع بندول الساعة بعدة قرون، وقد أُطلِقَ اسمُه على إحدى مناطق السطح غير المرئي من القمر.

وكان ذو النون قادرًا على خرق العادة، لم يحب من أحد أن يشغله أو يشوش وقته، لم يدَّعِ المعرفة أو يحترف الزُّهد كعادة أهل زماننا، ممَّن امتطوا صهوةَ خيل الدعوة، وهم دُونها، وغير مؤهلين لها.

فكان نوره ساطعًا بفضل الأنس بالله، ولم يأنس بالناس لأنه كان يدركُ أنه سُمٌّ قاطع، أليس هو القائل: «ما أخلص عبدٌ لله إلا أحبَّ أن يكونَ في جُبٍّ لا يُعْرَفُ»، فقد عاش يردِّد: «البلاءُ ملحُ المؤمن، فإذا عدمه فسد حاله»، كان ذو النون المصري عارفًا خائفًا لا عارفًا واصفًا، يعاتب نفسه إذا دعته إلى بليَّة.

إذا تكلَّم جلا القلوب

كان ذو النون المصري من القليلين الذين يعلمون شأنَ السَّموات والأرض، كان إذا تكلَّم جلا القلوب، ينظرُ بعين اليقين، خاض بحارًا وقطع قِفارًا، وكابدَ الشدائدَ، واحتمل الأذى والاتهامَ من بعض فقهاء زمانه، وكان يقولُ: «لولا نقصٌ دخلَ على أهل الحديث والفقه؛ لكانوا أفضلَ الناس في زمانهم، ولكن بذلوا علمهم لأهل الدنيا فحجبُوهم وتكبَّروا عليهم ،... فجعلوا العلم فخًّا للدنيا، فما أقبح هذا، لقد جهلوا بعد علمهم، وافتقروا بعد غناهم، وذلوا بعد عزّهم، وصاروا عبيدًا لأهل الدنيا، بعدما جعلهم الله أحرارًا، شربوا بكأس المفتُونين؛ فذهبت بعقُولهم. إنَّ العلم سلاح الدين، فإذا طلبت به الدنيا لم ينفعك»، كأنَّ ذا النون يعيشُ بيننا الآنَ، ويتحدَّث عن فقهاء يعيشون معنا، إنَّ توصيفَه ذاك ينطبقُ على كثيرين يتاجرُون بعلمهم، وبما يعرفون من الدِّين، والدين منهم براء.

لقد خاطرَ ذُو النون بنفسه، وخرقَ ظلماتٍ بنُورِ مُشاهداته؛ فأشرَقَ وتجلَّى، إذا كان يدركُ أنَّ الطريقَ مستقيمٌ، والمحجَّة واضحة.

كان جوابه على قدر ما رأى حينما يسألهُ أحدُهم مسألةً، وكان لا يعملُ إلا عن علمٍ، وبالإسناد أيضًا، يتمنَّى منازل الأبرار.

ولما مرضَ ذُو النون مرضَ الموت، قيلَ له: ما تشتهي؟ قال: أن أعرفَهُ (الله) قبل موتي بلحظةٍ.

عاش ذُو النون حياته يحاولُ مُجاوزةَ دار الظالمين، ويستوحشُ من مُؤانسة الجاهلين، ويركبُ سفينة الفِطنة، ويقلعُ بريح اليقين، ويرسُو على شُطوط الإخلاص، عابرًا جسرَ الهوى، فاتحًا بابَ الصَّبر. فقد رفعَ حجابَ الغفلةِ عن قلبه، وأُلْهِم النظرَ في عجيبِ الصنائعِ وبديعِ العجائبِ، كان غاية

أمله الكشف عن مكنُون العلم، والشُّرب من حِيَاض المعرفة.

وكان ذُو النون المصري يسافرُ إلى الله بالجُوع والعطش. داعيًا الله أن يهبَ إليه «يقينًا لا توهنه شُبهة غفلةٍ، ولا تهينه خطرة شكٍّ»، «اللهم اجعلنا من الذين تفكَّروا فاعتبروا، ونظرُوا فأبصرُوا، وسمعوا فتقلقلت قلوبهم بالمنازعة إلى طلب الآخرة...».

كان يسعى إلى أن يفتحَ أبوابَ مغالقِ العمى بأنوار مفاتيح الضياء.

عرفَ مسيرَ الدنيا بمُوقناتِ المعرفةِ، تزيَّنَ بالعلم، وسكنَ بيتَ الورَع، فنال عُلو الزاهد، واستعذب مذلَّة النفوس، وظفر بدار الجلال، وتعلَّق بحجاب العزَّة؛ فمنح منازل القُرب والولاية. وسرحت رُوحه في العلى، وحطَّ قلبه في الملكُوت، وجال بين سرائر حجب الجبروت، ومالت روحه في ظلِّ نسيم المشتاقين، حتى جعل قلبه معقودًا بسلاسل النور.

عاش ذُو النون المصري يغسلُ «أوعية الجهل بصفو ماء الحياة في مسالكِ النعيم»، ونبهته المعرفةُ إلى كريم الآلاء.

وهناك سبعةُ قبورٍ اشتهرت عند المصريين بقضاء الحاجة منها قبر ذي النون المصري، وقبر أبي الخير الأقطع، وهو «من أعلام التصوف السُّني في القرن الرابع الهجري (223 - 343 للهجرة)، وكان ينسج الخوص بيديه، لا يدري كيف ينسجه. وحكاية قطع يده طويلةٌ مشهورةٌ. وكانت السِّباع والهوام تأوي إليه، وتأنس به، وسبب قطع يده أنه كان قد عاهد الله ألا يتناول بشهوة نفسه شيئًا مشتهيًا، فرأى يومًا بجبل اللكام شجرة زعرور(1) فاستحسنها فقطع منها غصنًا فتناول منها شيئًا من الزعرور فذكر عهده وتركه ثم كان يقول: «قطعت غصنًا فقُطع مني عضو»، وروى ابنه «عيسى» عنه أنه قال: «كنتُ عبدًا أسود، فضاق صدري في الملك؛ فدعوت الله فأعتقت؛ فكنت أجيء إلى الإسكندرية فأحتطب وأتقوَّت بثمنه، وكنتُ أدخل المسجد أقف على الخلق وأعلم أنهم

لا يعلمونني شيئًا؛ لأنني عبد أسود، فكنت أقف عليهم فيسهل الله على لسانهم ما كنت أريد أن أسأل عنه فأحفظه وأستعمل ذلك، سمعت مرة حكاية يحيى ابن زكريا وما عملوا به، فقلتُ في نفسي إنَّ الله ابتلاني بشيء في بدني، صبرتُ ثم خرجتُ إلى الثغر بطرطوس، وكنتُ آكلُ المباحات ومعي حجفة وسيف، وكنتُ أقاتلُ العدو مع الناس فآواني الليل إلى غار هناك، فقلتُ في نفسي إنني أزاحمُ الطير في أكل المباحات؛ فنويتُ ألا آكل، فمررتُ بعد ذلك بشجرةٍ فقطعتُ منها شيئًا، فلما أردتُ أن آكله ذكرتُ، فرميتُه، ثم دخلتُ المغارة بالليل؛ فإذا هناك قطعوا الطريق ودخلوا إلى الغار قبلي، ولم

أعلم فلمَّا دخلتُ إلى هناك، فإذا نحن بصاحب الشرطة يطلبهم، فدخل الغار فأخذهم وأخذني معهم؛ فقدموا جميعًا، فقطعوا فلما قدمت قالت اللصوص لم يكن هذا الأسود معنا وكان أهل الثغر يعرفونني فغطى الله عنهم، حتى قطعوا يدي فلما مدُّوا رجلي قلتُ يا رب هذه يدي قطعت لعقد عقدته فما بال رجلي فكأنه كشف عنهم وعرفوني وقالوا هذا أبو الخير واغتمُّوا فلما أرادوا أن يغمسوا يدي في الزيت امتنعت وخرجتُ ودخلتُ الغار وبتُّ ليلةً عظيمةً فأخذني النومُ فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلتُ: يا رسول الله فعلوا بي وفعلوا فأخذ يدي المقطوعة فقبَّلها فأصبحتُ ولا أجدُ ألمَ الجرح وقد عوفيت».

وهناك قبر أبي الربيع المالقي (نسبةً إلى مدينة ملقة الأندلسية)، وقبر القاضي بكَّار (عيَّنه الخليفة العباسي المتوكل على الله قاضيًا على مصر سنة 246هجرية، لما اشتهر عنه من العلم والزُّهد والورع والفضل. وقد توفي في زمن الخليفة العباسي المعتمد على الله).

وقبر القاضي كنانة، وقبر أبي بكر المُزني، وقبر أبي الحسن الدينوري أحد علماء أهل السُّنة والجماعة، ومن أعلام التصوُّف السُّني في القرن الرابع الهجري، من كبار المشايخ، وكان في المعاملة مخلصًا، وعن النظر إلى سوى الحق معرضًا، وأقام في مصر وتوفي فيها عام 330 هجرية، ومن عجائب ما رُوي عنه عن ممشاذ الدينوري، أنه قال: «خرجتُ ذات يومٍ إلى الصَّحراء، فبينا أنا مارّ؛ إذا أنا بنسرٍ قد فتحَ جناحيه، فتعجبتُ منه فاطّلعتُ، فإذا بأبي الحسن الدينوري الصَّائغ قائمٌ يصلِّي والنسر يظلله».

ولذي النون كراماتٌ كعادة المتصوفة وهي كثيرةٌ ومنها أن جاءه «رجل يشكو إليه دَيْنًا عليه نحو سبعمائة دينار، قال ذو النون: فأخذ حصاةً من الأرض، فقال للرجل: خُذْها فإني أرجُو أن يكون قضاء دَيْنك، قال يوسف ابن الحسين: قال الرجل: جئتُ بها إلى صديقٍ لي من أصحاب الجوهر «الجواهر»؛ فدفعتها إليه، فقال: ليس هذا وقتُ بيعها، فإن صبرتَ عليها، رجوتُ أن تبيعَها بالضِّعف، قال: فغبتُ عنه شهرًا، ثم عدتُ إليه ؛ فإذا هو باعها لي بألف وأربعمائة دينار».

وكان ذو النون حكيمًا في شعره القليل ونثره الذي وصل إلينا متفرِّقًا في الكتب، ولعلَّ زهدَهُ إلى جانب ثقافته المتنوعة، ومطالعة الحقيقة، وتصوفه هو ما جعله صاحب حكمة عالية، أليس هو القائل: «الزهاد ملوك الآخرة، وهم فقراء العارفين»، و« الزهد يورِّث الحكمة»، و«ازهد في الدنيا ترَ العجب»، و«مَن قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على إخوانه».

لم يكُن يدنِّس ظاهره بالمُعارضات ولا باطنه بالمُخالفات، يحنُّ قلبه إلى الشكوى، ويرتاحُ للذِّكر،

وقد قُلِّدَ بالعلم، وزُيِّنَ بالحلم، وخُلِعَ بالعقل.

فالخلاص لديه في الإخلاص، فإذا أخلص تخلَّصَ، ولا يتحقق الإخلاص إلا «إذا سكنت معادن الأنوار في قلبك».

والبلاء عنده ملح المؤمن، وإذا عدم البلاء فسد حاله.

كان ذو النون يسخو بنفسه، ويمارس النصح والإرشاد أينما ذهب، يبدي الذي هو به، لا يتكلف أو يتصنع؛ لأنه يؤمن أن «الصدق لا يتم إلا بالإخلاص فيه والمداومة عليه». قويًّا في عزلة نفسه؛ كي يصل إلى المطلوب، فكان يصبر عند وقوع البلاء، ويشكر عند حلول الرخاء. يلتذ بالخلوة؛ لأن مَن يستأنس بها يستمكن من بساط الفراغ، وكان يستحلي الوحدة، ويستوحش من الصحبة.

كان ذو النون يصف حال الناس والعلماء كأنها ما نحن فيه الآن على الرغم من مرور نحو ألف سنة على وفاته: «أيها الناس هذا أوان ينصح فيه الأحياء، إذ الأموات في غمرتهم يعمهُون (عَمَهَ السَّائِرُ: تَحَيَّرَ وَتَرَدَّدَ فِي الطَّرِيقِ وَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ يَذْهَبُ)، حين غدا الدِّين غريبًا منبوذًا، وغدا أهله غُرباء مُهيؤون قد أقبلوا على أكل الحرام، وتركوا طلب الحلال، ورفضُوا المعروف، وأقبلوا على المنكر، وتركوا الجهاد فأظلمت الأرض بعد نورها، ورضيت العلماء من العلم بعلمهم، فانتبهوا أيها الأموات أبناء الأموات وإخوان الأموات وجيران الأموات، وعن قليلٍ أنتم أموات قد أخليتم الدور وعمَّرتم القبور، ألا فقد برح الخفا لمن فهم كثر الجفا، وخلت العلماء وقلَّت الخطباء، وكثرت الدواهي، وكثر الأشرار، وقلَّت الأخيار، وافتكهوا (من الإفك) الآثام، وقطعوا الأرحام، ورضوا بالسلام، وجلس بعضهم مجالس العلماء، يقولون ما لا يعلمون، عبيد الدنيا فهم لها متصنِّعون، وعليها يتخشَّعون، غنيهم فقير، وجارهم ذليل، لا يبالي غنيهم ما طوى عليه جاره من جوعٍ أو عري، إن سألوا ألحُّوا، وإن سُئلوا شحُّوا، لبسوا الثياب على قلوب الذئاب، اتخذوا مساجد الله التي يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم وجمع إخوانهم، ولا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة».

......

وأنا أكتبُ عن ذي النون المصري، عدتُ إلى كتاب «الكوكب الدُّرِّي في مناقب ذي النون المصري» الذي ألَّفه محيي الدين بن العربي، وقد قرأتُ طبعتين من أربعٍ صدرت حتى كتابتي الآن، أولها من تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح، وقد صدر عن مؤسسة الانتشار العربي سنة 2002 ميلادية في بيروت، والثانية للدكتور عبد الحميد صالح حمدان (شقيق د. جمال حمدان) وصدرت سنة 2006 ميلادية عن دار الجزيرة للنشر والتوزيع في القاهرة، أما الثالثة فهي للدكتور عاصم

إبراهيم الكيَّالي، وصدرت عن دار الكتب العلمية سنة 2005 ميلادية، والرابعة فهي لعُقبة زيدان، وصدرت سنة 2019 ميلادية عن دار آرام للدراسات والنشر والتوزيع. ولم أرَ الطبعتين الأخيرتين؛ لأنني لم أجد حاجةً للرجُوع إليهما، خُصوصًا أنَّ حاجتي كانت مُلحَّةً لمتن النصِّ الذي ألَّفه ابن العربي، وقد وجدتُ نصًّا فيه من الجمع والتعريف وحفظ سيرة وتراث ذي النون أكثر ممَّا فيه من رأي لابن العربي في ذي النون، خصوصًا أنَّ الأول قد استفاد كثيرًا من مُنجز ذي النون، وربما تكون تلك الاستفادة هي الدافع الأساسي وراء تأليف هذه الرسالة (الكتاب).

كما أن ابن العربي لم يرَ في الجماعة الصوفية «أكثر سياحة واجتماعًا بأولياء الله من ذي النون المصري»، وقد ظل كتاب ابن العربي هذا مخطُوطًا مجهولًا ومنسيًّا، ولم يرد في مؤلفات ابن العربي، حتى اكتُشف وحُقِّقَ ونُشر على الناس.

وبذلك نكون أمام ثلاثة من كبار القوم الصوفي كتبوا عن ذي النون، كل بطريقته، اثنان بالفارسية وهما جلال الدين الرومي، وفريد الدين العطار، ثم واحد بالعربية وهو محيي الدين بن العربي، ومع ذلك ما زال ذو النون المصري «مجهولًا»، وغير مدروس أكاديميًّا في الجامعات، ولم ينشر حتى كتابتي هذه سوى كتابين له وهما «صفة المؤمن والمؤمنة» والذي اعتنى بنشره رمزي سعد الدين دمشقية، ثم «التفسير العرفاني للقرآن الكريم»، وصدر سنة 2007 ميلادية لمؤلفه الفنان التشكيلي والباحث في التراث صديقي الشَّاعر محمود الهندي، وكان ضمن مشروع «الأعمال الكاملة لذي النون»، لكنَّ الموت لم يمهله ليكمل ما بدأ من مشروعات مهمة كان قد أعلن عنها.

جنس نباتي يتبع الفصيلة الوردية، وهي شجرة شوكية مُعمِّرة وزراعية، وفيها شعيرات بيضاء، تنمو في البلدان العربية، وقد تصل دورة حياتها إلى مئات السنين، ولها قدرة على طرد الأرواح الشريرة.

مختاراتٌ من مرويات وأقوال

وإشارات وأشعار ذي النون المصري

عدتُ إلى كتبٍ ومراجع متنوعةٍ وكثيرةٍ؛ كي أختارَ منها ما يعينني على تقديم هذه المختارات، خصوصًا أنه لا يوجد بين أيدينا كتابٌ مطبوعٌ لذي النون المصري، وقد وجدتُ تضاربًا فيما هو منسوبٌ إلى ذي النون المصري، وأذكر أبرزها، وهي: الرسالة القشيرية في علم التصوف للقشيري، و الطبقات الكبرى لواقح الأنوار في طبقات الأخيار لعبد الوهاب الشعراني، والكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية لعبد الرؤوف المناوي، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني، والتعرُّف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي، واللمع في التصوف للسرّاج الطوسي،

و كشف المحجوب للهجويري، وكتب أخرى قد ذكرتها خلال كتابتي عن ذي النون المصري.

1- القصصُ والمرويات:

ثم تنهدت وخرَّت ميتة إلى جانب ولدها

قال ذو النون المصري: حججتُ سنةً إلى بيت الله الحرام فلما وقفتُ بعرفة رأيت شابًّا عليه آثار الاصفرار والنحول والقلق والذبول، فعلمت أن عنده من المحبة محصول، فسمعته يقول: سيدي كيف ألبيك بلسان عصاك أو قلب جفاك، سيدي ما أجمل هذه الساعة إذ أنت تناجيني، وفي هذا الموقف تناديني، قال ذو النون: فتقدمت إليه فلما رآني قال: مرحبًا يا ذا النون، فقلت

له: ومن أين تعرفني؟ قال: عرّفني بك مَن عرَفني وأخبرني بك مَن آنسني، ثم قال: يا ذا النون حبه تيَّمني وهجره أنحلني فمتى أظفر بقربه، ويجود لي الحبيب برفع حجبه؟ قلت: من أين جئت؟ قال: من بلد القلب، أقصد حضرة الرب، قلت: فبمَ تزودت؟ قال: بقطرةٍ من شرابِ أنْسِهِ، أرجو أن أصل بها إلى حضرة قدسه، قلتُ: فهل كانت لك مطية؟ قال: نعم، صفو النية والانقطاع عن الدنيا بالكلية، والتنزُّه في مقامات حضرته السنية، ثم قال: إليك عني يا ذا النون فما أقبح ساعة تمر في غير طاعة، ثم تركني ومضى، فلما جئت مِنًي رأيته ينظر إلى الناس وهم ينحرون ضحاياهم، فجرت دموعه وتزايد ولوعه وعظم خوفه وخشوعه، ثم قال: سيدي كل أحد تقرب إليك بنسكه وتقدم بملكه، وأنا ما أملك غير هذه النفس العاتية الغافلة الساهية وإني أقربها إليك بالذلة والمسكنة بين يديك، فإن تكرمت بقبولها فجُد بوصولها، وأسرع في تعجيلها، فأنت دليلها إلى سبيلها، ثم صاح وتأوَّه وسقط على الأرض ميتًا، فسمعت قائلًا يقول: يا لها من ركضةٍ إلى الفردوس الأعلى! قال ذو النون: فوقفتُ عند رأسه ساعة أتفكَّر فيه، وإذا بعجوز قد أقبلت إليه وألقت نفسها عليه، ثم أجرت الدموع أسفًا وأظهرت حزنًا وولهًا، ثم قالت: هنيئًا لك يا مَن كان دأبه النسك والوفاء، وما غفل عن خدمة سيده ولا هفا، وطالما قام في الليل برداء الطاعة متلحفًا، يمسي كئيبًا ويصبح مدنفًا، قال ذو النون: فقلتُ لها مَن يكون لك هذا الشاب؟ قالت: هو ولدي سائحٌ في الفلوات، أجتمع أنا وهو كل سنةٍ في الموسم والميقات فلا أعودُ أراهُ إلى العام المقبل، فلمَّا وقفتُ في هذه الساعة بعرفات طلبتُه على سالف العادات، فهتف بي هاتفٌ أنه قد مات، وقد رُفعت روحه إلى أعلى الدرجات، ثم قالت: يا سيدي بما بيني وبينك في خلوتي وبما أودعت من محبتك في مهجتي إلا ما خلصت نفسي العاتية من هذه الدار الفانية، وأوصلتني مع ولدي إلى الدار الباقية، قال ذو النون: ثم تنهدت وخرَّت ميتة إلى جانب ولدها رحمه الله تعالى.

رجل قد غاص في بحر الوله

خرجتُ في طلب المناجاة، فإذا أنا بصوتٍ فعدلتُ إليه فإذا أنا برجل قد غاص في بحر الوله وخرج على ساحل الكمه، وهو يقول في دعائه: أنت تعلم أني لا أعلم أن الاستغفار مع الإصرار لؤم وأن تركي الاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجز، إلهي أنت الذي خصصت خصائصك بخالص الإخلاص، وأنت الذي سلمت قلوب العارفين من اعتراض الوسواس، وأنت آنست الآنسين من أوليائك وأعطيتهم كفاية رعاية المتوكلين عليك تكلؤهم في مضاجعهم وتطلع على سرائرهم، وسري عندك مكشوف وأنا إليك ملهوف. قال: ثم سكنت صرخته فلم أسمع له صوتًا.

ما قاله ذو النون للخليفة العباسي

ثم قال: «يا أمير المؤمنين إن الجهل علق بنكتة أهل الفهم، إن لله عبادًا عبدوه بخالص من السر فشرفهم بخالص من شكره فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فرغًا حتى إذا صارت إليه ملأها من سر ما أسروا إليه، أبدانهم دنيوية وقلوبهم سماوية قد احتوت قلوبهم من المعرفة كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفرج وأطباق السماوات لم يخبتوا في ربيع الباطل ولم يرتعوا في مصيف الآثام، ونزهوا الله أن يراهم يثبون على حبائل مكره هيبة منهم له وإجلالًا أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشيء لا يدوم وبلذة من العيش مزهودة، فأولئك الذين أجلسهم على كراسي أطباق أهل المعرفة بالأدواء والنظر في منابت الدواء، فجعل تلامذتهم أهل الورع والبصر، فقال لهم: إن أتاكم عليل من فقدي فداووه، أو مريض من تذكري فأدنوه، أو ناسٍ لنعمتي فذكروه، أو مبارز لي بالمعاصي فنابذوه، أو محب لي فواصلوه، يا أوليائي فلكم عاتبت ولكم خاطبت ومنكم الوفاء طلبت، لا أحب استخدام الجبارين ولا تولي المتكبرين ولا مصافاة المترفين، يا أوليائي وأحبابي، جزائي لكم أفضل الجزاء، وإعطائي لكم أفضل العطاء، وبذلي لكم أفضل البذل، وفضلي عليكم أوفر الفضل، ومعاملتي لكم أوفى المعاملة، ومطالبتي لكم أشد مطالبة، وأنا مقدس القلوب وأنا علام الغيوب وأنا عالم بمجال الفكر ووسواس الصدور، من أرادكم قصمته ومن عاداكم أهلكته». «بحبك وردت قلوبهم على بحر محبته فاغترفت منه ريا من الشراب فشربت منه بمخاطر القلوب فسهل عليها كل عارض عرض لها عند لقاء المحبوب، فواصلت الأعضاء المبادرة وألفت الجوارح تلك الراحة، فهم رهائن أشغال الأعمال، قد اقتلعتهم الراحة بما كلفوا أخذه عن الانبساط بما لا يضرهم تركه.

قد سكنت لهم النفوس ورضوا بالفقر والبؤس واطمأنت جوارحهم على الدءوب على طاعة الله عز وجل بالحركات، وظعنت أنفسهم عن المطاعم والشهوات، فتوالهوا بالفكرة، واعتقدوا بالصبر،

وأخذوا بالرضا ولهوا عن الدنيا، وأقروا بالعبودية للملك الديان ورضوا به دون كل رقيب وحميم فخشعوا لهيبته، وأقروا له بالتقصير وأذعنوا له بالطاعة، ولم يبالوا بالقلة إذا خلوا بأقل بكاء، وإذا عوملوا فإخوان حياء، وإذا كلموا فحكماء، وإذا سئلوا فعلماء، وإذا جهل عليهم فحلماء، فلو قد رأيتهم لقلت عذارى في الخدور، وقد تحركت لهم المحبة في الصدور بحسن تلك الصور التي قد علاها النور، وإذا كشفت عن القلوب رأيت قلوبًا لينة منكسرة، وبالذكر نائرة وبمحادثة المحبوب عامرة، لا يشغلون قلوبهم بغيره، ولا يميلون إلى ما دونه، قد ملأت محبة الله صدورهم فليس يجدون لكلام المخلوقين شهوة ولا بغير الأنيس ومحادثة الله لذة، إخوان صدق وأصحاب حياء ووفاء وتقى وورع وإيمان ومعرفة ودين، قطعوا الأودية بغير مفاوز، واستقلوا الوفاء بالصبر على لزوم الحق، واستعانوا بالحق على الباطل فأوضح لهم الحجة، ودلَّهم على المحجة فرفضوا طريق المهالك وسلكوا خير المسالك، أولئك هم الأوتاد الذين بهم توهب المواهب، وبهم تفتح الأبواب، وبهم ينشأ السحاب، وبهم يدفع العذاب، وبهم يستقي العباد والبلاد فرحمة الله علينا وعليهم».

لقيتني امرأة

بينا أنا في بعض مسيري إذ لقيتني امرأة فقالت لي: من أين أنت؟ قلت: رجل غريب، فقالت لي: ويحك وهل يوجد مع الله أحزان الغربة؟ وهو مؤنس الغرباء، ومعين الضعفاء؟ قال: فبكيت فقالت لي: ما يبكيك؟ قلت: وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع لي نجاحه، قالت: فإن كنت صادقًا فلم بكيت؟ قلت: والصادق لا يبكي؟ قالت: لا، قلت: ولم؟ قالت: لأن البكاء راحة للقلب، وملجأ يلجأ إليه، وما كتم القلب شيئًا أحق من الشهيق والزفير، فإذا أسبلت الدمعة استراح القلب، وهذا ضعف الأطباء بإبطال الداء، قال: فبقيت متعجبًا من كلامها، فقالت لي: ما لك؟ قلت: تعجبت من هذا الكلام، قالت: وقد نسيت القرحة التي سألت عنها؟ قلت: لا ما أنا بالمستغني عن طلب الزوائد، قالت: صدقت حب ربك سبحانه، واشتق إليه فإن له يومًا يتجلى فيه على كرسي كرامته لأوليائه وأحبائه فيذيقهم من محبته كأسًا

لا يظمئون بعده أبدًا، قال: ثم أخذت في البكاء والزفير والشهيق وهي تقول: سيدي إلى كم تخلفني في دار لا أجد فيها أحدًا يسعفني على البكاء أيام حياتي - ثم تركتني ومضت.

كم محب ذليل

كم من مطيع مستأنس، وكم عاص مستوحش، وكم محب ذليل، وكل راج طالب قال: وسمعته يقول: اعلموا أن العاقل يعترف بذنبه، ويحس بذنب غيره، ويجود بما لديه ويزهد فيما عند غيره

ويكف عن أذاه ويحتمل الأذى عن غيره والكريم يعطي قبل السؤال، فكيف يبخل بعد السؤال؟ ويعذر قبل الاعتذار، فكيف يحقد بعد الاعتذار؟ ويعف قبل الامتناع فكيف يطمع في الازدياد، قال: وسمعته يقول: ثلاثة من أعلام المحبة: الرضا في المكروه، وحسن الظن في المجهول، والتحسين في الاختيار في المحذور، وثلاثة من أعلام الصواب: الأنس به في جميع الأحوال، والسكون إليه في جميع الأعمال، وحب الموت بغلبة الشوق في جميع الأشغال، وثلاثة من أعمال اليقين: النظر إلى الله تعالى في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال، وثلاثة من أعمال الثقة بالله: السخاء بالموجود، وترك الطلب للمفقود، والاستنابة إلى فضل الموجود، وثلاثة من أعمال الشكر: المقاربة من الإخوان في النعمة، واستغنام قضاء الحوائج قبل العطية، واستقلال الشكر لملاحظة المنة، وثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضا، وفقدان المرارة بعد القضا، وهيجان الحب في حشو البلا، وثلاثة من أعمال الأنس بالله: استلذاذ الخلوة، والاستيحاش من الصحبة، واستحلاء الوحدة، وثلاثة من أعلام حسن الظن بالله: قوة القلب، وفسحة الرجا في الذلة، ونفي الإياس بحسن الإنابة، وثلاثة من أعلام الشوق: حب الموت مع الراحة، وبغض الحياة مع الدعة، ودوام الحزن مع الكفاية».

اطلب دواءك ممَّن ابتلاك

حدثنا عبد الله بن محمد، ثنا أبو بكر الدينوري، ثنا محمد بن أحمد الشمشاطي قال: سمعت ذا النون المصري يقول: «بينا أنا سائر على شاطئ نيل مصر إذ أنا بجارية تدعو وهي تقول في دعائها: يا مَن هو عند ألسن الناطقين، يا مَن هو عند قلوب الذاكرين، يا مَن هو عند فكرة الحامدين، يا مَن هو على نفوس الجبارين والمتكبرين، قد علمت ما كان مني، يا أمل المؤملين، قال: ثم صرخت صرخة خرت مغشيًّا عليها، قال: وسمعت ذا النون يقول: دخلت إلى سواد نيل مصر فجاءني الليل فقمت بين زروعها فإذا أنا بامرأة سوداء قد أقبلت إلى سنبلة ففركتها ثم امتنعت عليها فتركتها وبكت وهي تقول: يا مَن بذره حبًّا يابسًا في أرضه ولم يك شيئًا، أنت الذي صيرته حشيشًا، ثم أنبته عودًا قائمًا، بتكوينك وجعلت فيه حبًّا متراكبًا، ودورته فكونته وأنت على كل شيء قدير، وقالت: عجبت لمَن هذه مشيئته كيف لا يُطاع، وعجبت لمَن هذا صنعه كيف يُشتكى، فدنوت منها فقلت: مَن يشكو أمل المؤملين، فقالت لي: أنت يا ذا النون، إذا اعتللك فلا تجعل علتك إلى مخلوق مثلك، واطلب دواءك ممَّن ابتلاك وعليك السلام، لا حاجة لي في مناظرة البطالين، ثم أنشأت تقول:

وكيف تنام العينُ وهي قريرةٌ

ولم تدرِ في أي المحلينِ تنزلُ

كان لي قلب فقدته

حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد، ثنا أحمد بن عيسى الوشاء قال: سمعت أبا عثمان سعيد بن الحكم يقول: سمعت أبا الفيض ذا النون بن إبراهيم يقول: بينما أنا أسير ذات ليلة ظلماء في جبال بيت المقدس إذ سمعت صوتًا حزينًا وبكاءً جهيرًا وهو يقول: يا وحشتاه بعد أنسنا، يا غربتاه عن وطننا، وا فقراه بعد غنانا، وا ذلاه بعد عزنا، فتتبعت الصوت حتى قربت منه فلم أزل أبكي لبكائه حتى أصبحنا نظرت إليه فإذا رجل ناحل كالشن المحترق فقلت: يرحمك الله تقول مثل الكلام، فقال: دعني فقد كان لي قلب فقدته، ثم أنشأ يقول:

قد كان لي قلب أعيش به

بين الهوى فرماه الحب فاحترقا

فقلت له:

لِمَ تشتكي ألم البلا

وأنت تنتحل المحبة؟

إن المحب هو الصبو

ر على البلاء لمَن أحبه

حب الإله هو السرو

ر مع الشفاء لكل كربة

العلم نور لصاحبه

حدثنا أحمد قال: سمعت أبا محمد يقول: سمعت إسرافيل يقول: سمعت ذا النون يقول: كتب رجل إلى عالم: ما الذي أكسبك علمًا من ربك، وما أفادك في نفسك؟ فكتب إليه العالم: أثبت العلم الحجة، وقطع عمود الشك والشبهة، وشغلت أيام عمري بطلبه، ولم أدرك منه ما فاتني، فكتب إليه الرجل: العلم نور لصاحبه، ودليل على حظه، ووسيلة إلى درجات السعداء، فكتب إليه العالم: أبليت إليه في طلبه جدة الشباب وأدركني حين علمت الضعف عن العمل به، ولو اقتصرت منه على القليل كان

لي فيه مرشد إلى السبيل.

لستُ من أهل التُّهم

حدثنا عثمان بن محمد بن عثمان، ثنا محمد بن أحمد الواعظ، ثنا العباس ابن يوسف الشكلي، ثنا سعيد بن عثمان، قال: كنت مع ذي النون في تيه بني إسرائيل فبينا نحن نسير إذا بشخص قد أقبل فقلت: أستاذ شخص، فقال لي: انظر فإنه لا يضع قدمه في هذا المكان إلا صديق: فنظرت فإذا امرأة، فقلت إنها امرأة، فقال: صديقة ورب الكعبة، فابتدر إليها وسلم عليها فردت السلام، ثم قالت: ما للرجل ومخاطبة النساء؟ فقال لها: إني أخوك ذو النون ولست من أهل التهم فقالت: مرحبًا حيَّاك الله بالسلام، فقال لها: ما حملك على الدخول إلى هذا الموضع؟ فقالت: آية في كتاب الله تعالى: ﴿ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗﮘ﴾ [النساء: 97] فكلما دخلت إلى موضع يعصى فيه لم يهنني القرار فيه بقلب قد أبهلته شدة محبته، وهام بالشوق إلى رؤيته فقال لها: صفي لي، فقالت: يا سبحان الله! أنت عارف تكلم بلسان المعرفة تسألني؟ فقال: يحق للسائل الجواب، فقالت: نعم، المحبة عندي لها أول وآخر، فأولها لهج القلب بذكر المحبوب، والحزن الدائم، والتشوق اللازم، فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات، ثم أخذت في الزفير والشهيق وأنشأت تقول:

عَرَفْتُ الهَوى مُذ عَرَفْتُ هواكَ

وأغْلَقْتُ قَلْبي عَلىٰ مَنْ عَاداكْ

وقُمْتُ أُناجِيكَ يا مَن ترىٰ

خَفايا القُلُوبِ ولَسْنا نراكَ

أحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الهَوىٰ

وحُبًّا لأنَّكَ أهْلٌ لذَاك

فأمَّا الذي هُوَ حُبُّ الهَوىٰ

فَشُغْلِي بذِكْرِكَ عَمَّنْ سواكَ

وأمَّا الذي أنْتَ أهلٌ لَهُ

فَلَسْتُ أرىٰ الكَوْن حَتىٰ أراكَ

فلا الحَمْدُ في ذا ولا ذاكَ لي

ولكنْ لكَ الحَمْدُ فِي ذا وذاكَ

ثم شهقت شهقة فإذا هي قد فارقت الدنيا.

وكان كل حوت في فمه صرَّة

قيل إنَّه خرج للحج في سفينة وكان بها غلام معه بضيعة في قفص، ونام ذو النون في جانب من السفينة، حتى أيقظه ركابها فأخبروه بأنَّ الغلام فقد صرَّة بها نقود له ويتهمه بسرقتها إذ إنَّهم فتَّشوا ركابَ السفينة جميعًا فلم يجدوها ولم يبقَ غيره، وسأل ذو النون الغلام: أحقٌّ ما يقولون؟ فأجاب: نعم، فلم يقل ذو النون شيئًا، وإنما انحنى على جانب السفينة فتوضَّأ من النهر وصلى ركعتين، وأشار إلى البحر، فإذا هو ممتلئ بحيتان تتجه كلها نحو السفينة فاغرة أفواهها حتى خاف الركاب على أنفسهم وتمنوا لو أنهم لم يقولوا له شيئًا، وكان كل حوت في فمه صرَّة؛ فأخذ ذو النون واحدة منها أعطاها الغلام، وقال: خذ هذه بدلًا من صرَّتك التي فقدت.

ولم يَرَه ذو النون بعد

كان ذو النون في طريق الحج بأرض الحجاز فانقطع عن الركب وضلَّ الطريق، فلما أجهده السير أوى إلى شجرةٍ في سفح الجبل ليستريح في ظلالها، وحين غابت الشمس وأظلَّه الليل رأى شابًّا يخرج من كهف في الجبل فعمد إلى كومة رمل فركلها بقدمه فانبجست منها عين تبض بالماء

فشرب منها وتوضَّأ ثم قام يصلي، وقام ذو النون من خلفه وهو لا يشعر به فما زال يتابع صلاته حتى انشقَّ عمود الفجر، فنهد الشاب وقال: ذهب الليل بما فيه وأتى النهار بدواهيه، خسر من أتعب جسمه في غير مرضاة ربه.

ولما أخبره ذو النون بنبئه، قال: ويحك وهل يقطع الله مدده عن عباده؟ ثم قال: اتبعني، فتبعه ذو النون فكانت الأرض تطوى طيًّا تحت أقدامهما حتى تراءت لهما القافلة، ودَنَوا منها، فقال له: هؤلاء قومك فالحقْ بهم، ولم يَرَه ذو النون بعد.

ما علمتُ في قلبي موضعًا لغيره

قال ذو النون المصري: وصف لي عابدة من الزهاد ذات علمٍ واجتهادٍ فقصدتها، فإذا هي صائمة النهار، قائمة الليل، لا تفتر عن العبادة ولا تمل من العمل، وهي مقيمة في دير خرب، فلما جن الليل سمعتها تقول: سيدي لا ينام ولا ينبغي له المنام، فكيف الجارية تنام والمخدوم لا ينام، لا وعزتك وجلالك ليس لي في هذه الليلة منام، فلما أصبحت سلمتُ عليها فردَّت عليَّ السلام فقلت لها: يا جارية تسكنين في مساكن النصارى وأنت على هذه الحالة؟ فقالت: يا ذا النون لا تتكلم بمثل هذا الكلام السقيم، وأنت على هذا القدم العظيم، فلا يخطر غير الله في بالك، ولا تتوهم غيره في خيالك، فقلت لها: أما تستوحشين في هذا الدير؟ فقالت: والذي ملأ قلبي من لطيف حكمته وهيَّمني في محبته ما علمتُ في قلبي موضعًا لغيره، ولا في جسدي عرقًا إلا وهو ملآن بمعرفته، فكيف لا أستأنس بذكره وأنا دائمًا في حضرته، فقلت لها: قد أرشدتني إلى الطريق فاسلكي بي مسالك القوم فإنني والله في بحر ذنوبي غريق، فقالت: يا ذا النون اجعل التقوى زادك والآخرة مرادك والزهد والورع مطيتك، واسلك طريق الخائفين واترك طريق المذنبين تكتب في ديوان الموحدين وتلقَ الله تعالى وليس بينك وبينه حجاب ولا يردك عنه بواب، قال ذو النون: فأثَّر كلامها في قلبي، وكان سبب رجوعي إلى ربي، ثم تركتني ومضت وهي تسوح.

ما فقدتُ أنوار شوقي إليك

قال ذو النون المصري: كانت «أم دأب» من كبار الصالحات إلى أن بلغ عمرها تسعين سنة وهي تحج في كل سنة على قدميها من المدينة إلى مكة، فكف بصرها، فلما حضر وقت الحج دخل عليها النساء يزرنها ويتغممن لها في كف بصرها، فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وعزتك لئن فقدتُ نور بصري بين يديك ما فقدتُ أنوار شوقي إليك، ثم أحرمت وقالت: لبيك اللهم لبيك وخرجت مع صواحباتها، فكانت تمشي بين أيديهن فتسبقهن في المسير، قال ذو النون:

فتعجبت من حالها، فهتف بي هاتف: يا ذا النون أتعجب من ضعيفة اشتاقت إلى بيت مولاها فحملها إليه بلطفه وقواها.

صِفْ لي الأبدال

قلت لذي النون المصري: صِفْ لي الأبدال، فقال: إنك لتسألني عن دياجي الظلم، لأكشفنها لك عبد الباري، هم قوم ذكروا الله عز وجل بقلوبهم تعظيمًا لربهم عز وجل، لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل مجاملته، وكساهم حللًا من نسج مودته، ووضع على رءوسهم تيجان مسرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب فهي معلقة بمواصلته، فهمومهم إليه ثائرة، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة. قد أقامهم على باب النظر من قربه، وأجلسهم على كراسي أطباء أهل معرفته، ثم قال: إن أتاكم عليل من فقري فداووه، أو مريض من فراقي فعالجوه، أو خائف مني فآمنوه، أو آمن مني فحذروه، أو راغب في مواصلتي فهنئوه، أو راحل نحوي فرودوه، أو جبان في متاجرتي فشجعوه، أو آيس من فضلي فعدوه، أو راج لإحساني فبشروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو محب لي فواظبوه، أو معظم لقدري فعظموه، أو مستوصفكم نحوي فأرشدوه، أو مسيء بعد إحسان فعاتبوه، ومن واصلكم فيَّ فواصلوه، ومن غاب عنكم فافتقدوه، ومن ألزمكم جناية فاحتملوه، ومن قصَّر في واجب حقي فاتركوه، ومن أخطأ خطيئة فناصحوه، ومن مرض من أوليائي فعودوه، ومن حزن فبشروه، وإن استجار بكم ملهوف فأجيروه.

يا أوليائي لكم عاتبت، وفي إياكم رغبت، ومنكم الوفاء طلبت، ولكم اصطفيت وانتخبت، ولكم استخدمت واختصصت؛ لأنني لا أحب استخدام الجبَّارين، ولا مواصلة المتكبِّرين، ولا مصافاة المخلطين، ولا مجاوبة المخادعين، ولا قرب المعجبين، ولا مجالسة البطَّالين، ولا موالاة الشرهين.

يا أوليائي جزائي لكم أفضل الجزاء، وعطائي لكم أجزل العطاء، وبذلي لكم أفضل البذل، وفضلي عليكم أكثر الفضل، ومعاملتي لكم أوفى المعاملة، ومطالبتي لكم أشد المطالبة، أنا مجتني القلوب، وأنا علام الغيوب، وأنا مراقب الحركات، وأنا ملاحظ اللحظات، أنا المشرف على الخواطر، أنا العالم بمجال الفكر، فكونوا دُعاة إليَّ، لا يفزعكم ذو سلطان سواي، فمن عاداكم عاديته، ومن والاكم واليته، ومن آذاكم أهلكته، ومن أحسن إليكم جازيته، ومن هجركم قليته.

قال الشيخ رحمه الله: وهم الشغفون به وبوده، والكلفون بخطابه وعهده.

وضعُوهُ على أفئدتهم فانفرجتْ

حدثنا أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري قال: إن لله عز وجل لصفوة من خلقه، وإن لله عز وجل لخيرة، فقيل له: يا أبا الفيض، فما علامتهم؟ قال: إذا خلع العبد الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة، وأحب سقوط المنزلة. ثم قال:

منع القرآن بوعده ووعيده

مقل العيون بليلها أن تهجعا

فهموا عن الملك الكريم كلامه

فهما تذل له الرقاب وتخضعا

وقال له بعض من كان في المجلس حاضرًا: يا أبا الفيض، من هؤلاء القوم يرحمك الله؟ فقال: ويحك، هؤلاء قوم جعلوا الركب لجباههم وسادًا، والتراب لجنوبهم مهادًا، هؤلاء قوم خالط القرآن لحومهم ودماءهم، فعزلهم عن الأزواج وحركهم بالإدلاج، فوضعوه على أفئدتهم فانفرجت، وضموه إلى صدورهم فانشرحت، وتصدَّعت هممهم به فكدحت، فجعلوه لظلمتهم سراجًا، ولنومهم مهادًا، ولسبيلهم منهاجًا، ولحجتهم أفلاجًا، يفرح الناس ويحزنون، وينام الناس ويسهرون، ويفطر الناس ويصومون، ويأمن الناس ويخافون، فهم خائفون حذرون، وجلون مشفقون مشمرون، يبادرون من الفوت، ويستعدون للموت، لم يتصغر جسيم ذلك عندهم لعظم ما يخافون من العذاب، وخطر ما يوعدون من الثواب، درجوا على شرائع القرآن، وتخلصوا بخالص القربان، واستناروا بنور الرحمن، فما لبثوا أن أنجز لهم القرآن موعوده، وأوفى لهم عهوده، وأحلهم سعوده، وأجارهم وعيده، فنالوا به الرغائب، وعانقوا به الكواعب، وأمنوا به العواطب، وحذروا به العواقب، لأنهم فارقوا بهجة الدنيا بعين قالية، ونظروا إلى ثواب الآخرة بعين راضية، واشتروا الباقية بالفانية، فنعم ما اتجروا، ربحوا الدارين، وجمعوا الخيرين، واستكملوا الفضلين، بلغوا المنازل بصبر أيام قلائل، قطعوا الأيام باليسير، حذار يوم قمطرير، وسارعوا في المهلة، وبادروا خوف حوادث الساعات، ولم يركبوا أيامهم باللهو واللذات، بل خاضُوا الغمرات للباقيات الصالحات، أوهن والله قوتهم التعب، وغير ألوانهم النصب، وذكروا نارًا ذات لهب، مسارعين إلى الخيرات، منقطعين عن اللهوات، بريئون من الريب والخنا، فهم خرس فصحاء، وعمي بصراء، فعنهم تقصر الصفات، وبهم تدفع النقمات، وعليهم تنزل البركات، فهم أحلى الناس منطقًا ومذاقًا، وأوفى الناس عهدًا وميثاقًا، سراج العباد، ومنار البلاد، مصابيح الدجى، ومعادن الرحمة، ومنابع الحكمة، وقوام

الأمة، تجافت جنوبهم عن المضاجع، فهم أقبل الناس للمعذرة، وأصفحهم للمغفرة، وأسمحهم بالعطية، فنظروا إلى ثواب الله عز وجل بأنفس تائقة، وعيون رامقة، وأعمال موافقة، فحلوا عن الدنيا مطي رحالهم، وقطعوا منها حبال آمالهم، لم يدع لهم خوف ربهم عز وجل من أموالهم تليدًا ولا عتيدًا، فتراهم لم يشتهوا من الأموال كنوزها، ولا من الأوبار خزوزها، ولا من المطايا عزيزها، ولا من القصور مشيدها، بلى، ولكنهم نظروا بتوفيق الله تعالى لهم وإلهامه إياهم، فحركهم ما عرفوا بصبر أيام قلائل، فضموا أبدانهم عن المحارم، وكفوا أيديهم عن ألوان المطاعم، وهربوا بأنفسهم عن المآثم، فسلكوا من السبيل رشاده، ومهدوا للرشاد مهاده، فشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، عزوا عن الرزايا، وغصص المنايا، هابوا الموت وسكراته وكرباته وفجعاته، ومن القبر وضيقه، ومنكر ونكير ومن ابتدارهما وانتهارهما وسؤالهما، ومن المقام بين يدي الله عز ذكره، وتقدست أسماؤه.

والله لا عُدتُ إلى المدن أبدًا

سمعت يوسف بن الحسين، يقول: «كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير، فنظرتُ إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير واقفة، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير، فركبتها العقرب، فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت، فقال ذو النون: إن لهذه العقرب لشأنًا، فامضِ بنا، فجعلنا نقفو أثرها، فإذا رجل نائم سكران، وإذا حية قد جاءت، فصعدت من ناحية سرته إلى صدره، وهي تطلب أذنه، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها، فانقلبت وانفسخت، ورجعت العقرب إلى الغدير، فجاءت الضفدع، فركبتها فعبرت، فحرك ذو النون الرجل النائم، ففتح عينيه، فقال: يا فتى، انظر ممَّ نجاك الله؟ هذه العقرب جاءت، فقتلت هذه الحية التي أرادتك، ثم أنشأ ذو النون يقول:

يا غافلًا، والجليل يحرسه

من كل سوءٍ، يدِبُّ في الظلمِ

كيف تنام العيون عن مَلِك

تأتيه منهُ فوائد النعمِ

فنهض الشاب، وقال: إلهي هذا فعلك بمَن عصاك، فكيف رفقك بمَن يطيعك؟ ثم ولى، فقلت: إلى أين؟ قال: إلى البادية، والله لا عدت إلى المدن أبدًا».

وغابتْ عن النظر

انتهيتُ إلى منظرة عالية هناك، فتوضأتُ ورجعتُ، فوقع نظري على المنظرة، فرأيتُ جارية في غاية الحسن والجمال، أردتُ امتحانها، فقلتُ: لمَن أنتِ يا جارية؟ قالت: يا ذا النون، لمَّا رأيتك بادئ الرأي ظننتك مجنونًا، فلما صرتَ قُربنا ظننتك عالمًا، ثم لمَّا صرتَ أقرب ظننتك عارفًا، والآن تبين الحال، وانكشف الأمر فما أنت بمجنون، ولا عالم، ولا عارف. قلتُ: كيف هذا الشأن؟ قالت: فلو كنتَ مجنونًا ما توضأتَ، ولو كنتَ عالمًا ما نظرتَ إلى غير محرمك، ولو كنتَ عارفًا ما نظرتَ إلى غير الله، وما التفتَّ إلى ما سوى الحق، جل وعلا. قالت هذا الكلام، وغابت عن النظر.

لا أَدْعُو عَلَى أَحَدٍ بَعْدَهَا

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ الفَرْخِيّ: كُنْت مَعَ ذِي النُّوْنِ فِي زَوْرَقٍ، فَمَرَّ بِنَا زَوْرَقٌ آخَرُ، فَقِيْلَ لِذِي النُّوْنِ: إِنَّ هَؤُلاءِ يَمُرُّوْنَ إِلَى السُّلْطَانِ يَشْهَدُوْنَ عَلَيْكَ بِالكُفْرِ.

فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانُوا كَاذِبِيْنَ، فَغَرِّقْهُم.

فَانْقَلَبَ الزَّوْرَقُ، وَغَرِقُوا، فَقُلْتُ لَهُ: فَمَا بَالُ المَلَّاحِ؟

قَالَ: لِمَ حَمَلَهُم وَهُوَ يَعلَمُ قَصْدَهُم؟ وَلأَنْ يَقِفُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ غَرْقَى، خَيْرٌ لَهُم مِنْ أَنْ يَقِفُوا شُهُوْدَ زُوْرٍ.

ثُمَّ انْتَفَضَ، وَتَغَيَّر، وَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لا أَدْعُو عَلَى أَحَدٍ بَعْدَهَا.

يا مجنون ائتمنتك في فأرة فخُنتني

عن يوسف بن الحسين قال: بلغني أن ذا النون يعلم اسم الله الأعظم فخرجت من مكة قاصدًا إليه حتى وافيته في جيزة مصر، فأول ما بصر بي ورآني وأنا طويل اللحية وفي يدي ركوة طويلة، متزر بمئزر على كتفي، فاستشنع منظري فلما سلمت عليه كأنه ازدراني، ولم أرَ منه تلك البشاشة، فقلت في نفسي: ما تدري مع من وقعت؟ فقال: فجلست ولم أبرح من عنده فلما كان بعد يومين أو ثلاثة جاءه رجل من المتكلمين فناظره في شيء من الكلام فاستظهر على ذي النون، فاغتنمت ذلك وبركت بين يديهما واستلبت المتكلم إليَّ وناظرته حتى قطعته. ثم ناظرته بشيء لم يفهم كلامي قال: فتعجب ذو النون - وكان شيخًا وأنا شاب - قال فقام من مكانه وجلس بين يدي وقال: اعذرني فإني لم أعرف محلك من العلم، وأنت آثر الناس عندي.

قال فما زال بعد ذلك يجلني ويكرمني ويرفعني عن جميع أصحابه حتى بقيت على ذلك سنة

فقلت له بعد ذلك: يا أستاذ أنا رجل غريب وقد اشتقت إلى أهلي وقد خدمتك سنة وقد وجب حقي عليك؛ وقيل لي إنك تعرف اسم الله الأعظم وقد جربتني وعرفت أني أهل لذلك، فإن كنت تعرفه فعلمني إياه. قال: فسكت ذو النون عني ولم يجبني بشيء وأوهمني أنه لعله يقول لي ويعلمني ثم سكت عني ستة أشهر فلما كان بعد ستة أشهر من يوم مسألتي إياه قال لي: يا أبا يعقوب أليس تعرف فلانًا صديقنا بالفسطاط الذي يجيئنا؟ وسمَّى رجلًا، فقلت: بلى، قال: فأخرج إليَّ من بيته طبقًا فوقه مكبة مشدودة بمنديل فقال لي: أوصل هذا إلى مَن سميت لك بالفسطاط.

قال فأخذت الطبق فإذا طبق خفيف يدل على أن ليس في جوفه شيء، فلما بلغت الجسر الذي بين الفسطاط والجيزة قلت في نفسي: ذو النون يوجه إلى رجل بهدية وهذا أرى طبقًا خفيفًا لأبصرن أي شيء فيه. قال: فحللتُ المنديل ورفعتُ المكبة فإذا فأرة قد قفزت من الطبق فمرت. قال: فاغتظت وقلت إنما سخر بي ذو النون ولم يذهب وهمي إلى ما أراد في الوقت. قال: فجئت إليه وأنا مغضب فلما رآني تبسم وعرف القصة، وقال: يا مجنون ائتمنتك في فأرة فخنتني.. أأتمنك على اسم الله الأعظم؟ قم عني فارتحل ولا أراك بعد هذا.

أنتَ جاسوس

صلى بأهل طَرَسُوس (هي مدينة تركية تقع جنوب البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط، تابعة لمحافظة مرسين، وتبعد حوالي خمسة عشر كيلو مترًا عن مدينة مرسين و أربعين كيلو مترًا عن مدينة أضنة) الغداة، فوقع النفير وصاحوا، فلم يُخَفف الصلاة، فلما فرغوا قالوا: «أنت جاسوس» قال: «وكيف ذاك؟» فقالوا: «صاح النفير ولم تخفف». فقال: «إنما سُميت صلاة لأنها اتصال بالله تعالى، وما حسبت أن أحدًا يكون في الصلاة، فيقع في سمعه غير ما يخاطب الله به».

فأخذ ضرسه ووضعه في مكانه وقرأ عليه

روى ابن باكويه في كتاب «أخبار العارفين» عن أبي العباس قال: كنتُ مارًّا بمصر، فرأيت حلقة، فإذا برجل تعلق بآخر، والدم يسيل على ثيابه، فوقف عليهم ذو النون، وقال: ما لك؟ قال: هذا كسر ضرسي، فأخذ ضرسه ووضعه في مكانه وقرأ عليه؛ فإذا بالضرس كما كان، فلما تفرق الناس عنه تعلقت به، وقلت: أرى معك اسم الله الأعظم، فقال: تنحَّ عني، فقلت:
لا أفارقك أو تعلمنيه، فأقبل عليَّ وقال: يا هذا، إذا رق قلبك فادع بما شئت، فذاك اسم الله الأعظم.

ارمِ قشورَ الموز

وعن أبي عبد الله بن الجلاء قال: كنت مع ذي النون بمكة، فجعنا أيامًا، فقام يومًا ذو النون قبل الظهر، فصعد الجبل للطهارة، وأنا معه أحمل الماء، فرأيت قشور الموز في الوادي، فأخذت قطعتين أو ثلاثًا، فقلت: إذا تباعد الشيخ للطهارة آكل هذا، فلما صعدنا الجبل وتباعدنا عن الناس، قال: ارمِ قشور الموز. فرميت، فمضى وفرغ من وضوئه، ورجعنا إلى المسجد وصلينا وجلسنا، وإذا بشاب يجيء ومعه طبق، فقال له الشيخ: اتركه. ثم قال لي: كُلْه. قلت: وحدي؟ فقال: أنت طلبته، وأنا لم أطلبه، فأكلت وحدي وأنا خَجِلٌ.

ثم صرخ صرخةً وفارقَ الدّنيا

يقول أحد رفاق ذي النون المصري: بينما أنا سائرٌ مع ذي النون في جبل لبنان إذ قال لي: مكانك يا سالم حتى أعود إليك.. فغاب عني في الجبل ثلاثة أيام وأنا أنتظره، إذا هاجت عليَّ النفس أطعمتها من نبات الأرض وسقيتُها من ماء الغدران. ولمَّا كان بعد الثالث رجع إليَّ متغير اللون، ذاهب العقل، فقلتُ له بعد أن رجعت إليه نفسه: يا أبا الفيض أتعرضتَ لأحد السباع. فقال: لا. دعني من تخويف البشرية، إنني دخلتُ كهفًا من كهوف هذا الجبل، فرأيتُ رجلًا أبيض الرأس واللحية، أشعث أغبر نحيفًا نحيلًا، وهو يُصلي، فسلّمت عليه بعدما سلّم من الصلاة، فرَدَّ السلام وقام إلى الصّلاة، فما زال راكعًا وساجدًا حتى صلى العَصر، ثم استند إلى حجر، وجعل يُسَبِّح الله ولا يُكلمني، فقلت له: رحمك الله، ادْعُ اللهَ عزّ وجلّ لي؟

فقال: آنَسَك اللهُ بقُرْبِه.

فقلت له: زِدْنِي؟

فقال: يا بُنَي، مَن آنَسَه اللهُ بِقُرْبِه أعطاه أربَعَ خِصَال:

عِزًّا مِن غير عشِيرَة. وعِلمًا من غير طلب. وغِنًى من غير مال. وأنسًا من غير جماعة.

ثم شَهِقَ شَهقةً فلم يُفِق إلا بعد ثلاثةِ أيام، ثم قام فتوضَّأ، وسألني: كم فاته من صلاة؟ فأخبرته.

فقال: إن ذِكرَ الحَبيب هَيَّجَ شَوْقِي

ثمّ حُبَّ الحبيبِ أذْهَلَ عَقلي

وقد استوحَشتُ من مُلاقاة المخلوقين، وأنِست بربّ العالَمين، انصَرِف عني بسلام.

فقلتُ له: يرحمك الله، وقَفتُ عليك ثلاثة أيام رجاءَ الزيادة، وأريد موعِظةً منك؟ وبكيت.

فقال: أحبب مولاك، ولا تُرِد بحبِّه بَدلًا؛ فالمحبّون لله تيجان العِباد، وعلم الزّهّاد، وهم أصفياء الله

وأحبّاؤه، وعبادُه وأولياؤه.

ثم صرخ صرخةً وفارقَ الدُّنيا، فما كان إلا هنيهة، فإذا نحن بجماعة من العباد ينحدِرون من الجبل، فتولوه حتى واروه تحت التراب.

فسألتُ ما اسم هذا الشيخ؟ فقالوا: شيبان المُصاب.

(يقول صاحب ذي النون: فسألتُ أهل الشام عنه فقالوا: كان مجنونًا خرج من أذى الصبيان، قلت: تعرفون من كلامه شيئًا؟ قالوا: نعم، كلمة واحدة كان يغني بها إذا ضجر: إذا بك لم أُجن يا حبيبي فبمَن؟).

ودار السَّرير

حُكِي عن أبي جعفر الأعور أنه قال: كنتُ عند ذي النون المصري، فتذاكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء، فقال ذو النون: من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور في أربع زوايا البيت، ثم يرجع مكانه، فيفعل، قال: فدار السرير في أربع زوايا البيت، وعاد إلى مكانه، وكان هناك شاب فأخذ يبكي حتى مات في الوقت.

الشَّوقُ يُورِّثُ السقام

يروى أن ذا النون سأل امرأة، متى يحوي الهموم قلب المحب؟

قالت: إذا كان للتذكار مجاورًا وللشوق محاضرًا، يا ذا النون أما علمت أنَّ الشوق يورثُ السقام، وتجديد التذكار يورث الأحزان، ثم أنشأت تقول:

لم أذق طعم وصلك حتى

زال عني محبتي للأنام

فأجابها ذو النون:

نعم المحب إذا تزايد وصله

وعلت محبته بعقب وصال

فقالت: أوجعتني، أما علمت أنه لا يبلغ إليه إلا بترك مَن دونه.

وفي روايةٍ أخرى، قال ذو النون: خرجتُ حاجًّا إلى بيت الله الحرام.. فبينما أنا بالطواف إذ بشخصٍ متعلقٍ بأستار الكعبة، وإذا هو يبكي ويقول في بكائه: «كتمت بلائي عن غيرك، وبحت

بسري إليك، واشتغلت بك عمَّن سواك.. عجبت لمَن عرفكَ كيف يسلو عنك، ولمَن ذاق حبك كيف يصبر عنك؟».. ثم أنشأ يقول:

ذَوَّقتني طيب الوصال فزدتني

شوقًا إليك مُخامر الحَسَراتِ

ثم أقبل على نفسه فقال: «أمهلك فما ارعويت، وستر عليك فما استحييت، وسلبك حلاوة المناجاة فما باليت».

قال: فلم أتمالك أن أتيت الكعبة مستخفيًا، فلمَّا أحسَّ تجلَّل بخمارٍ كان عليه ثم قال: «يا ذا النون، غُض بصرك من مواقع النظر؛ فإني حرام».. فعلمت أنها امرأة.

ثم أنشأتْ تقول:

لم أذق طعم وصلك حَتَّى

زال عَني مَحَبَّتي للأنام

ثم قالت: «أوجعتني أما علمت أنه لا يبلغ إليه إلا بترك مَن دونه»..

وهل يأسفُ العارفُ على شيء؟

قال ذو النون: رأيتُ في سياحتي شيخًا، فقلت:

كيف الطريقُ إلى الله؟ قال: «دَع طريق الخلاف والاختلاف». قلت: أليس اختلاف العلماء رحمة؟

قال: «إلا في تجريد التوحيد».

قلت: ما تجريده؟

قال: «فقدان رؤية ما سواه لوجدانه».

قلت: أوليس مَن عرف الله طال هَمُّه؟

قال: «بل مَن عرفه زال همه».

قلت: هل يكون العارف مسرورًا؟

قال: «وهل يكون محزونًا؟».

قلت: أليس مَن عرف الله صار مستوحشًا؟

قال: «معاذ الله، بل يكون مهاجرًا متجددًا».

قلت: وهل يأسف العارف على شيء غير الله تعالى؟

قال: «وهل يعرف الله فيأسف عليه».

قلت: وهل يشتاق إلى ربه؟

قال: «وهل يغيب عنه طرفة عين حتى يشتاقه؟»

قلت: ما اسم الله الأعظم؟

قال: «أن تقول الله وأنت تَهَابه».

قلت: كثيرًا ما أقوله ولا تداخلني هيبة.

قال: «لأنك تقول الله من حيث أنت، لا من حيث هو».

قلت: عِظني.

قال: «حَسبُكَ من الموعظة عِلمُكَ بأنه يراك».

قلت: فما تأمرني؟

قال: «لاطِّلاعه عليك في كل أحوالك؛ لا تَنسَهُ».

فالتفتُّ فلم أرَهُ

بينما أنا أسيرُ في نواحي الشام إذ وقعتُ على روضةٍ خضراء، وإذا بشاب يصلي تحت شجرة تفاحٍ، فتقدمتُ إليه، فسلمتُ، فأوجز في صلاته ولم يرد، ثم كتب بإصبعه في الأرض:

مُنِعَ اللسانُ من الكلامِ لأنهُ

سببُ الفسادِ وجالبُ الآفاتِ

فإذا نطقتَ فكُن لربكَ ذاكرًا

وإذا سكتَّ فعُدَّ موتَكَ آتِ

قال: فبكيتُ، وكتبتُ بإصبعي في الأرض:

وما مِن كاتبٍ إلا سيَبلَى

ويُبْقِي الدهرُ ما كَتَبَتْ يَداهُ

فلا تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غيرَ شيءٍ

يَسُرُّكَ في القيامةِ أنْ تَراهُ

فصاح الشاب فمات، فقمتُ لأجهِّزَه وأدفنه، وإذا بقائلٍ: خلِّ عنه فإنَّ الله وعده ألا يتولاه إلا ملائكته، فالتفتُّ فلم أره.

شربتُ البارحة كأسَ المحبة

قال ذو النون: رأيتُ على شاطئ البحر جاريةً مكشوفة الرأس مسفرة، قلت لها استري وجهك بخمار، قالت: وما يصنع الخمار بوجهٍ علاه الاصفرار، إليك عني يا بطّال، فإني شربت البارحة كأس المحبة مسرورة، فأصبحت اليوم من حُبّه مخمورة.

فقلت: أوصيني، قالت: عليك بالسكوت، ولزوم البيوت، وارضَ بالقوت حتى تموت.

ثم سكَتَ فلم أسمع لهُ صوتًا

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ، ثنا أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عِيسَى الْوَشَّاءُ، ثنا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ، قَالَ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ، يَقُولُ: «خَرَجْتُ فِي طَلَبِ الْمُنَاجَاةِ، فَإِذَا أَنَا بِصَوْتٍ فَعَدَلْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا أَنا بِرَجُلٍ قَدْ غَاصَ فِي بَحْرِ الْوَلَهِ وَخَرَجَ عَلَى سَاحِلِ الْكَمَهِ، وَهُوَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ مَعَ الْإِصْرَارِ لُؤْمٌ وَأَنَّ تَرْكِي الِاسْتِغْفَارَ مَعَ مَعْرِفَتِي بِسِعَةِ رَحْمَتِكَ لَعَجْزٌ، إِلَهِي أَنْتَ الَّذِي خَصَّصْتَ خَصَائِصَكَ بِخَالِصِ الْإِخْلَاصِ، وَأَنْتَ الَّذِي سَلَّمْتَ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ مِنِ اعْتِرَاضِ الْوَسْوَاسِ، وَأَنْتَ آنَسْتَ الْآنِسِينَ مِنْ أَوْلِيَائِكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ كِفَايَةَ رِعَايَةِ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ تَكْلَؤُهُمْ فِي مَضَاجِعِهِمْ وَتَطَّلِعُ عَلَى سَرَائِرِهِمْ، وَسِرِّي عِنْدَكَ مَكْشُوفٌ وَأَنَا إِلَيْكَ مَلْهُوفٌ.

قَالَ: ثُمَّ سَكَنَتْ صَرْخَتُهُ فَلَمْ أَسْمَعْ لَهُ صَوْتًا».

صحبتُ زنجيًّا في التيه

قال ذو النون: صحبتُ زنجيًّا في التيه، فكان إذا ذكر الله ابيض، فورد على أمرٍ عظيم، فسألته، فأنشد:

ذكرنا وما كُنا نسينا فنذكرُ

ولكن نسيم القربِ يبدو فيظهرُ

ثم قال أيضًا:

أنتَ في غفلةٍ وقلبك ساهِ
نفد العمرُ والذنوبُ كما هي
جمة أحصيت عليك جميعًا
في كتابٍ.. وأنتَ عن ذاك لاهِ
لم تبادر بتوبةٍ منكَ حتَّى
صرتَ شيخًا فحبلكَ اليوم واهِ
فاجتهد في فكاك نفسك واحذر
يوم تبدو السمات فوق الجباهِ

قال ذو النون: «فما طرق سمعي مثل حكمة ذلك الزنجي، فعلمت أنَّ لله تعالى عبادًا تعلو قلوبهم بالأذكار كما تعلو الأطيار في الأوكار، فلو فتشت منهم القلوب لما وجدت فيها غير حب المحبوب».

استلبها الولَهُ

رأيت في تيه بني إسرائيل سوداء قد استلبها الوله من حب الرحمن، شاخصةً ببصرها نحو السماء، فقلت: السلام عليك يا أختاه، قالت: وعليك السلام يا ذا النون، قلت: من أين عرفتني؟

قالت: إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفيْ عام، ثم أدارها حول العرش. فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، فعرفت روحي روحك في ذلك الجولان.

قلت: أراكِ حكيمة، فعلميني ممَّا علمك الله.

قالت: يا أبا الفيض، ضع على جوارحك ميزان القسط: حتى يذوب كل ما كان لغير الله. ويبقى القلب نقيًّا لا شيء فيه غيره، فحينئذ يقيمك على الباب. ويوليك ولاية جديدة، ويأمر الخزان لك بالطاعة.

قلت: زيديني.

قالت: خذ من نفسك لنفسك، وأطع الله إذا خلوت. يُجبك إذا دعوت، والسلام».

ثم تركني ومضى

قال ذو النون: «كنتُ في جبل الشام فرأيتُ رجلًا قاعدًا مطرقًا فقلت: ما تصنع هنا؟

قال: أنظر وأرعى.

قلت: ما أرى عندك إلا الأحجار فما الذي تنظره وترعاه؟

فنظر إليَّ مغضبًا، وقال: أنظر خواطر قلبي، وأرعى أوامر ربي، فبحق مَن أطلعك عليَّ إلا رحت عني.

قلت: كلمني بشيء أنتفع به وأذهب.

قال: «مَن لزم الباب أثبت من الخدم، ومَن أكثر ذكر الذنوب أعقبه كثرة الندم، ومَن استغنى بالله أمن من العدم».. ثم تركني ومضى.

لا تلهيهم تجارة

وقال: «رأيت بسواحل الشام امرأة، فقلت: من أين أقبلت؟

قالت: من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

قلت: وإلى أين؟

قالت: إلى قوم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وصاح صيحة كانت فيها نفسه

قال ذو النون: «وصف لي رجل باليمن قد برز على الخافقين، وسما على المجتهدين، وذكر لي بالحكمة، ووصف لي بالتواضع والرحمة، فخرجت حاجًّا، فلما قضيت نسكي مضيت إليه لأسمع من كلامه، وأنتفع بمواعظه أنا وأناس كانوا معي يطلبون منه مثل ما أطلب، ومعنا شاب عليه سيماء الصالحين، فخرج إلينا، فجلسنا إليه، فبدأ الشاب بالسلام عليه، وصافحه، فأبدى له الشيخ البشر والترحيب، فسلمنا عليه جميعًا، ثم بدأ الشاب بالكلام فقال: إن الله بمنِّه وفضله قد جعلك طبيبًا لسقام القلوب، ومعالجًا لأوجاع الذنوب، ولي جرح قد تفل، وداء قد استكمل، فإن رأيت أن تتلطف لي ببعض مراهمك، وتعالجني برفقك.

فقال له الشيخ: ما بدا لك؟

فقال له الشاب: يرحمك الله، ما علامة الخوف من الله تعالى؟

فقال: أن يؤمنه خوفه من كل خوف غير خوفه.

ثم قال: يرحمك الله، متى يتيسر للعبد خوفه من الله؟

قال: إذا أنزل نفسه من الدنيا بمنزلة السقيم فهو يحتمي من أكل الطعام مخافة السقام، ويصبر على مضض كل دواء مخافة طول الضنا.

قال: فما علامة المحب لله ؟

قال: إن درجة الحب درجة رفيعة.

قال: صفها لي؟

قال: إن المحبين لله شق لهم عن قلوبهم، فأبصروا بنور القلوب إلى عز جلال الله، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم له، لا طمعًا في جنته، ولا خوفًا من ناره.

قال: فشهق الفتى وصاح صيحة كانت فيها نفسه».

ثم غابت عني فلم أرها

حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، ثنا أبو بكر الدينوري، ثنا محمد بن أحمد الشمشاطي، قال: سمعت ذا النون، يقول: «بينا أنا سائر على شاطئ نيل مصر إذا أنا بجارية، عليها دباء شعث الكلال، وإذا القلب منها متعلق بحب الجبار، وهي منقطعة في نيل مصر وهو يضطرب بأمواجه، فبينا هي كذلك إذ نظرت إلى حوت ينساب بين الوجبتين فرمت بطرفها إلى السماء وبكت، وأنشأت تقول: لك تفرَّد المتفردون في الخلوات، ولعظيم رجاء ما عندك سبح الحيتان في البحور الزاخرات، ولجلال هيبتك تصافقت الأمواج في البحور المستفحلات، ولمؤانستك استأنست بك الوحوش في الفلوات، وبجودك وكرمك قصد إليك يا صاحب البر والمسامحات، ثم ولت عني، وهي تقول:

يا مؤنس الأبرار في خلواتهم

يا خير من حطَّت به النزال

من نال حبك لا ينال تفجعًا

القلب يعلم أن ما يفنى محال

ثم غابت عني فلم أرها، فانصرفت وأنا حزين القلب، ضعيف الرأي».

2- الإشارات:

- الصُّوفِي هو: «مَن إِذا نطق أبان نطقه عَن الْحَقَائِق، وَإِن سكت نطقت عَنهُ الْجَوَارِح بِقطع

العلائق».

- مَهْمَا تَصَوَّرَ فِي وَهْمِكَ، فَاللهُ بِخِلافِ ذَلِكَ.

- المحبون (وفي رواية أخرى المجنون) في الدنيا على أربع طبقات: منهم إذا ذكر حبيبه أنَّ، ومنهم إذا ذكر حبيبه حنَّ، ومنهم إذا ذكر حبيبه رَنّ، ومنهم إذا ذكر حبيبه جُنَّ.

- إذا صحَّت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح.

- كيف لا أبتهج بك سرورًا، وقد كنت أكدح ببابك؛ حتى جعلتني من أهل التوحيد.

- ذبحهم الليل بسكاكين السهر.

- سُئل ذو النون: لم أحب الناس الدنيا؟ قال: «لأن الله تعالى جعلها خزانة أرزاقهم فمدوا أعينهم إليها».

- ثلاثة موجودة، وثلاثة مفقودة: العلم موجود، والعمل به مفقود، والعمل موجود، والإخلاص فيه مفقود، والحب موجود، والصدق فيه مفقود .

- ما أكلتُ طعامَ امرئٍ بخيلٍ ولا منَّانٍ إلَّا وجدتُ ثقله على فؤادي أربعين صباحًا.

- سُئل ذو النون: مَن أدوم الناس عناءً؟ قال: أسوؤهم خلقًا. قيل: وما علامة سوء الخلق؟ قال: كثرة الخلاف.

- سُئِلَ ذَو النُّونِ عَنِ الْمَحَبَّةِ، فَقَالَ: قُرْبُ الْقَلْبِ مِنَ الْمَحْبُوبِ عَلَى الطُّمَأْنِينَةِ وَالشُّكُورِ.

- المعرفة: إنها على ضروب ثلاثة: هي معرفة العامة، ومعرفة المتكلمين والحكماء، ومعرفة الخاصة من الأولياء والمقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم، وهي أسمى وأيقن لأنها لا تحصل عن التعلم والكسب والاستدلال ولكنها إلهام يفيضه الله على قلب عبده، وعنده أن بين الرب والعبد حبًّا متبادلًا، ومَن ذاق الحب الإلهي عرف الذات الإلهية وتحقيق وحدانيتها وأصبح من العارفين المقربين.

- قِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَقْرَبُ إِلَى الْكُفْرِ؟ قَالَ: ذُو فَاقَةٍ لا صَبْرَ لَهُ.

- مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ حُكْمٌ لا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى أَحَدٍ.

- الْأُنس بِاللَّه نور سَاطِع والأُنس بالخلق غم وَاقع.

- مَنْ جَهِلَ قَدْرَهُ هَتَكَ سِتْرَهُ.

- مَنْ رَاقَبَ الْعَوَاقِبَ سَلِمَ.

- بِأَوَّلِ قدمٍ تطلبه تُدْرِكهُ وتجده.

- مَن لم يتأدَّب بأستاذٍ فهو بطَّال.

- اطلب دواءك ممَّن ابتلاك.

- الصدْق سيف الله فِي أرضه، مَا وضع على شَيْء إِلَّا قطعه.

- مَن تزين بِعَمَلِهِ كَانَت حَسَنَاته سيئات .

- الْخَوْف رَقِيب الْعَمَل والرجاء شَفِيع المحن .

- مِفْتَاح الْعِبَادَة الفكرة، وعلامة الْهوى مُتَابعَة الشَّهَوَات، وعلامة التَّوَكُّل انْقِطَاع المطامع .

- الاستئناس بالناس علامةٌ من علامات الإفلاس.

- كَانَ الرجل من أهل الْعلم يزْدَاد بِعِلْمِهِ بغضًا للدنيا وتركا لَهَا وَالْيَوْم يزْدَاد الرجل بِعِلْمِهِ للدنيا حبًّا وَلها طلبًا وَكَانَ الرجل مَاله على علمه وَالْيَوْم تكسب الرجل بِعِلْمِهِ مَالًا وَكَانَ يرى على صَاحب الْعلم زِيَادَة فِي بَاطِنه وَظَاهره وَالْيَوْم يرى على كثير من أهل الْعلم فَسَاد الْبَاطِن وَالظَّاهِر .

- صدور الأحرار قبور الأسرار.

- شغلي بنفسي استغرق وقتي.

- مَن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته.

- عن يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون يقول: العطايا مواهب، والطاعات مكاسب، والناس رجلان: دارج وواصل. فالدارج سائر على طريق الإيمان. والواصل: طائر بقوة المعرفة، ولكل دليل. فدليل الإيمان: العلم. ودليل المعرفة: الله تعالى، فمتى يلحق السائر الطائر؟

- وقال: وسمعته يقول: «مَن وثق بالمقادير استراح، ومَن صحح استراح، ومَن تقرب قرب، ومَن صفى صفي له، ومَن توكل وفق، ومَن تكلف ما لا يعنيه ضيع ما يعنيه».

- علامة السعادة ثلاث: متى ما زِيدَ في عُمره نقص من حِرصه، ومتى زِيدَ في ماله زِيدَ في سخائه، ومتى زِيدَ في قَدْره زِيدَ في تواضعه. وعلامة الشقاء ثلاث: متى ما زِيدَ في عمره زِيدَ في حِرصه، ومتى ما زِيدَ في ماله زِيدَ في بُخله، ومتى ما زِيدَ في قَدْره زِيدَ في تَجَبُّره وقهرِه وتكبُّره.

- ثَلَاثُ خِصَالٍ مِنَ الْكَرَمِ حُسْنُ الْمَحْضَرِ، وَاحْتِمَالُ الزَّلَّةِ، وَقِلَّةُ الْمَلَامَةِ.

- وقال: أمَا إنّه من الحمق التماس الإخوان بغير الوفاء، وطلب الآخرة بالرئاسة، ومودة النساء بالغلظة.

- مَن ذبح حنجرة الطمع بسيف اليأس، وردم خندق الحِرص، ظَفِر بكيمياء الخدمة. ومَن استقى بحبل الزُّهد على دَلْو العروق استقى من جُبِّ الحكمة، ومَن سلك أودية الكَمَد جَنَى حياةَ الأبد، ومَن حصد عُشب الذنوب بمنجل الورع أضاءت له روضة الاستقامة، ومَن قطع لسانه بشفرة الصمت وجد عذوبة الراحة، ومَن تدرّع دِرع الصدق قوِيَ على مجاهدة عسكر الباطل، ومَن فرح بمدحة الجاهل ألبسَه الشيطانُ ثوبَ الحماقة.

- لا يشغلنك عيوب الناس عن عيب نفسك، لستَ عليهم برقيبٍ، ثم قال: إنَّ أحبَّ عباد الله أعقلهم عنه، وإنما يُستدلُّ على تمام عقل الرجل وتواضعه بحسن استماعه للمُحدِّث، وإن كان به عالمًا، وسرعة قبوله للحق، وإن كان ممَّن دونه، وإقراره على نفسه بالخطأ وإذا جاء منه.

- جميعُ الأشياء لا تُدْرَكُ إلا بالعقل.

- مَن نظر في عيُوب الناس، عمي عن عيُوب نفسه، ومَن عني بالفردَوْس والنار شُغِل عن القيل والقال، ومَن هربَ من الناس سلم من شرِّهم، ومَن شكرَ المزيدَ زِيد له.

- لو أنَّ الخلق عرفوا ذُلَّ أهل المعرفة في أنفسهم لحثوا التراب على رءوسهم وفي وجوههم، فقال رجل كان حاضرًا في المجلس «رجل مؤيد»، فذكرت ذلك لطاهر المقدسي فقال: سقى الله أبا الفيض، حقًّا ما قال، ولكني أقول: لو أبدى الله نور المعرفة للزاهدين والعابدين، والمحتجين عنه بالأحوال لاحترقوا واضمحلوا، وتلاشوا حتى كأن لم يكونوا.

- ما أعز الله عبدًا بعز هو أعز له من أن يذله على ذل نفسه، وما أذل الله عبدًا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه.

- مَن ادَّعى مقامًا حُجِبَ به عن الله.

- ليس عندي بذي لُبٍّ مَن داسَ في أمر دُنياه وحمق في أمر آخرته، ولا مَن سفَّه في مواطن حُلمه، ولا مَن تكبَّر في مواطن تواضعه، ولا مَن فقدت منه التقوى في مواطن طمعه، ولا مَن غضب من حقّ إنْ قيل له، ولا مَن زهد فيما يرغبُ العقلاءُ فيه، ولا مَن رغب فيما يزهدُ الأكياسُ في مثله، ولا مَن استقل الكثير من خالقه، واستكثر قليل الشُّكر من نفسه، ولا مَن طلب الإنصافَ من غيره لنفسه، ولم ينصف من نفسه غيره، ولا مَن نسي الله في مواطن طاعته، وذكر الله في مواضع الحاجة إليه، ولا مَن جمع العلم فعُرِفَ به ثم آثر عليه هواه عند مُتعلّمه، ولا مَن قلَّ منه

الحياءُ من الله على جميل ستره، ولا مَن عقل الشُّكر عند إظهار نعمه، ولا مَن عجز عن مُجاهدة عدو لنجاته إذ صبر عدوه على مُجاهدته، ولا مَن جعل مُروءته لباسه، ولم يجعل أدبه وورعه وتقواه لباسه، ولا مَن جعل علمه ومعرفته تظرُّفًا وتزيُّنًا في مجلسه، ثم قال ذو النون: أستغفر الله إنَّ الكلام كثير، وإن لم تقطعه لم ينقطع وقام به.

- قال ذو النون: قلتُ لرجلٍ من العباد أوصني. فقال: عليك بمعاقبة نفسك إذا دعتك إلى بلية، ومنابذتها إذا دعتك إلى الفترة؛ فإن لها مكرًا وخداعًا، فإذا فعلت هذا الفعل؛ أغناك عن المخلوقين، وسلاك عن مجالسة الفاسقين.

- تَوَسَّدُوا المَوْتَ إِذَا نِمْتُمْ، وَاجْعَلُوهُ نُصْبَ أَعْيُنِكُمْ إِذَا قُمْتُمْ، كونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا، ولا بُدَّ لكم من الآخرة.

- مَن طلب مع الخبز ملحًا لم يفلح في طريق القوم.

- قال ذو النون لرجلٍ عند توديعه: لا تكُن خصمًا لنفسك على ربك مستزيده في رزقك وجاهك، ولكن خصمًا لربك على نفسك، ولا تلقين أحدًا بعين الازدراء والتصغير وإن كان مشركًا؛ خوفًا من عاقبتك وعاقبته؛ فلعلك تسلب المعرفة ويرزقها..

- ثلاثٌ من علامات الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء.

- مَن قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه.

- مَن وثق بالمقادير لم يغتم.

- قال يوسف بن الحسين الرازي: سمعت ذا النون المصري يقول: أنا أسير قدرتك؛ فاجعلني طليق رحمتك.

- ثلاثٌ من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامَّة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة .

- أدب العارف فوق كل أدب؛ لأن معروفه مؤدب قلبه.

- سمعتُ أشياخنا يقولون: إذا عرض لك أمران لا تدري في أيهما الرشاد فانظر إلى أقربهما إلى هواك فخالفه، فإن الحق في مخالفة الهوى .

- ذُكِرَ الشَّوقُ عند ذي النون فقال: لا يسكُنُ جارحةً إلا تركهَا رميمًا.

- ما العيشُ عندي إلا عيشُ المُشتاقين لأنهم ما داموا محبِّين مجرَّدين عن لباس الشَّوق فهم مكدُودون حتى إذا تدرَّعوا خِلَعَ الشَّوقِ طاشت همُومهم، ورتعوا في رياضِ السُّرور، ورُفعتْ عنهم المكابدات.

- بِحُسن الصوت تُستَمالُ أعنَّة الأبصار.

- الحكمةُ تُورِّثُ النظرَ في العواقب.

- منْ جَهِلَ قدره هتك ستره.

- قَالَ ذُو النُّون: مَن أنس بالخلق فقد استمكن من بِسَاط الفراعنة، وَمن غيب عَن مُلَاحظَة نَفسه فقد استمكن من الْإِخْلَاص، وَمَن كَانَ حَظه فِي الْأَشْيَاء هُوَاه لَا يُبَالِي مَا فَاتَهُ مِمَّا هُوَ دونه.

- ما خلع الله على عبد خلعة أحسن ولا أشرف من العقل، ولا قلده قلادة أجمل من العلم، ولا زينه بزينة أفضل من الحلم، وكمال الخلق، فمَن أدرك طريق الآخرة، فليكثر مساءلة الحكماء، ومشاورتهم، وليكن أول شيء يسأل عنه: العقل؛ لأن جميع الأشياء لا تدرك إلا بالعقل.

- قال ذو النون: مَن تطأطأ لقط رطبًا، ومَن تعالى لقي عطبًا.

- أكثر الناس إشارة إلى الله في الظاهر أبعدهم من الله.

- حرمة الجليس أن تَسُرَّه فإن لم تسُرّه فلا تسوءه.

- مَن لم يكُن له على نفسه حَكَم لا يحلُّ له أن يحكُمَ على أحدٍ.

- كل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش، وكل محب ذليل، وكل خائف هارب، وكل راج طالب .

- إن الطبيعة النقية هي التي يكفيها من العظمة رائحتها، ومن الحكمة إشارة إليها .

- الحُبُّ ينطق، والحياءُ يُسْكِتُ، والخوف يقلقُ، والمُحبُّ بين هذه الثلاثة هالكٌ، وهذا من باب تعب المحبّ.

- الشَّوقُ مِفتاحُ باب المحبَّة، واللسانُ مِفتاحُ باب الشَّوق.

- سأل رجل ذا النون المصري عن سؤال فقال له ذو النون: قلبي لك مقفل فإن فتح لك أجبتك، وإن لم ينفتح لك فاعذرني واتهم نفسك .

- لئن مددتُ يدي إليك داعيًا لطال ما كفيتني ساهيًا فلا أقطع منك رجائي بما عملت يداي، حسبي

من سؤالي علمك بي.

- من المحال أن يحسن منك الظن، ولا يحسن منه المن، قال وسمعته يقول: كيف أفرح بعملي وذنوبي مزدحمة أم كيف أفر بأملي وعاقبتي مبهمة؟ قال: وسمعته يقول: الكيِّس مَن بادر بعمله، وسوَّف بأمله واستعد لأجله .

- حرَّم الله الزيادة في الدِّين، والإلهام في القلب، والفراسة في الخلق على ثلاثة نفر: على بخيل بدنياه، وسخي بدينه، وسيئ الخلق مع الله. فقال له رجل: بخيل بالدنيا عرفناه، وسخي بدينه عرفناه، صف لنا سيئ الخلق مع الله. قال: يقضي الله قضاءً ويمضي قدرًا وينفذ علمًا ويختار لخلقه أمرًا، فترى صاحب سوء الخلق مع الله مضطربًا في ذلك كله غير راضٍ به، دائمًا شكواه من الله إلى خلقه فما ظنك .

- تنال المعرفة بثلاث: بالنظر في الأمور كيف دبرها، وفي المقادير كيف قدرها، وفي الخلائق كيف خلقها.

- قرأت في باب برابي مصر بالسريانية فتدبرته فإذا فيه يقدر المقدرون، والقضاء يضحك.

- إن الطبيعة النقية هي التي يكفيها من العظمة رائحتها، ومن الحكمة إشارة إليها.

- أتى رجل من أهل البصرة ذا النون فسأله: متى تصح لي عزلة الخلق؟ قال: إذا قويت على عزلة نفسك، قال: فمتى يصح طلبي للزهد؟ قال: إذا كنت زاهدًا في نفسك هاربًا من جميع ما يشغلك عن الله؛ لأن جميع ما شغلك عن الله هي دنيا.

- قال يوسف بن الحسين: وسألت ذا النون: ما علاقة الآخرة في الله؟ قال: ثلاث: الصفاء، والتعاون، والوفاء. فالصفاء في الدِّين، والتعاون في المواساة، والوفاء في البلاء.

- سئل ذو النون عن سماع العظة الحسنة والنغمة الطيبة، فقال: مزامير أنس في مقاصير قدس بألحان توحيد في رياض تمجيد بمطربات الغواني في تلك المعاني المؤدية بأهلها إلى النعيم الدائم في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ثم قال: هذا لهم الخبر فكيف طعم النظر.

- تُنَالُ الْمَعْرِفَةُ بِثَلَاثٍ: بِالنَّظَرِ فِي الْأُمُورِ كَيْفَ دَبَّرَهَا، وَفِي الْمَقَادِيرِ كَيْفَ قَدَّرَهَا وَفِي الْخَلَائِقِ كَيْفَ خَلَقَهَا .

- إِنْ سَكَتَّ عَلِمَ مَا تُرِيدُ، وَإِنْ نَطَقْتَ لَمْ تَنَلْ بِنُطْقِكَ مَا لَا يُرِيدُ، وَعِلْمُهُ بِمُرَادِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُغْنِيَكَ عَنْ مَسْأَلَتِهِ أَوْ يُنْجِيَكَ عَنْ مُطَالَبَتِهِ .

- إِنَّ الطَّبِيعَةَ النَّقِيَّةَ هِيَ الَّتِي يَكْفِيهَا مِن الْعَظَمَةِ رَائِحَتُهَا، وَمِنَ الْحِكْمَةِ إِشَارَةٌ إِلَيْهَا .

- مَنْ أَدْرَكَ طَرِيقَ الْآخِرَةِ فَلْيُكْثِرْ مَسْأَلَةَ الْحُكَمَاءِ وَمشَاوَرَتَهُمْ، وَلَكِنْ أَوَّلُ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَقْلُ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِالْعَقْلِ، وَمَتى أَرَدْتَ الْخِدْمَةَ لِلَّهِ فَاعْقِلْ لِمَ تَخْدُمُ ثُمُّ أَخْدِمْ.

- سُئِلَ ذُو النُّونِ: مَنْ أَدْوَمُ النَّاسِ عَنَاءً؟ قَالَ: أَسْوَؤُهُمْ خُلُقًا، قِيلَ: وَمَا عَلَامَةُ سُوءِ الْخُلُقِ، قَالَ: كَثْرَةُ الخِلَافِ.

- بِالْعُقُولِ يُجْتَنَى ثَمَرُ الْقُلُوبِ، وَبِحُسْنِ الصَّوْتِ تُسْتَمَالُ أَعِنَّةُ الْأَبْصَارِ، وَبِالتَّوْفِيقِ تُنَالُ الْحَظْوَةُ وَبِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ تَطِيبُ الْحَيَاةُ، وَالْخَيْرُ مَجْمُوعٌ فِي الْقَرِينِ الصَّالِحِ إِنْ نَسِيتَ ذَكَّرَكَ وَإِنْ ذَكَرْتَ أَعَانَكَ.

- الْعَارِفُ مُتَلَوِّثُ الظَّاهِرِ صَافِي الْبَاطِنِ، وَالزَّاهِدُ صَافِي الظَّاهِرِ مُتَلَوِّثُ الْبَاطِنِ.

- سُئِلَ ذو النون: مَا أَسَاسُ قَسْوَةِ الْقَلْبِ لِلْمُرِيدِ؟ فَقَالَ: بَحْثُهُ عَنْ عُلُومِ رِضَى نَفْسِهِ بِتَعْلِيمِهَا دُونَ اسْتِعْمَالِهَا وَالْوُصُولِ إِلَى حَقَائِقِهَا.

- مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: مَلْعُونٌ مَنْ ثِقَتُهُ إِنْسَانٌ مِثْلُهُ .

- دَارَتْ رَحَى الْإِرَادَةِ عَلَى ثَلَاثٍ: عَلَى الثِّقَةِ بَوعْدِ اللهِ وَالرِّضَا وَدَوَامِ قَرْعِ بَابِ اللهِ .

- نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ النَّبَطِيِّ إِذَا اسْتَعْرَبَ.

- يَقُولُ ذو النون: رأَيْتُ فِيَ بَرِيَّةٍ مَوْضِعًا لَهُ دَنْدَرَةٌ فَإِذَا كِتَابٌ فِيهِ مَكْتُوبٌ: احْذَرُوا الْعَبِيدَ الْمُعْتَقِينَ وَالْأَحْدَاثَ الْمُتَقَرِّبِينَ، وَالْجُنْدَ الْمُتَعَبِّدِينَ، وَالنَّبَطَ الْمُسْتَعْرِبِينَ .

- اجْلِسْ إِلَى مَنْ تُكَلِّمُكَ صِفَتُهُ وَلَا تَجْلِسْ إِلَى مَنْ يُكَلِّمُكَ لِسَانُهُ .

- طُوبَى لِمَنْ كَانَ شِعَارُ قَلْبِهِ الْوَرَعُ، وَلَمْ يُعْمِ بَصرَ قَلْبِهِ الطَّمَعُ، وَكَانَ مُحَاسِبًا لِنَفْسِهِ فِيمَا صَنَعَ.

- إِنَّمَا يُخْتَبَرُ ذُو الْبَأْسِ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَذُو الْأَمَانَةِ عِنْدَ الْأَخْذِ وَالْعطَاءِ، وَذُو الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ عِنْدَ الْفَاقَةِ وَالْبَلَاءِ، وَالْإِخْوَانُ عِنْدَ نَوَائِبِ الْقَضَاءِ.

- الْبَلَاءُ مِلْحُ الْمُؤْمِنِ إِذَا عُدِمَ الْبَلَاءَ فَسَدَ حَالُهُ.

- سُئِلَ عَنْ أَوَّلِ دَرَجَةٍ يَلْقَاهَا الْعَارِفُ، قَالَ: «التَّحَيُّرُ ثُمَّ الِافْتِقَارُ، ثُمَّ الِاتِّصَالُ، ثُمَّ انْتَهَى عَقْلُ الْعُقَلَاءِ إِلَى الْحِيرَةِ»، وَسُئِلَ ذُو النُّونِ: مَا أَغْلَبُ الْأَحْوَالِ عَلَى الْعَارِفِ؟ قَالَ: حُبُّهُ وَالْحُبُّ فِيهِ وَنَشْرُ الْآلَاءِ وَهِي الْأَحْوَالُ الَّتِي لَا تُفَارِقُهُ.

- حُرْمَةُ الْجَلِيسِ أَنْ تَسُرَّهُ فَإِنْ لَمْ تَسُرَّهُ فَلَا تَسُؤْهُ، لَمْ يَكْسِبْ مَحَبَّةَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ إِلَّا رَجُلٌ خَفِيفُ الْمُرُونَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَحْسَنُ الْقَوْلِ فِيهِمْ وَأَطَابَ الْعِشْرَةَ مَعَهُمْ.

- سُئِلَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ عَنِ الْمَحَبَّةِ فَقَالَ: «هِيَ الَّتِي لَا تَزِيدُهَا مَنْفَعَةٌ، وَلَا تَنْقُصُهَا مَضَرَّةٌ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

شَوَاهِدُ أَهْلِ الْحُبِّ بَادٍ دَلِيلُهَا

بِأَعْلَامِ صِدْقٍ مَا يَضِلُّ سَبِيلُهَا

جُسُومُ أُولِي صِدْقِ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَى

تَبِينُ عَنْ صِدْقِ الْوِدَادِ نُحُولُهَا

إِذَا نَاجَتِ الْأَفْهَامُ أُنْسَ نُفُوسِهِمْ

بِأَلْسِنَةٍ تَخْفَى عَلَى النَّاسِ قِيْلُهَا

وَضَجَّتْ نُفُوسُ الْمُسْتَهَامِينَ وَاشْتَكَتْ

جَوًى كَانَ عَنْ أَجْسَامِهَا سَرِبيلُهَا

يَحِنُّونَ حُزْنًا ضَاعَفَ الْخَوْفَ شَجْوُهُ

وَنِيرَانُ شَوْقٍ كَالسَّعِيرِ عَلِيلُهَا

وَسَارُوا عَلَى حُبِّ الرَّشَادِ إِلَى الْعُلَى

قَوْمٌ بِهِمْ تَقْوَاهُ وَهُوَ دَلِيلُهَا

فَحَطُّوا بِدَارِ الْقُدْسِ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ

وَفَازَ بِزُلْفَى ذِي الْجَلَالِ حُلُولُهَا.

- مَنْ وُجِدَ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ رَجَوْتُ لَهُ السَّعَادَةَ وَلَوْ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَاعَةٍ، قِيلَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: سُوءُ الْخُلُقِ عَنْهُ، وَخِفَّةُ الرُّوحِ، وَغَزَارَةُ الْعَقْلِ، وَصَفَاءُ التَّوْحِيدِ، وَطِيبُ الْمَوْلِدِ.

- الْكَيِّسُ مَنْ بَادَرَ بِعَمَلِهِ وَسَوَّفَ بِأَمَلِهِ وَاسْتَعَدَّ لِأَجَلِهِ.

- مَنْ تَزَيَّنَ بِعَمَلِهِ كَانَتْ حَسَنَاتُهُ سَيِّئَاتٍ.

- قَالَ ذو النون: اعْلَمُوا أَنَّ الْعَاقِلَ يَعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، وَيُحِسُّ بِذَنْبِ غَيْرِهِ، وَيَجُودُ بِمَا لَدَيْهِ وَيَزْهَدُ فِيمَا عِنْدَ غَيْرِهِ وَيَكُفُّ عَنْ أَذَاهُ وَيَحْتَمِلُ الْأَذَى عَنْ غَيْرِهِ وَالْكَرِيمُ يُعْطِي قَبْلَ السُّؤَالِ، فَكَيْفَ يَبْخَلُ بَعْدَ

السُّؤَالِ؟ وَيَعْذُرُ قَبْلَ الِاعْتِذَارِ، فَكَيْفَ يَحْقِدُ بَعْدَ الِاعْتِذَارِ؟ وَيَعفُّ قَبْلَ الِامْتِنَاعِ فَكَيْفَ يَطْمَعُ فِي الِازْدِيَادِ.

- وقَالَ: ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْمَحَبَّةِ: الرِّضَا فِي الْمَكْرُوهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ فِي الْمَجْهُولِ، وَالتَّحْسِينُ فِي الِاخْتِيَارِ فِي الْمَحْذُورِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الصَّوَابِ: الْأُنْسُ بِهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَالسُّكُونُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ، وَحُبُّ الْمَوْتِ بِغَلَبَةِ الشَّوْقِ فِي جَمِيعِ الْأَشْغَالِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْيَقِينِ: النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الثِّقَةِ بِاللَّهِ: السَّخَاءُ بِالْمَوْجُودِ، وَتَرْكُ الطَّلَبِ لِلْمَفْقُودِ، وَالِاسْتِنَابَةُ إِلَى فَضْلِ الْمَوْجُودِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الشُّكْرِ: الْمُقَارَبَةُ مِنَ الْإِخْوَانِ فِي النِّعْمَةِ، وَاسْتِغْنَامِ قَضَاءِ الْحَوَائِجِ قَبْلَ الْعَطِيَّةِ، وَاسْتِقْلَالِ الشُّكْرِ لِمُلَاحَظَةِ الْمِنَّةِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الرِّضَا: تَرْكُ الِاخْتِيَارِ قَبْلَ الْقَضَا، وَفُقْدَانُ الْمَرَارَةِ بَعْدَ الْقَضَا، وَهَيَجَانُ الْحُبِّ فِي حَشْوِ الْبِلَا، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْأُنْسِ بِاللَّهِ: اسْتِلْذَاذُ الْخَلْوَةِ، وَالِاستِيحَاشُ مِنَ الصُّحْبَةِ، وَاسْتِحْلَاءُ الْوَحْدَةِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ: قُوَّةُ الْقَلْبِ، وَفُسْحَةُ الرَّجَا فِي الذِّلَّةِ، وَنَفْيُ الْإِيَاسِ بِحُسْنِ الْإِنَابَةِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الشَّوْقِ: حُبُّ الْمَوْتِ مَعَ الرَّاحَةِ، وَبُغْضُ الْحَيَاةِ مَعَ الدَّعَةِ، وَدَوَامُ الْحُزْنِ مَعَ الْكِفَايَةِ .

- سَأَلَهُ رَجُلٌ: أَيُّ الْأَحْوَالِ أَغْلَبُ عَلَى قَلْبِ الْعَارِفِ، السُّرُورُ وَالْفَرَحُ أَمِ الْحُزْنُ وَالْهُمُومُ؟ فَقَالَ: أَوْصَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ إِلَى جَمِيلِ مَا نَأْمُلُهُ مِنْهُ، وَالْعِلْمُ فِي هَذَا عِنْدِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ حَالٌ يُشَارُ إِلَيْهِ دُونَ حَالٍ، وَلَا سَبَبٌ دُونَ سَبَبٍ، وَأَنَا أَضْرِبُ لَكَ مَثَلًا: اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ مَثَلَ الْعَارِفِ فِي هَذِهِ الدَّارِ مَثَلُ رَجُلٍ قَدْ تُوِّجَ بِتَاجِ الْكَرَامَةِ وَأُجْلِسَ عَلَى سَرِيرٍ فِي بَيْتٍ ثُمَّ عُلِّقَ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ سَيْفٌ بِشَعْرِهِ وَأُرْسِلَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ أَسْدَانِ ضَارِيَانِ فَالْمَلِكُ يُشْرِفُ كُلَّ سَاعَةٍ بَعْدَ سَاعَةٍ عَلَى الْهَلَاكِ وَالْعَطَبِ فَأَنَّى لَهُ بِالسُّرُورِ وَالْفَرَحِ عَلَى التَّمَامِ؟

- عَنِ الْآفَةِ الَّتِي يُخْدَعُ بِهَا الْمُرِيدُ عَنِ اللَّهِ، فَقَالَ: يُرِيهِ الْأَلْطَافَ وَالْكَرَامَاتِ وَالْآيَاتِ.

قِيلَ لَهُ: يَا أَبَا الْفَيْضِ، فِيمَ يُخْدَعُ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ، قَالَ: بِوَطْءِ الْأَعْقَابِ، وَتَعْظِيمِ النَّاسِ لَهُ، وَالتَّوَسُّعِ فِي الْمَجَالِسِ، وَكَثْرَةِ الْأَتْبَاعِ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ وَخِدَعِهِ.

- حَدَّثَنَا أَبِي، ثنا أَحْمَدُ، ثنا سَعِيدٌ، قَالَ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ، يَقُولُ: ثَلَاثَةٌ عَلَامَاتُ الْخَوْفِ: الْوَرَعُ عَنِ الشُّبُهَاتِ بِمُلَاحَظَةِ الْوَعِيدِ، وَحِفْظُ اللِّسَانِ مُرَاقَبَةً لِلتَّعْظِيمِ، وَدَوَاءُ الْكَمَدِ إِشْفَاقًا مِنْ غَضَبِ الْحَلِيمِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْإِخْلَاصِ: اسْتِوَاءُ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ مِنَ الْعَامَّةِ وَنِسْيَانُ رُؤْيَتِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ نَظَرًا إِلَى اللَّهِ وَاقْتِضَاءَ ثَوَابِ الْعَمَلِ فِي الْآخِرَةِ بِحُسْنِ عَفْوِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا بِحُسْنِ الْمِدْحَةِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْكَمَالِ: تَرْكُ الْجَوَلَانِ فِي الْبُلْدَانِ، وَقِلَّةُ الِاغْتِبَاطِ لِنُعْمَاهُ عِنْدَ الِامْتِحَانِ، وَصَفْوُ النَّفْسِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْيَقِينِ: قِلَّةُ الْمُخَالَفَةِ لِلنَّاسِ فِي الْعِشْرَةِ، وَتَرْكُ الْمَدْحِ لَهُمْ فِي الْعَطِيَّةِ، وَالتَّنَزُّهُ عَنْ ذَمِهِمْ فِي الْمَنْعِ وَالرَّزِيَّةِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْمُتَوَكِّلِ: نَقْضُ الْعَلَائِقِ، وَتَرْكُ التَّمَلُّقِ فِي السَّلَائِقِ، وَاسْتِعْمَالُ الصِّدْقِ فِي الْخَلَائِقِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الصَّبْرِ: التَّبَاعُدُ عَنِ الْخُلَطَاءِ فِي الشِّدَّةِ، وَالسُّكُونُ إِلَيْهِ مَعَ تَجَرُّعِ غُصَصِ الْبَلِيَّةِ، وَإِظْهَارُ الْغِنَى مَعَ حُلُولِ الْفَقْرِ بِسَاحَةِ الْمَعِيشَةِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْحِكْمَةِ: إِنْزَالُ النَّفْسِ مِنَ النَّاسِ كَبَاطِنِهِمْ، وَوَعْظُهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ لِيَقُومُوا عَنْهُ بِنَفْعٍ حَاضِرٍ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الزُّهْدِ: قِصَرُ الْأَمَلِ، وَحُبُّ الْفَقْرِ، وَاسْتِغْنَاءٌ مَعَ صَبْرٍ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْعِبَادَةِ: حُبُّ اللَّيْلِ لِلسَّهَرِ بِالتَّهَجُّدِ وَالْخَلْوَةِ، وَكَرَاهَةُ الصُّبْحِ لِرُؤْيَةِ النَّاسِ وَالْغَفْلَةِ، وَالْبَدَارُ بِالصَّالِحَاتِ مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ. وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْتَّوَاضُعِ: تَصْغِيرُ النَّفْسِ مَعْرِفَةً بِالْعَيْبِ، وَتَعْظِيمُ النَّاسِ حُرْمَةً لِلتَّوْحِيدِ، وَقَبُولُ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْمَالِ السَّخَاءِ: الْبَذْلُ لِلشَّيْءِ مَعَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَخَوْفُ الْمُكَافَأَةِ اسْتِقْلَالًا لِلْعَطِيَّةِ، وَالْخَوْفُ عَلَى النَّفْسِ اسْتِغْنَاءً لِإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى النَّاسِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ حُسْنِ الْخُلُقِ: قِلَّةُ الْخِلَافِ عَلَى الْمُعَاشِرِينَ، وَتَحْسِينُ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَإِلْزَامِ النَّفْسِ اللَّائِمَةِ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ كَفًّا عَنْ مَعْرِفَةِ عُيُوبِهِمْ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الرَّحْمَةِ لِلْخَلْقِ: انْزِوَاءُ الْعَقْلِ لِلْمَلْهُوفِينَ، وَبُكَاءُ الْقَلْبِ لِلْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ، وَفِقْدَانُ الشَّمَاتَةِ بِمَصَائِبِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَذْلُ النَّصِيحَةِ لَهُمْ مُتَجَرِّعًا لِمَرَارَةِ ظُنُونِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَصَالِحِهِمْ وَإِنْ جَهِلُوهُ وَكَرِهُوهُ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الِاسْتِغْنَاءِ بِاللَّهِ: التَّوَاضُعُ لِلْفُقَرَاءِ الْمُتَذَلِّلِينَ، وَالتَّعَظُّمُ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَتَرْكُ الْمُعَاشَرَةِ لِأَبْنَاءِ الدُّنْيَا الْمُسْتَكْبِرِينَ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْحَيَاءِ: وِجْدَانُ الْأُنْسِ بِفِقْدَانِ الْوَحْشَةِ، وَالِامْتِلَاءُ مِنَ الْخَلْوَةِ بِإِدْمَانِ التَّفَكُّرِ، وَاسْتِشْعَارُ الْهَيْبَةِ بِخَالِصِ الْمُرَاقَبَةِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْمَعْرِفَةِ: الْإِقْبَالُ عَلَى اللهِ، وَالِانْقِطَاعُ إِلَى اللهِ، وَالِافْتِخَارُ بِاللَّهِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ التَّسْلِيمِ: مُقَابَلَةُ الْقَضَاءِ بِالرِّضَا، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ الرَّخَاءِ».

- أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بن أَحْمَدَ بن يَعْقُوبَ الْبَغْدَادِيُّ، ثنا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ هَاشِمٍ، قَالَ: قُلْتُ لِذِي النُّونِ: كَمِ الْأَبْوَابُ إِلَى الْفِطْنَةِ؟ قَالَ: أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ: أَوَّلُهَا الْخَوْفُ، ثُمَّ الرَّجَا، ثُمَّ الْمَحَبَّةُ، ثُمَّ الشَّوْقُ.

وَلَهَا أَرْبَعَةُ مَفَاتِيحَ: فَالْفَرْضُ مِفْتَاحُ بَابِ الْخَوْفِ، وَالنَّافِلَةُ مِفْتَاحُ بَابِ الرَّجَاءِ، وَحُبُّ الْعِبَادَةِ وَالشَّوْقُ مِفْتَاحُ بَابِ الْمَحَبَّةِ، وَذِكْرُ اللهِ الدَّائِمُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ مِفْتَاحُ بَابِ الشَّوْقِ، وَهِيَ دَرَجَةُ الْوَلَايَةِ، فَإِذَا هَمَمْتَ بِالِارْتِقَاءِ فِي هَذِهِ الدَّرَجَةِ فَتَنَاوَلْ مِفْتَاحَ بَابِ الْخَوْفِ، فَإِذَا فَتَحْتَهُ اتَّصَلْتَ إِلَى بَابِ الْفِطْنَةِ مَفْتُوحًا لَا غُلُقَ عَلَيْهِ، فَإِذَا دَخَلْتَهُ فَمَا أَظُنُّكَ تُطِيقُ مَا تَرَى فِيهِ حِينَئِذٍ يَجُوزُ شَرَفُكَ بِالْإِشْرَافِ وَيَعْلُو مُلْكُكَ مُلْكَ الْمُلُوكِ، وَاعْلَمْ أَيْ أَخِي أَنَّهُ لَيْسَ بِالْخَوْفِ يُنَالُ الْفَرْضُ، وَلَكِنْ بِالْفَرْضِ يُنَالُ الْخَوْفُ، وَلَا بِالرَّجَاءِ تُنَالُ النَّافِلَةُ وَلَكِنْ بِالنَّافِلَةِ يُنَالُ الرَّجَاءُ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ بِالْأَبْوَابِ تُنَالُ الْمَفَاتِيحُ وَلَكِنْ بِالْمَفَاتِيحِ تُنَالُ الْأَبْوَابُ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ تَكَامَلَ فِيهِ الْفَرْضُ فَقَدْ تَكَامَلَ فِيهِ الْخَوْفُ، وَمَنْ جَاءَ بِالنَّافِلَةِ فَقَدْ جَاءَ بِالرَّجَاءِ، وَمَنْ جَاءَ بِمَحَبَّةِ الْعِبَادَةِ، فَقَدْ وَصَلَ إِلَى اللهِ، وَمَنْ شَغَلَ قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ بِالذِّكْرِ قَذَفَ اللهُ فِي قَلْبِهِ نُورُ الِاشْتِيَاقِ إِلَيْهِ، وَهَذَا سِرُّ الْمَلَكُوتِ فَاعْلَمْهُ وَاحْفَظْهُ حَتَّى يَكُونَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يُنَاوِلُهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

3- الأشعار:

أطلعتُ قلبي على سرّي وأحشائي

من نظرةٍ وقعتْ منّي على دائي

قد كنتُ غِرًّا فما حيَّفت من نظري

لا علمَ لي أنَّ بعضي بعضُ أعدائي

...

فيا لقلوبٍ قرَّبتْ فتقرَّبتْ

لذي العرشِ ممَّن زيَّنَ المُلكَ بالقُربِ

رضاها فأرضاها فحازتْ مدى الرِّضا

وحلَّتْ منَ المحبوبِ بالمنزلِ الرَّحبِ

...

لها من لطيفِ الحُبّ عزمٌ سرتْ بهِ

ويهتكُ بالأفكارِ ما داخل الحُجْبِ

فإنْ فقدتْ خوفَ الفِراقِ لأُلفِها

أدامتْ حنينًا تطلبُ الأُنسَ بالقُربِ

سرَى سرُّها بينَ الحبيبِ وبينِها

فأضحى مصُونًا من سِوى الرَّبِّ في القلبِ

...

حسْبُ المحبِّينَ في الدُّنيا بأنَّ لهُم

من ربِّهم سببًا يُدنِي إلى سبَبِ

قومٌ جسُومُهُمُ في الأرضِ ساريةٌ

نعمْ وأرواحُهمْ تختالُ في الحُجبِ

لهفي على خَلوةٍ منه تسدِّدُني

إذا تضرَّعتْ بالإشفاقِ في الحُجبِ

يا ربُّ يا ربُّ أنتَ اللهُ مُعتمَدِي

متى أراكَ جهارًا غير مُحتجبِ

...

للعارفين قلوبٌ يعرفونَ بها

نورَ الإلهِ بسرِّ السرِّ في الحُجُبِ

صمٌّ عن الخلقِ عُمْيٌ عن مناظرهم

بكمٌ عن النُّطْقِ في دعواهُ بالكذبِ

...

يا ذا الذي أضحى الفؤادُ بذكرهِ

أنتَ الذي ما إنْ سواه أريدُ

يا منيتي دونَ الأنامِ وبُغيتي

يا منْ لهُ كلُّ الأنامِ عبيدُ

تفنى الليالي والزمانُ بأسرِهِ

وهواك غضٌّ في الفؤادِ جديدُ

...

أعمَيتُ عينيَّ عن الدنيا و زينتِها

فأنت والروحُ شيءٌ غيرُ مُفتَرَقِ

....

لا لأنّي أنساك أكثر ذكراك

ولكن بذاكَ يجري لساني

أنت في القلبِ والجوانحِ والرُّوحِ

وأنت المُنى وأنت الأماني

كلُّ عضوٍ منّي يراك من الشَّوقِ

بعينٍ غنيةٍ عن عياني

......

الخوفُ أمرَضني والشوقُ أحرَقني

والحبُّ أهلكَني والقُربُ أحْياني

.....

لِمَ تشتكي ألم البلا

وأنتَ تنتحلُ المحبَّهْ

إن المحبَّ هو الصبو

رُ على البلاءِ لمَن أحبَّهْ

.....

شَوَاهِدُ أَهْلِ الْحُبِّ بَادٍ دَلِيلُهَا

بِأَعْلَامِ صِدْقٍ مَا يضِلُّ سَبِيلهَا

جُسُومُ أُولِي صِدْقِ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا

تَبِينُ عَنْ صِدْقِ الْوِدَادِ نُحُولهَا

إِذَا نَاجَتِ الْأَفْهَامُ أُنْسَ نُفُوسِهِمْ

بأَلْسِنَةٍ تَخْفَى عَلَى النَّاسِ قيْلهَا

...

وما من كاتِبٍ إلا سيفنى

ويبقي الدهرُ ما كتبت يداهُ

فلا تكتبْ بكفِّك غيرَ شيءٍ

يسرُّكَ في القيامةِ أن تراه

أبو بكر الشِّبلي..

ودَّع الذَّهب ليذهبَ مع الله

كان يومًا ما أحدَ الوُلاة المُتنفِّذين في خُراسَان (في مدينةٍ قريبةٍ من سمرقند، دنباوند، من توابع طبرستان، من نواحي رستاق الريّ)، وكان غالبية سُكَّان الإقليم من الفرس والبشتون والبلوش مع وجودٍ للترك في الأقسام الشمالية، يأمرُ فيُطاع، ويسألُ فيُجاب، له سلطةٌ تنفيذية، وسطوةٌ رئاسية، لكنَّه ترك كل شيءٍ وراءه، وتنازل عن الولاية، واختار سلطة القلب، وسطوة الرُّوح، بعدما فرَّغ قلبه من الدنيا؛ فوهبَ أمواله، وما يملك، ووزَّعها على الفقراء والمُحتاجين، وسلك طريق التصوُّف، وهو أوَّل مَن سمَّى التصوف بعلم الخِرَق، في مقابلة علم الورق، وهو علم الفقه الظاهر والشريعة.

لقد ترك الجاه والمنصب، وتخلَّى عن الأبَّهة والعظمة، ودَّع الذَّهب ليذهبَ مع الله وإليه، واعتبر صراط الأولياء هو المحبة .

وقد رأى التصوفَ «ترويح القلوب، وتجليل الخواطر بأردية الوفاء، والتخلُّق بالسَّخاء، والبِشْر في اللقاء، وهو الجلوس مع الله بلا همٍّ، والصوفية أطفالٌ في حِجْر الحق».

فالصُّوفي عند الشِّبلي – الذي عاش سبعًا وثمانين سنة - هو «مَن صفا من الكدر، وخلص من الغير، وامتلأ من الفكر، وتساوى عنده الذهب والمَدَرُ: أي الطِّين اللَّزِجُ المتماسك». وهو واحدٌ من أهل الباطن. وكانت إشارات الشبلي تعتبر في زمانه من العجائب .

كان له ذوق خاص في شعر العشق والغزل، ومجاهدات عجيبة، فكان يكتحل بالملح حتى لا ينام ويتعوَّد السَّهر؛ لأن «من نام غفل، ومن غفل حجب»، وكان من أصحاب الجُنيد الذي وصفه بـ«السَّكران» لفرط وجدْهِ وهيامه، وقال عنه أيضًا: «لكل قوم تاج، وتاج هذا القوم الشبلي، وذاك الشارب رحيق المعرفة»، وتعلَّم على يديه، وفي اللقاء الأول للشِّبْلي مع الجُنيد (215 - 298 هجرية) قال له أبو بكر: «لقد حدثوني عنك أن عندك جوهرة العلم الربَّاني الذي لا يضل صاحبه ولا يشقى، فإما أن تمنح وإما أن تبيع.

فقال الجُنيد: لا أستطيع أن أبيعها لك فما عندك ثمنها، وإن منحتها لك أخذتها رخيصةً فلا تعرف قدرها، ولكن وقد رزقت هذا العزم فهو علامة الإذن، وبشير التوفيق، فألقِ بنفسك غير هيَّابٍ في عباب هذا المحيط مثلما فعلت أنا، ولعلك إن صبرت وصاحبك التوفيق أن تظفر بها، واعلم أن طريقنا طريق المجاهدين الآخذين بقوله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، فاجعل هذه الآية

نصب عينيك فهي معراجك إلى ما تريد».

وبعد وقتٍ ليس بالطَّويل في عُمر زمن أهل الوقت، قال الجُنيد: «لا تنظروا إلى أبي بكر الشبلي بالعين التي ينظر بها بعضكم إلى بعض، فإنه عين من عيون الله تعالى، ولم أرَ في الصوفية أعلمَ من الشِّبلي، ومن شدَّة زُهده. كان يُلقَّب بـ«ريحانة المؤمنين» وكان يؤمُّ حلقته في جامع المنصور ببغداد خلقٌ كثيرٌ».

وصاحب الحلاج (858 – 922 ميلادية / 244 - 309 هجرية)، وكان يردِّدُ: «كنتُ مع الحلاج شيئًا واحدًا، إلا أنه أعلن وأنا كتمتُ». وزاره في سجنه، فوجده جالسًا يخط في التراب، فجلس بين يديه حتى ضجر، فرفع الحلَّاج طرفه إلى السماء، وقال: «إلهي لكلِّ حقٍّ حقيقةٌ، ولكلِّ خلقٍ طريقةٌ، ولكلِّ عهدٍ وثيقةٌ، ثم قال: «يا شبلي، من أخذه مولاه عن نفسه، ثم أوصله إلى بساط أنسه، كيف تراه؟»

فقال الشبلي: وكيف ذاك؟

فقال الحلَّاج: يأخذه عن نفسه، ثم يردُّه على قلبه، فهو عن نفسه مأخوذٌ، وعلى قلبه مردُودٌ، فأخذه عن نفسه تعذيبٌ، ورده إلى قلبه تقريبٌ، طوبى لنفسٍ كانت له طائعةً، وشموس الحقيقة في قلوبها طالعة، ثم أنشد:

طلعت شمس من أحبك ليلًا

فاستضاءت فما لها من غروب

إن شمس النهار تغرب بالليل

وشمس القلوب ليس تغيب»

وقال الشبلي: «إن لله عبادًا لو بزقوا (بصقوا) على جهنم لأطفأوها».

وقيل له: «لمَ تقول: الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: أستحي أن أواجه إثباتًا بعد نفي.. أخشى أن أؤخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار».

عاش بين القرنين الثالث والرابع الهجريين، وولد في زمن الخليفة العباسي المنتصر بالله، إنه أبو بكر الشبلي (247 - 334 هجرية / 861 - 946 ميلادية) الذي سُئل: ما علامة العارف؟ قال: صدره مشروح، وقلبه مجروح، وجسمه مطروح. الوجد عندي جحود ما لم يكن عَن شهود وشاهد الحق عندي يفني شهود الوجود.

وكان الشبلي يضبط حواسه، ويراعي أنفاسه، ويعيش في تآلفٍ وتعاطفٍ، إذْ استوت حاله في المشهد والمغيب، وفي الحلِّ والترحال، وتحوَّل قلبه – وهو الزاهدُ المستغني المتجرِّد - من الأشياء إلى رب الأشياء. و«لقد صار أوْجَدَ أهل الوقت علمًا وحالًا وظرفًا» كما يذكر عبد الوهاب الشعراني.

وقيل لَهُ: يَا أَبَا بكر، الرَّجُلُ يَسْمَعُ قَوْلًا وَلا يَفْهَمُهُ، فَيَتَوَاجَدُ عَلَيْهِ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

رُبَّ وَرْقَاءَ هَتُوفٍ بِالضُّحَى ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحْتَ فِي فَنَنِ

فَبُكَائِي رُبَّمَا أَرَّقَهَا وَبُكَاهَا رُبَّمَا أَرَّقَنِي

وَلَقَدْ تَشْكُو فَمَا أَفْهَمُهَا وَلَقَدْ أَشْكُو فَمَا تَفْهَمُنِي

غَيْرَ أَنِّي بِالْجَوَى أَعْرِفُهَا وَهْيَ أَيْضًا بِالْجَوَى تَعْرِفُنِي.

وقليلة هي المصادر والمراجع التي تتناول سيرة الشبلي، وإن كانت هناك كتبٌ محدودةٌ قد تناولت حياته ومسيرته، فالكتب التي وصلت إلينا من الشبلي، تكاد تكون معدومة باستثناء ديوانه الذي لم يسلم من تداخل النصوص، ونسبة بعضها إليه مع أنها ليست له.

ريحانةُ المؤمنين المجذُوب نحو النُّور

«مَن ماتتْ همَّتهُ ضعُفتْ محبَّتُهُ» الشِّبلي

هذا صوفيٌّ أخذَهُ الولَهُ الذي يرِدُ على القلب، وأسرَهُ الوجْدُ، لا يخطرُ بباله شيءٌ آخر غير الحق الذي يتجلَّى له، جذَبَهُ السِّر الذي يرِدُ عليه ولا يطالعُه. عاش في الغيْبة، تغلبهُ الحال.

شرب هو والحلاج من كأسٍ واحدةٍ، لكنَّه صحا وكتم وستَر محبَّتهُ، بينما سكر الحلاج، فقال وباح، فقُتِل.

إنه أبو بكر الشِّبلي صاحب القلب الطَّائر بأجنحة المعرفة، والذي آمن بأنَّ العبادة كالحُبِّ لا تكونُ بالشركة، ولما سُئل: هل أنت الشِّبلي؟ قال: «أنا النقطة التي تحتَ الباء»، وهُنا نتذكَّر قولَ أبي مدين الغوث (509 -594 للهجرة): «ما رأيتُ شيئًا إلا رأيتُ الباءَ مكتُوبةً»؛ لأنَّ «سر الخلق، وسر التكوين في حرْف الباء للبسملة، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ».

والأصل يعُودُ إلى قول الإمام علي بن أبي طالب: «كل ما في الكُتب المُنزَّلة، فهو في القرآن، و كل ما في القرآن فهو في الفاتحة، و كل ما في الفاتحة فهو في (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، و كل ما في (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) في الباء، و كل ما في الباء في النقطة، و أنا النقطة تحت الباء».

وعلم النقط والدوائر من أجلِّ العُلوم وغوامض الأسرار؛ لأنَّ مُنتهى الكلام إلى الحُروف، ومنتهى الحُروف إلى الألف، ومُنتهى الألف إلى النقطة، والنقطة عندهم عبارةٌ عن نزُول الوجُود المطلق الظَّاهر بالباطن، ومن الابتداءِ بالانتهاءِ يعني ظُهور الهُوية التي هي مبدأ الوجُود التي لا عبارة لها ولا إشارة حسبما قال الحافظ رجب البرسي (توفي سنة 813 هجرية) في كتابه «مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين».

الشِّبلي عارفٌ عاشقٌ، ذُو قلبٍ يعشقُ من دُون أن يدري جسده: «أحبَّ قلبي وما درَى بدني»، وهو من أوائلِ المتصوفة الذين التفتوا إلى أن الحُرية ما هي إلا «حُرية القلب لا غير»، إذْ هو مُحبٌّ مجذُوبٌ نحو النُّور.

فالشِّبلي هو ابن الشَّطح والملقَّب بـ«ريحانة المُؤمنين»، وهو كغيره من المتصوفة شاعرٌ مُقِلٌّ، فما رأينا صوفيًّا له إنتاجٌ غزيرٌ من الشِّعْر، باستثناء ابن العربي (1165- 1240 ميلادية/558 – 638 هجرية)، وعُمر بن الفارض (576 هجرية/1181ميلادية – 1235 ميلادية)، والأخير لم يصل إلينا منه إلا ديوانٌ شِعريٌّ، ولا ندري شيئًا عن كتبٍ أخرى له ما زالت مخطُوطةً أو مجهُولة.

وإذا كان جعفر الخُلدي (348 هجرية – 959 ميلادية، وهو من أعلام التصوف في القرن الرابع الهجري، من أفتى الْمَشَايِخ وأجلهم وَأَحْسَنهمْ قولًا، وَ كَانَ الْمرجع إِلَيْهِ فِي عُلُوم الْقَوْم وكتبهم وحكاياتهم وسيرهم) يردِّد أنه يحفظُ أكثر من مئةٍ وثلاثين ديوانًا من دواوين الصوفية، فمن المؤكَّد أنَّ كثيرَها قد ضاع، أو أُحْرِق، أو غُسِل بالماء، أو اختفى بالإهمال أو السَّرقة؛ لأنهُ صار من الصَّعب أن يُحصِي المرءُ عشرين ديوانًا شعريًّا صوفيًّا.

وفي تجربة الشِّبلي الصُّوفية تمَثَّل بشِعْر كل من: زُهيْر بن أبي سلمى، والعبَّاس بن الأحنف، وقيس بن الملوَّح «مجنون ليلى»، وابن المعتز، وأبي الحسن النوري، وعبد الصَّمد بن المعذل، وذي الرمة، وقيس بن ذُريْح، وأبي تمام، والمتنبي، والحلَّاج.

ولم يهتم أحدٌ بالشِّبلي الاهتمام الكافي أو الذي يليق بمكانته كمُتصوِّف، ودائمًا ما يأتي مُرافقًا أو تاليًا للحلَّاج، إذْ كان صديقه ومُجايله ورفيقه، وهُما من عائلةٍ صُوفيةٍ وشِعريةٍ واحدةٍ، أو على الأقلِّ متشابهة.

على الرغم من أنَّ شيخه الجُنيْد قد قال: «نحن حبَّرنا هذا العلم تحبيرًا، ثم خبَّأناهُ في السَّراديب، فجئتَ أنتَ، فأظهرتَهُ على رؤُوس الملأ».

وقليلةٌ هي – بل نادرةٌ – كُتب مختارات الشِّعر أو النثر الصُّوفيِّ في تراثنا القديم والحديث، وإنْ كان الاهتمام كله مُنصبًّا على سِيَر أقطاب التصوُّف أو تحقيق كُتبهم ورسائلهم؛ لأنَّ الدولةَ الإسلاميةَ الرسميةَ أخرجت المتصوفة من المتن، واكتفت بوجُودهم في الهامش، بل وطاردتهم حدّ الإقصاء والنفي والطَّرد والسَّجن والقتل، لكنَّ مِصفاةَ الزمان استطاعت أن تحفظ لنا عددًا من أقطابِ التصوُّف، وتعيدهم إلى المتْن بعد موتهم بمئات السنين.

وستظلُّ جهُودي وجهُود مَن سبقوني ناقصة؛ لأنَّ الشِّعر الذي كتبه المتصوفةُ مُوَزَّعٌ ومنثُورٌ في بطون كتب السلف التراثية، كما أن عددًا كبيرًا من الإرثِ الشِّعريِّ لهؤلاء المتصوفة قد ضاع واختفى ولا أثرَ له.

وهناك مَن ينسبُ الشِّبلي إلى مصر، وأنه عاش جُزءًا من صباه وشبابه في الإسكندرية، حيث كان خاله أميرًا للأمراء.

لقد هجر الشِّبلي حياةَ التَّرَف، وذهب إلى الزُّهد والتخلِّي والتجرُّد؛ ليبحثَ بعد مُجاهدةٍ مضنيةٍ عن السَّكينة والطُّمأنينة، والمحبَّة والمعرفة والطُّهر، والائتناس إلى الحرْف المحمُول على الرُّوح القُدُس، وانشغل بمجاهداته وإشراقاته وشطحاته.

كان الشِّبلي يؤمنُ بمقولة: «استراح مَن أسقط عن قلبه محبَّة الدنيا»، إذْ رفض أن يأكلَ الدُّنيا بالدين. فقد نقَّى رُوحَه من شوائبها وما علق بها من شواغل دنيويةٍ، وكانت له مواقف حازمة وحاسمة من عبدة السَّلاطين والحُكَّام من أولي الأمر، ومن أشهر مواقفه، موقفه من الوزير علي بن عيسى (859 – 946 ميلادية / 245 - 335 هجرية) حينما زاره وهو مريض في دار المرضى حيث أدخل الشبلي ليعالج فدخل عليه علي بن عيسى الوزير (يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم، أصله من الفرس، وكان من أكبر القائمين على الحلاج) عائدًا فأقبل على الوزير فقال: ما فعل ربك؟ فقال الوزير: في السماء يقضي ويمضي، فقال: سألتك عن الرب الذي تعبده لا عن الرب الذي لا تعبده، يريد الخليفة المقتدر بالله، وهو الخليفة العباسي الثامن عشر في ترتيب الخلفاء العباسيِّين (295-320هجرية/908-932ميلادية).

فقال علي لبعض حاضريه ناظِرْهُ، فقال الرجل: يا أبا بكر، سمعتك تقول في حال صحوتك كل صدِّيقٍ بلا معجزةٍ كذَّاب وأنت صدِّيق فما معجزتك قال: معجزتي أن تعرض خاطري في حال صحوي على خاطري في حال سكري فلا يخرجان عن موافقة الله تعالى.

فقد كان الشِّبلي يتسم بسمُوٍّ رُوحيٍّ يندر أن يوجد بين معاصريه، خصوصًا أن ترك منصبه

كحاكمٍ أو والٍ وسلك طريق الزُّهد والتوبة والتجرُّد من كلِّ شيءٍ سوى الله، بعد أن غادر كنوز الدنيا المادية الفانية. «خلَّف أبي ستين ألف دينار سوى الضِّيَاع؛ فأنفقتُ الكُلَّ وقعدتُ مع الفقراء».

قال الشبلي، الذي هو أنموذج لكتمان الحال مع بذل الجهد في المجاهدة: «ما أحد يعرف الله، قيل: كيف؟ قال: لو عرفوه لما اشتغلوا بسواه».

وقال: «ما أحوج الناس إلى السكرة، فقيل: أي سكرة، فقال: سكرة تفنيهم عن ملاحظة أنفسهم وأفعالهم وأحوالهم، والأكوان وما فيها».

ويحكي الشبلي قصةً ليدلِّل بها على صدق الحب، وفرط الوجد وعمقه، والاتحاد مع ذات مَن نحبُّ، إذْ كان إشراقيًّا فيَّاضًا صاحب ذاتٍ نقيةٍ من العوالق الدنيوية: «إن متحابين ركبا بعض البحار، فسقط أحدهما في البحر وغرق، فألقى الآخرُ نفسه إلى البحر، فغاص الغواصون فأخرجوهما سالميْن. فقال الأول لصاحبه: أما أنا فسقطت في البحر، أنت لمَ رميتَ نفسك؟ فقال له: أنا غائبٌ بك عن نفسي، توهمت أني أنتَ».

الحاكم الذي باع كبريتًا في الأسواق

ليسقِطَ عن نفسه محبَّة الدنيا

أبو بكر الشِّبْلي – وهو شاعرٌ مُقِلٌّ - في ديوانه الذي وصل إلينا، نحنُ أمام شاعرٍ يشيرُ ويرمزُ؛ ليعبِّر عن تجربته الصوفية الذوقية. وحقيقة الأمر أنَّ الشِّبْلي لم يترُك ديوانًا مخطُوطًا، لكنَّها قصائدُ مُتفرقاتٌ مُتناثرة في كُتب التصوف، جُمِعت بعد ذلك في ديوانٍ . لم يلمها الشِّبلي في كتابٍ، ولا مَن كانوا في زمانه فعلوا ذلك، أو مَن جاءوا بعده، وقد جاء في كتاب «التعرُّف لمذهب أهل التصوف» لأبي بكر محمد الكلاباذي المُتوفَّى سنة 380 هجرية، أن الشبلي قد ترك كتبًا ورسائل في علم التوحيد، لكن لا أحد يعلم عنها شيئًا، ومن المُحتمل أنَّ هذه التآليف قد فُقِدتْ.

والدراسات الأكاديمية المتخصِّصة عن شعره وحياته محدُودة، بل تكادُ تكُونُ نادرةً، مُقارنةً بما كُتب عن سواه من شُعراء التصوف مثل الحلَّاج، وابن العربي، وعُمر بن الفارض.

ولعلَّ الديوان الذي جمعه وحقَّقه وعلَّق على حواشيه وقدم له الدكتور مصطفى كامل الشيبي (27 من مايو 1927 - 4 من سبتمبر 2006 ميلادية)، هو أتمُّ تجربةٍ أكاديمية عن الشِّبلي، وكذا كتاب الدكتور عبد الحليم محمود (1910 –1978ميلادية) «تاج الصوفية.. أبو بكر الشِّبلي، حياته وآراؤه».

والشِّبلي عزفَ عن الدنيا وملذَّاتها، وهجرَ حياة المال والجَاه والسُّلطان والعِزِّ والثروة، وأسقط

عن نفسه محبَّة الدنيا فاستراح، واتخذ التصوفَ طريقًا والزُّهدَ سبيلًا، وهو في سن الحادية والثلاثين من عمره، حيثُ أقال نفسه من منصب الحاكم أو الأمير، وطلب من الناس أن يأخذُوا ماله ويتركُوه، وتنازلَ لهم عمَّا تحت إمرتِهِ: «... فاجعلوني في حِلٍّ».

ويذكرُ الهجويري (نوفمبر 1009 / 465هجرية - سبتمبر 1072 ميلادية) في كتابه «كشف المحجوب» أنَّ الشِّبلي ألقى في دجلة أربعة آلاف دينار جُملةً واحدة، فقيل له: ماذا تفعل؟ فقال: الحَجَرُ أولَى بالمَاءِ. قالوا: ولم لا تُفرّقها على الخلق؟ قال: سُبحان الله، وماذا أحتج لله على أن أزلْتُ من قلبي حِجَابَه ووضعته على إخواني المسلمين إيثارًا لنفسي عليهم».

وذكر فريد الدين العطار «627 هجرية – 1230 ميلادية» أنَّ ابتداء أمر الشِّبلي في عالم التصوف كان لما قصد إلى بغداد أيام إمارته على دماوند صُحبة أمير الري – رئيسه – وجماعة من الموظَّفين لحضُور مراسيم إلباس أميرهم خلعة منصبه. وبعد تمام المراسيم، وتفرُّق الحضُور، خرج الأمير ومَن معه إلى حال سبيلهم، وعليه الخلعة، وفي الطَّريق ضايقتهُ عطْسةٌ؛ فتلقَّاها بكُم الخلعة من دون أن يسبق إلى ذهنه ما في ذلك من خُرُوج على التقاليد الرسمية التي تقضي بالاحترام والتقدير. ومن سوء حظ أمير الري أن خبره بلغ مسامع الخليفة، وحمل ذلك منه محمل الإهانة وسوء النية، فكان أن استُدْعِي إلى المجلس من جديدٍ وأُهين وصُفِع على قفاه وانتزِعتْ منه الخلعة وصُرف عن إمارته.

وذكر فريد الدين صاحب «تذكرة الأولياء» أن الشِّبلي تأثَّر غاية التأثر من الحادث ونتائجه، وأخذته الفكرة، وحدَّثَ نفسه يقول لها: «إذا كان مَن استعمل خلعةَ مخلوقٍ مِنديلًا مستحقًّا للعزل، محكومًا عليه بردِّها، فما يصنعُ بمَن فعل ذلك بخلعة رب العالمين»، وقال فريد الدين العطَّار صاحب «منطق الطير» وقصد الشِّبلي إلى مجلس الخليفة فسئل ما خطبه؟ فقال: «أيُّها الخليفة إنك مخلوقٌ ولا ترضى أن يُساء الأدبُ مع خلعتك، وتقديرك لها معلومٌ، وقد خلع عليَّ الله خلعة من محبَّته ومعرفته ومن المُحال أن يرضى باستعمالها مِنديلًا في خدمة المخلوقين».

قال الهجويري: «ولما جاء الشِّبلي إلى الجُنيْد، قال له يا أبا بكر إنَّ في رأسك غُرورًا يتردَّد ويقول: أنا ابن حاجب حُجَّاب الخليفة وأمير سامراء. ولن يكون فيك فائدة إلا إذا قصدت إلى السُّوق واستجديت كل مَن لقيته من الناس لتعرف قيمتك، ففعل، وكان يقصد إلى السوق مستجديًا فكانت تضعف يومًا بعد يوم، وظل ذلك دأبه سنة طاف خلالها السُّوق فلم يعطه أحد شيئًا، وعاد الشِّبلي إلى الجُنيْد مكسور النفس، مهيض الجناح، خالي الوفاض، لم يشفع له ثراؤه ولا سلطانه، ولم يحرك ذلك قلوب الناس عليه فقال له: الآن عرفتَ قيمتك، ولم يقدرك أحدٌ من الناس بشيءٍ فلا تحفل

بهم ولا تأخذهم بشيء».

ويذكر فريد الدين العطار: جاء الشِّبلي الجُنيد أول سلوكه الطريق وقال له: لقد حدثوني أنَّ عندك جوهرة العلم الربَّاني، فإما أن تمنحنيها وإما أن تبيعينها، فقال له الجُنيد: لا أستطيعُ أن أبيعكها، فما عندك ثمنها، وإنْ منحتها لك، أخذتها رخيصةً، فلا تعرف قدرها. ألق بنفسك غير هيَّاب في عباب هذا المحيط مثلما فعلت، لعلك إن صبرت أن تظفر بها. فسأله الشّبلي عمَّا يفعل، فقال له الجنيد اذهب بع الناس كبريتًا، وفي ختام العام، قال له: «لقد شهرتك هذه التجارة بين الناس، فكن درويشًا، لا تشغل نفسك بغير السؤال». وفي خلال العام، كان الشّبلي يجوسُ شوارع بغداد، يسأل المارة إحسانهم، بيد أنَّ أحدًا لم يأبه له. ثم رجع إلى الجُنيْد، فقال له: «أرأيت الآن؟ لستَ في أعين الناس شيئًا، فلا تصرف فكرك إليهم، ولا تقم لهم وزنًا. وقد كنتَ في بعض أيامك حاجبًا، ثم اشتغلت حاكمًا لبعض الأقاليم. فاغدُ إليه، واسأل جميع الذين أسأت إليهم، أن يعفُوا عنك». فأطاع الشّبلي، وصرف أربعة أعوام، يذهب من بابٍ إلى باب، حتى ظفر بالعفو من كل أحد، إلا واحدًا فشل في العثور عليه. فقال له الجُنيْد، حين عاد إليه: «لا يزال فيك ميلٌ إلى الشهرة، اذهب واسأل الناس عامًا آخر». وفي كل يوم كان الشّبلي يُحضر الصدقات، التي أعطيت له للجُنيْد، فيفرِّقها بين الفقراء، ويدع الشّبلي من غير طعامٍ، إلى الصباح القادم. فلما انقضى العام على هذا المنوال، تقبَّله الجنيد مريدًا من مريديه، على أن يخدم الآخرين عامًا. فلما انقضت خدمة العام، سأله الجُنيد: «ما تظن في نفسك الآن؟»، فأجاب الشّبلي: «أنا أعد نفسي أحقر مخلوقات الله»، فقال شيخه: «الآن توثَّق إيمانك».

وقال الشّبلي: نُوديتُ في سرِّي يومًا: «شُبَّ لي» أي: احترِقْ فيَّ، فسميتُ نفسي بذلك، وقلتُ في معنى ذلك:

رآني فأوراني عجائب لطفه

فهمتُ وقلبي بالأنينِ يذوبُ

فلا غائبًا عنِّي فأسلُو بذكْرِهِ

ولا هو عنِّي مُعْرِضٌ فأغيبُ

لقد كانت مجاهداتُ الشّبلي شديدة - في حياته - فوق الحدِّ، فكان بين يديه مرآةٌ ينظرُ فيها كل ساعةٍ، ويقول: بيني وبين الله عهد إنْ مِلتُ عنه عاقبني، وأنا أنظرُ كُلَّ ساعةٍ في المرآةِ لأعرفَ هل اسودَّ وجهي أم لا. وحُكِيَ أنَّ الشّبلي سُئل عن العارف والمُحب، فقال: العارفُ إنْ تكلم هلك،

والمُحب إنْ سكت هلك. وقيل للشِّبلي: ألم تعلم أنه تعالى رحمن؟ فقال: بلى، ولكن منذ عرفتُ رحمته ما سألته أن يرحمني.

وقيل: إنَّ الشِّبلي كان في ابتداء أمره - حين كان مريدًا - ينزلُ كل يومٍ سربًا ويحمل مع نفسه حزمةً من القضبان، فكان إذا دخل قلبه غفلة أو فتر انتباهه، ضربَ نفسه بتلك الخشب حتى يكسرَها على نفسه، فربما كانت الحزمة تفنى قبل أن يمسي، فكان يضربُ بيديه ورجليه في حائط المغارة.

وقال الشِّبلي: الصُّوفي مُنقطعٌ عن الخلق، مُتصلٌ بالحق؛ كقوله تعالى: «واصطنعتك لنفسي» قطعه عن كل غير، ثم قال له: «لن تراني». وقال: الصُّوفية أطفالٌ في حِجْرِ الحقِّ. وقال أيضًا: التصوف برقة محرقةٌ.

وقال أيضًا: هو العصمة عن رؤية الكون.

وقال الشِّبلي: التصوف الجلوس مع الله بلا همٍّ. وسُئل الشِّبلي: لِمَ سميت الصوفية بهذه التسمية؟ فقال: لبقيةٍ بقيت عليهم من نفوسهم؛ ولولا ذلك لما تعلَّقت بهم تسميةٌ. وقال الشِّبلي: سُميت المحبَّة محبَّة؛ لأنَّها تمحُو من القلب ما سوى المحبوب.

ورُؤي الشِّبلي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: ناقشني حتى أيست، فلما رأى يأسِي تغمدَّني برحمته.

بعد مقتل الحلَّاج خَشِي الشِّبلي بطشَ الفقهاء به، فتوقَّفت شطحاته، وخمدت نارُه، وانطفأت جذوته. كان يقول: «أنا الوقتُ، وليس في الوقتِ غيري»، وقد «اتخذ الجنُونَ جُنَّةً ووقايةً له من المآخذِ، ومهربًا من الحرَج، واستعار من أشعارِ مجنُون ليلى الكثير من الأبيات، ونازعه على زعامة العشق»، وقال الشِّبلي: «أُدْخلتُ مرَّةً المارستان كذا وكذا مرة، وأُسقيتُ الدَّواء كذا وكذا دواءً فلم أزدد إلا جنونًا». وقد جُنَّ ثمانيَ وعشرين مرة، قال الشبلي: «أنا والحلاج شيءٌ واحدٌ، فخلَّصني جنُوني، وأهلكه عقله».

وكان يردِّد قول ذي الرُّمَّة (77 هجرية - 696 ميلادية / 117 هجرية - 735 ميلادية):

وعَينانِ، قال اللهُ كُونَا فكانَتا

فَعُولانِ بِالألبَابِ ما تَفعَلُ الخَمرُ

وقد فسَّر الشِّبلي هذا البيت بقوله: «لستُ أعني العيونَ النُجْلَ، ولكنَّني أعني عيونَ القلوبِ ذوات

الصدور، فطُوبى لمَن كان له عينٌ في قلبه وأُذُن واعيةٌ وألفاظٌ مرضيةٌ».

وقد زار قبره بعد موته صوفيون ورحَّالة وعلماء وفقهاء من أشهرهم: أبو عبد الرحمن السلمي، وابن بطوطة، وابن جُبيْر.

أبو بكر الشِّبلي..

مختارات من شعره ونثره

1

فلا غائبَ عنِّي فأسلو بذكرِهِ

ولا هو عني معْرِضٌ فأغيبُ

2

ليس مني إليك قلب مُعَنَّى

كُلُّ عضوٍ منِّي إليك قلوبُ

3

أنت سُؤلي ومُنيتي

دُلَّني كيف حيلتي؟

قد تعشَّقتُ وافتضحـ

ـتُ وقامت قيامتي

محنتي فيك أنني

لا أبالي بمحنتي

يا شِفائي من السقام

وإنْ كنت علَّتي

تعبي فيك دائم

فمتى وقت راحتي؟

تبتُ دهرًا فمذ

عرفتُك ضيَّعت توبتي

قربكم مثل بعدكم

فمتى وقت راحتي؟

4

إذا عاتبتُهُ أو عاتبوه

شكَا فِعلي وعدَّدَ سيئاتي

أيا مَنْ دَهرُهُ غَضَبٌ وسُخطٌ

أما أحسنتُ يومًا في حياتي

5

تَسَرمدَ وقتي فيك فهو مُسَرمَد

وأفنيتني عني فعدت محدَّدا

وكلي بكل الكُلِّ وَصلٌ محققٌ

حقائق حق في دوام تخلّدا

تغرَّبَ أمري فانفردت بغربتي

وأنيتني عني فصرت مجرَّدا

6

لها في طرْفها لحظات سحْرٍ

تُميت بها وتُحْيي مَن تريدُ

وتَسبي العالمين بمقلتيْها

كأن العالمين لها عبيدُ

ألاحظها فتعلم ما بقلبي

وألحظها فتعلم ما أريدُ

7

وأعجب شيءٍ سمعنا به

مريضٌ يُعاد فلا يوجدُ

8

لمَّا تيقنتُ أني لا أعاينكم

أغمضتُ طرفي فلم أنظُر إلى أحدِ

9

أليس من السعادةِ أن دَاري

مُجاورةٌ لدارك في البلاد؟

10

باحَ مجنونُ عامرٍ بهواهُ

وَكَتمتُ الهَوى ففُزتُ بِوَجدي

فَإذا كانَ في القيامةِ نُودي

مَنْ قتيلُ الهَوى تَقدّمتُ وَحدي

11

يا جملة الكُلّ التي كلُّها

أحبّ من بعضي و من سائري

تراك ترثى للذي قلبهُ

مُعَلَّق في مخلبيْ طائرِ

مدَلَّهٌ حيرانُ مستوحشٌ

يهرب من قفر إلى آخرِ

12

أُقلّلُ صبري فيكَ وهو كثيرُ

وأزجرُ دمعي عنكَ وهو غزيرُ

وعندي دموعٌ لو بكيتُ ببعضها

لفاضت بحورٌ بعدهنّ بحورُ

قُبُورُ الْورَى تَحْتَ التُّرَابِ وَلِلْهَوَى

رِجَالٌ لَهُمْ تَحْتَ الثِّيَابِ قُبُورُ

سأبكي بأجفانٍ عليك قريحة

وأرنو بألحاظٍ إليك تشيرُ.

13

صَابرَ الصبرَ فاستغاث به الصبرُ

فصاح المُحبُّ: يا صَبْرُ صبرا

14

دعِ الأقمارَ تغربُ أو تُنِيرُ

لنا بدرٌ تَذلَّ له البُدورُ

لنا من نوره في كل وقت

ضياءٌ ما تغيّرهُ الدُهورُ

15

يقول بحرقةٍ وبنوحِ شوقٍ

أما والله ما في الحُبِّ عار

16

وتحسَبُني حيًّا وإنِّي لميِّتٌ

وبعضي من الهِجران يبكي على بَعْضِي

17

الدهرُ لي مأتمٌ - إن غِبْتَ يا أملي -

والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

18

قد ذلَّلَ الشَّوقُ قلبي فهوَ مُعترفٌ

أنَّ التَّذلُّلَ في حكم الهوَى شرفُ

19

هذِهِ دارُهم وأنت مُحِبٌّ

ما بقاءُ الدموعِ في الآماقِ؟

20

ولو قلت طَأ في النار بادرتُ نحوهَا

سُرورًا لأني قد خَطَرتُ ببالكا.

21

ليس تخلو جوارحي منك وقتًا

هي مشغولةٌ بِحَمْلِ هواكا

ليس يجري على لساني شيءٌ

عَلِمَ الله ذا سوى ذِكراكا

وتمثَّلتَ حين كنتَ بعيني

فهي إن غبتَ أو حضرت تَراكا.

22

الصبرُ يَجمُلُ في المواطن كلِّها

إلَّا عليك فإنّه لا يَجمُلُ

23

لستُ من جُملةِ المُحبين إنْ لم

أجعل القلبَ بيتَه والمَقاما.

24

يُحِبُّكَ قَلْبِي مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ

يُحِبُّكُ عَظْمٌ فِي التُّرَابِ رَمِيمٌ.

25

والهجرُ لو سكن الجِنانَ تحوّلتْ

نِعَمُ الجِنانِ على العبيد جحيمًا

والوصلُ لو سكن الجحيمَ تحوَّلتْ

نارُ الجحيمِ على العبيدِ نعيما.

26

ذابَ ممَّا في فؤادي بَدَني

وفؤادي ذابَ ممَّا في البدنْ

فاقطعوا حبلي وإن شئتم صِلُوا

كلُّ شيءٍ منكمُ عندي حَسَنْ

صح عند الناسِ أنّي عاشقٌ

غير أن لم يعلموا عِشقي لِمَنْ

27

ذكرتك لا أنّي نسِيتُكَ لمحةً

وأيسَرُ ما في الذكرِ ذكرُ لساني

وكِدتُ بلا وَجدٍ أموتُ من الهوى

وهام عليَّ القلبُ بالخفقانِ

فلما أراني الوجدُ أنَّكَ حاضري

شَهِدتُكَ موجودًا بكل مكانِ

فخاطبتُ موجودًا بغير تكلم

ولاحظت معلومًا بغيرِ عيانِ

28

إنَّ المحبةَ للرحمنِ تسْكِرُني

وهل رأيتَ مُحبًّا غير سكرانِ.

29

إنَّ المحبين أحياءٌ وإن دُفِنوا

في التُرْبِ أو غُرِّقوا في الماءِ أو حُرِقوا.

30

لَيْسَ مِنِّي قَلْبٌ إلَيْكَ مُعَنَّى

كُلُّ عُضْوٍ مِنِّي إلَيْكَ قُلُوبُ

=

ليس يخطر الكون ببالي، وكيف يخطر الكون ببال مَن عرف المُكوِّن؟

=

قيل للشبلي: نراك جسيمًا بدينًا، والمحبة تُضني؟

فأنشأ يقول:

أحَبَّ قلبي، ومادرى بدني

ولو درى، ما أقام في السِّمَنِ.

=

أعمى الله بصرًا يراني، ولا يرى فيَّ آثار القدرة، فأنا أحد آثار القدرة، وأحد شواهد العِزّة، لقد ذللت حتى عَزَّ في ذلي كلُّ ذُلٍّ، وعززت حتى
ما تعزز أحدٌ إلا بي أو بمَن تعززت به، وما افترقنا، وكيف نفترق، ولم يَجرِ علينا حال الجمع أبدًا.

=

الحرية هي حرية القلب لا غير.

=

أمَا والله ما في الحُبِّ عارُ.

=

الدهرُ لي مأتمٌ.

=

الحَجَرُ أوْلى بالماء.

=

قد ذلَّلَ الشَّوقُ قلبي فهوَ مُعْتَرِفٌ

أنَّ التَّذلُّلَ في حُكْمِ الهوَى شرفُ.

......

وممَّا بقي من آثاره عندي وهو قليلٌ:

- ليس مَن استأنس بالذكر كمَن استأنس بالمذكُور.

- ليس للمريد فترة، ولا للعارف معرفة، ولا للمعرفة علاقة، ولا للمحب سكون، ولا للصادق دعوى، ولا للخائف قرار، ولا للخلق من الله فرار.

- مَن عرف الله خضع له كل شيء؛ لأنه عاين أثر ملكه فيه.

- الفرح بالله أولى من الحزن بين يدي الله.

- ليس للأعمى من رؤية الجوهرة إلا مسها، وليس للجاهل من الله إلا ذكره باللسان.

- لا تأمن من نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرة «الغرور والاغترار والغفلة» إلى دار الأمل.

- إذا وجدت قلبك مع الله فاحذر من نفسك، وإذا وجدت قلبك مع نفسك فاحذر من الله.

- ما أحوج الناس إلَى سكرة، فقيل: أي سكرة ؟ فقال: سكرة تغنيهم عَن ملاحظات أنفسهم، وأفعالهم، وأحوالهم، والأكوان، وما فِيهَا، وأنشد: «وتحسَبُني حيًّا وإنّي لميّتٌ

وبعضي من الهِجرانِ يبكي على بعضِي».

- ما الحيلة ؟ قَالَ: ترك الحيلة؛ لأن الحيلة إما رشوة، أو قرار، وهما بعيدان عَن طرق الحقيقة، فاطلب الدواء من حيث جاء الداء، فلا يقدر عَلَى شفائك إلا مَن أعلك، وأنشد:

«إنّ الذين بخيرٍ كنتَ تذكُرُهُمْ

همْ أهلكوكَ وعنهمْ كنتُ أنهاكا

لا تطلُبَنَّ حياةً عند غيرِهِمُ

فليس يحييكَ إلا مَن تَوَفَّاكا»

- دخل عَلَيْهِ قوم من أصحابه وهو فِي الموت، فقالوا: قُل: لا إله إلا الله، فأنشأ يقول:

«إنَّ بَيْتًا أنتَ ساكنُهُ

غَيرُ مُحتاجٍ إلى السُّرُجِ

وَجْهُكَ المَأْمُولُ حُجّتُنا

يومَ يأتي النّاسُ بالحُجَجِ

لا أَتَاحَ اللهُ ليْ فَرَجًا

يومَ أَدْعُو منكَ بالفَرَجِ» وهي أبيات للشاعر العربي ديك الجن الحمصي (161-236هجرية /778-850ميلادية).

- سُئِلَ: مَتى يكون الرجل مرِيدًا؟ فَقَالَ: إذا اسْتَوَت حَاله فِي السّفر والحضر والمشهد والمغيب.

- سُئِلَ: بِمَ يقمع الْهوى؟ فَقَالَ: برياضات الطباع وكشف القناع.

- «نَسِيتُ اليوم من عشقي صلاتي

فلا أدري غداتي من عِشائي

فذكرك سيدي أكلي وشُربي

ووجهك إن رأيتُ شِفاءُ دائي».

- «وقال خير النسَّاج»: كنا في المسجد، فجاء الشبلي - في سُكْره - فنظر إلينا، فلم يكلمنا وهجم على الجنيد في بيته، وهو جالس مع زوجته، وهي مكشوفة الرأس، فهمَّت أن تغطي رأسها، فقال لها الجنيد: «لا عليك، ليس هو هناك» فصفق على رأس الجنيد وأنشد يقول:

عودوني الوصال، والوصل عذبٌ

ورموني بالصد، والصد صعبُ

زعموا حين أيقنوا أن جرمي

فرط حبي لهم، وما ذاك ذنبُ

لا وحسن الخضوع عند التلاقي

ما جزا من يحب إلا يُحَبُّ

قال: ثم ولى الشبلي خارجًا، فضرب الجُنيد على الأرض برجليه، وقال: «هو ذاك يا أبا بكر، هو ذاك»، وخر مغشيًّا عليه.

- المحبة كأس لها وهج، إن استقرت في الحواس قتلت، وإن سكنت في النفوس أسكرت، فهي سكر في الظاهر ومحبة في الباطن. المحبة بحار بلا شاطئ، وليل بلا آخر، وهم بلا فرح، وعلة بلا طبيب، وبلاء بلا صبر، ويأس بلا رجاء .

النفَّري الغامض المُختفي

الذي لم يكتب «المواقف والمخاطبات»

لم يشتهر كتابٌ صوفيٌّ بين الشُّعراء في العُقُود الأخيرة مثلما اشتُهِر كتاب «المواقف والمخاطبات» للنفري، والمدهش أن هذا الكتاب ليس للنفري، وإنَّما هو لمتصوف يُدْعى أبو عبد الله محمد بن عبد الله، وما محمد
ابن عبد الجبار النفري، المنسوب إليه الكتاب سوى حفيد مؤلف الكتاب، الذي اقتصر جهده - فقط - على جمع وترتيب كتاب جدِّه والتأليف بين مادته وقت أن كان حيًّا وحتى بعد رحيله.

ولم يكن النفري (الجد) يمسك قلمًا ليدوِّن، وما كتابه المعجز «المواقف – سبعة وسبعون موقفًا – والمخاطبات – ست وخمسون مخاطبةً» الذي اكتشفه ونشره المستشرق البريطاني أرثر يوحنا أربري (1905 – 1969ميلادية) سنة 1934 ميلادية إلا تأليفٌ شفاهيٌّ قاله أو أملاه أو فاض به وأشرق على مريديه وهم مَن حفظوه من الضياع، ودوَّنوه، وقد أشار إليه محيي الدين بن العربي أربع مرات في كتابه الأبرز «الفتوحات المكية»، كأنه كان يقول لابن العربي :

«تلكَ آثارُنا تدُلُّ علينا

فانظرُوا بعدَنا إلى الآثارِ»

ولولا هذه الإشارات لغاب النفري، وطُمس وحُذف من المشهد الصوفي التاريخي، فقبل ابن العربي ظل النفري منسيًّا مهملًا قرابة ثلاثمئة سنة.

ولقد أعاد ابن العربي النفري إلى المشهد، ولكن سيظل الغموض ملازمًا لحياته وسيرته سواء في مصر أو في العراق، وتصمت المصادر - للأسف - عن مدِّنا بتفاصيل ووقائع ومواقف في حياته، وهو النادر في حذفه للزائد من الكلام في الكتابة، المُقصِي للشروح والباحث فقط عن الجوهر في المتن الأساسي.

وظنِّي – ولعلَّ في الظن بعض الخطأ – أن النفري قد يكون خشي تسجيل فيوضاته وإشراقاته وتجلياته وشطحاته، كي لا يُقتل مثل الحلاج الذي قُتِل في مدينة بغداد سنة 309 هجرية، أي قبل خمس وأربعين سنة من وفاة النفري، الذي أراد أن لا يكون مصيره كمصير الحلاج خُصوصًا أن بينهما متشابهات في الكتابة والشكل والشَّطح وقلة الإنتاج الفلسفي والصوفي والشعري، وما يندرج تحت باب الشذور أو الشذرات والمناجيات (كتب 2130 سطرًا أي 213 ورقة طبقًا لمُجمل أعماله الموجودة مخطوطة في إستنبول، وهي التي كتبها في النيل «مصر»، والبصرة، والمدائن

وهي مدينة عراقية تقع على بعد بضعة كيلو مترات جنوب شرق بغداد، وفيها قبر الصحابي سلمان الفارسي، ومنها المتصوف القطب عبد القادر الجيلاني، وهو من أعمال جيلان التابعة للمدائن).

لقد عاش النفري بعد محنة الحلاج وقتله متحفظًا كتومًا مرتعدًا خائفًا من بطش الخلفاء والأمراء، ومن أهل الفقه والشريعة من كارهي المتصوفة ومكفِّريهم هو وأهل التصوف في زمانه.

فالنفري كان يخفي ويكتم ويقتّع في لغةٍ مُجرَّدة محمولة على الترميز والإشارة طوال الوقت؛ لأنه كان في نصوصه دائم الحوار مع الله حيث لا حجاب بين جوهرين: الإلهي والإنساني. ولذا نحن أمام متصوف لا سيرة ذاتية له يمكن الاعتماد عليها، والرجوع إليها.

وشرَح كتابه «المواقف» المتصوف عفيف الدين التلمساني الذي عاش في القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي، و عاش جزءًا من حياته في القاهرة عندما أتاها وهو في بدايات العقد الثالث من عمره، وعاش أيضًا جزءًا من حياته كمحيي الدين بن العربي في دمشق في حضن جبل قاسيون، وما زال مكان بيته يُعرف بـ«العفيف» نسبة إلى اسمه الأول.

وقد عاش النفري (الذي أراه جديدًا وحداثيًّا سابقًا لعصره رغم مرور أكثر من ألف سنة على وفاته) في العصر العباسي بين العراق الذي ينتمي إليه ومصر التي مات فيها سنة 354 هجرية / 965 ميلادية، ودُفن في إحدى قراها، وفي مصر كتبَ النفري – الذي يُلقَّب بالسكندري أو المصري - بعض أجزاء من كتابه «المواقف والمخاطبات»، وهو من أهل القرن الرابع الهجري، ويصفه رينولد نيكلسون (18 من أغسطس 1868- 27 من أغسطس 1945 ميلادية) بأنه «درويش جوَّاب آفاق، مغامر في أقطار الأرض»، دائم السفر والترحال في البراري، محمول على الحدس والخيال والرمز.

وكتابة النفري - التي يكشف فيها محجوبه - خاصة وفريدة وليست سهلة، ولا تتسم بالمباشرة أو الوضوح المعتاد، بل هي غريبة على الكتابة العربية ويمكن اعتبارها بحسب النفري (برزخ فيه قبر العقل وفيه قبور الأشياء).

في «المواقف» سنجد أنه ابتكر شكلًا فنيًّا جديدًا لم يسبقه إليه أحد من المتصوفة أو الشعراء أو ناثري زمانه، ويعتمد هذا الشكل على فعليْن هما: «أوقفني»، ثم: «وقال لي». حيث يعتبر النفري «الوقفة»: (خروج الهم عن الحرف وعما ائتلف منه وانفرق)، وسنلحظ منذ الموقف الأول وهو: «موقف العز» أن النفري يستفيد من اللغة القرآنية كأن ما يكتبه هو نص آخر مقدس.

وفي «موقف قد جاء وقتي» سنجد النفري يشير صراحةً إلى مصطلح «معنى المعنى» ممَّا

يعني أنه سبق دارسي الغرب لهذا المفهوم بنحو ألف سنة حينما قال: «وقال لي إشاراتي في الشيء تمحُو معنى المعنى فيه وتثبته منه لا به»، ومعنى المعنى هو: «أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر» بحسب قول عبد القاهر الجرجاني (400 - 471 هجرية /1009- 1078 ميلادية)، وقد شاع هذا المصطلح في القرن العشرين عند نقاد الغرب خصوصًا تشارلز أوجدن وزميله آيفر رتشاردز اللذين ألَّفا كتابًا عنوانه «معنى المعنى».

وفي الموقف الواحد تتولَّد مواقف كثيرة، بمعنى أننا أمام نصٍّ قصيرٍ يحوي في بنائه نصوصًا أخرى، فكثيرًا ما نجد سطرًا واحدًا يشكل نصًّا زاخمًا مُتعدِّد التأويل رغم محدودية مفرداته، فهو يختزل ويحذف ويلخِّص، ولنا في نصِّه الشهير «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» مثالًا بارزًا على ما أقول، وهو يعتمد شكل المحاورة في كل نصوص «كتاب المواقف».

قُدرةُ البشر تعجَزُ عن عبارتِه

كشفَ عن ذاته في مواقفِه ومُخاطباته. ولم يكشف عن حياته؛ فكانت صُورته قابلةً لكل تجلٍّ ومُعاينةٍ بعد معاناةٍ.

فلا أحدَ يعرفُ الكثيرَ عن حياته، إذْ عاش معتزلًا بعيدًا عن الناس، مُستترًا مخفيًّا، كثيرَ السَّفر والتجوال والسياحة في الأرض، مُكتفيًا برؤى الرُّوح، ونظر القلب، كأنه قد حُظِر عليه الكشفُ، وإذاعة السِّر، فهو غير مأذُونٍ له بهتك شطحِهِ، ونشر تجلِّيه بين الناس: «لا إذن لك، ثم لا إذن لك، ثم سبعين مرَّة لا إذن لك، أن تصفَ كيف تراني، ولا كيف تدخلُ إلى خِزانتي، ولا كيف تأخذُ منها خواتمي، ولا كيف تقتبسُ من الحرفِ حرفًا بعزَّة جبرُوتي». وقد سار في اتجاهه كل بطريقته: أبو مدين الغوث وعمر بن الفارض وابن عطاء الله السكندري.

وكان كلما ضاقَ ذهبَ إلى أهل المعرفة والعلم والتزم الصَّبرَ، وإن كانت المعرفةُ لديه أرقى، وأعلى رتبةً من العلم.

هو الكبير لكنَّ اسمَه لم ينتشر، ولم يتحقَّق لإرثه الذُّيوع، رغم فرادته وخُصوصيته وانتهاجه طريقًا خاصًّا شكلًا ومُحتوًى، ولعلَّ عفيف الدين التلمساني (610 - 690 هجرية / 1213 - 1291ميلادية) الذي شرح مواقفه، هو الأول بين الناس الذي نبَّه إلى فرادَة النفَّري، الذي يوغلُ في الباطن، مُستخدمًا أسلوبًا جديدًا لم يألفه الناس قبله، ولذا اتهم بالغمُوض والاستغلاق: «... ما رأيتُ في مكتُوبٍ، ولا سمعتُ في مسمُوعٍ منذ أكرمني الله تعالى بالانتماء إلى هذه الطائفة، أفصح عبارة عن التجليات الجزئية، من لفظ هذه التنزُّلات – المواقف - والأول على حقيقة التعرُّف، وإني

أعتقد أنَّ قدرة البشر تعجزُ عن هذه العبارة، وأنَّ هذه لقوة إلهية».

إنه محمد بن عبد الجبار النفري، الذي دومًا ما يُوجِّه نظره نحو باطنه ليتأمَّلَ : «ما أنا في شيء، ولا خالطتُ شيئًا، ولا حللتُ في شيءٍ، ولا أنا في شيءٍ، ولا من، ولا عن، ولا كيف، ولا ما لا ينقال، أنا أنا،...».

النفري صاحبُ خيال شاطح جامح، لكنهُ خالٍ من التعمُّد والتصنُّع والتكلُّف، يكتبُ كأنَّ الماء يجري في يده وهو يخط أو وهو يُمْلِي.

وقد قرأتُ النفري – الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري - مرَّاتٍ كثيرةً، ولديَّ كل الطبعات التي صدرتْ له أو عنه، ومع ذلك في كل مرة أقرأ أراني كأنَّني أبدأ من جديدٍ، وأخرجُ بانطباعاتٍ ونتائج مُغايرةٍ لما هو عندي.

«الله يعلم بجليَّة أمرِه» هذه الجُملة الملتبسة والمُحيِّرة ذكرها عفيف الدين التلمساني الذي لم يكُن يحب لأحدٍ أن يكشفَ مَن يكون، لقد كان سائرًا في طريقِ القوم الصُّوفيِّ، يكتب إشاراته من دُون ترتيبٍ أو اهتمامٍ؛ لأنه لم يكُن معنيًّا بالخلود أو بترك أثرٍ له، يذكر التلمساني: «إنَّ الذي ألَّف هذه المواقف هو ولد ولد الشيخ النفَّري رحمه الله، وليس هو الشيخ نفسه، إذ كان الشَّيخ لم يؤلف كتابًا، إنما كان يكتبُ هذه التنزُّلات في جُزازات أوراق نُقلت بعده، فإنه كان مُولهًا لا يقيمُ بأرضٍ، ولا يتعرَّضُ لأحدٍ،...، وإنَّ الذي ألَّف هذه المواقف لم يكُن هو النفَّري، بل هو بعض أصحابه، وقيل هو ابن بنته».

والتأليف هنا معناه الترتيب الذي وصلَ إلينا.

يقول الأب بولس نويا اليسوعيّ (1925 – 1980 ميلادية) صاحب كتابيْ «نصُوص صوفية غير منشورة»، و«التأويل القرآني واللغة الصوفية»: إنَّ النفَّري كان «يسجِّل في كراسةٍ أو دفترٍ حصيلة كل رؤية، بعض هذه الكراسات دُوِّن في فترة وجوده بمصر، والبعض الآخر بالبصرة، والثالث بالمدائن (عاصمة ملك فارس، وكانت مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم، وسمَّاها العرب المدائن لأنها تتكوَّن من سبع مدائن، وبينها وبين بغداد خمسةٌ وعشرون ميلًا، وبها إيوان كسرى، وهو قصرٌ من قُصور كِسرى أنوشروان الذي تهدَّم وبقيت آثاره في مدينة المدائن)، أعيد نسخُ هذه الكراسات كيفما اتفق، من دُون اهتمام بالترتيب الزمني لتأليفها».

وإن كان النفَّري قد ألهم شعراء عرب كثيرين، فقد ألهم الكثيرين من القدماء، وكان في مقدمتهم ابن قضيب البان (971 - 1040 هجرية) الذي كتب «المواقف الإلهية» على وتيرة

«المواقف» للنفَّري، وقلَّد أيضًا ابن العربي حيث كتب «الفتوحات المدنية» والتي ألَّفها على وتيرة «الفتوحات المكية»، وكتب شعرًا تائيةً على وتيرة «التائية الكُبرى» لعمر بن الفارض. وأذكرُ هنا أنَّ ابنه الشَّاعر الشَّاب الظَّريف (661 - 688 هجرية /1263 - 1289ميلادية) الذي وُلد بمصر، وعاش في دمشق؛ حيث وُلي أبوه عمالة الخِزانة بها، والذي مات في السابعة والعشرين من عمره، كان أشعرَ من أبيه.

سلَك النفَّري رياضاتٍ ومُجاهداتٍ رُوحيةً مُتواصلةً بالوهْب لا بالكسْب، بدت في سلوكه وطقوسه في الحياة سعيًا إلى الذهاب في رحلته نحو الله، إذْ كان حبُّه مُنزَّهًا عن أيِّ غرضٍ أو هدفٍ، حيث كان شريفَ المقصد عفيفَهُ: «وقال لي: اخرج إلى البرية الفارغة، واقعد وحدك حتى أراك، فإني إذا رأيتك، عرجت بك من الأرض إلى السماء، ولم أحتجب عنك».

ولذلك وصل إلى «أعلى درجات الفناء»، حيثُ جاز الكون، يقول النفَّري في «المواقف»: «وقال لي : إذا خرجت عن الحرف خرجت عن الأسماء، وإذا خرجت عن الأسماء خرجت عن المُسمَّيات، وإذا خرجت عن المسمَّيات خرجت عن كل ما بدا، وإذا خرجت عن كل ما بدا قلت فسمعت ودعوت فأجبت».

النفَّري الذي شغل الدنيا، ووقف أمام حرْفِهِ كبار الصوفية كان مُقلًّا، ولم يترك الكثير من المصنَّفات، لكنَّ قليله الذي بدأ العالم يعرفه منذ سنة 1934 ميلادية على يديْ المستشرق الإنجليزي أرثر أربري قد لفت انتباه أهل الحَرْف والكتابة، وإن كان النفَّري موجودًا في المتنِ الصوفيِّ ومُشارًا إليه من الكبار (وكان محيي الدين بن العربي أول مَن أشار إلى - المواقف - في كتابه الأساسي «الفتوحات المكية»، وأول مَن شرَحَها هو عفيف الدين التلمساني سنة 690 هجرية)، فإنَّ الكسلَ العربي الأكاديمي مارس مهامه في التأسِّي والتبعية، وترك للآخر المستشرق أن يقدِّمه لنا، ومثل النفَّري الكثير، وعلى رأسهم الحلاج الذي قدَّمه لنا المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون.

«المواقف والمخاطبات» كتابٌ لا نظيرَ له في التراث الصُّوفي جوهرًا وشكلًا، غير مسبوقٍ في اللغة العربية.

قد جاء وقتي وآنَ لي أن أكشفَ

عاش النفَّري صاحبُ «المواقف» و«المُخاطبات» يسترُ معانيه عن سواه؛ ساعيًا إلى الرؤية في زمن أبي نصر الفارابي، وأبي حيان التوحيدي، وأبي الطيب المتنبي في مُنتصف القرن الرابع

الهجري – العاشر الميلادي - كان حذرًا مخفيًّا متكتمًا متحفِّظًا مضمِرًا صامتًا بسبب مقتل الحلاج، كما كان هناك حيطةٌ وتخوُّفٌ من فقهاء السلاطين المُتشدِّدين الذين يكرهون التصوُّف والمتصوفة، وهو ما فعلوه مع الحلَّاج وغيره، وإذا كان الحلاج قد نطق وتكلم؛ فقد صمت الجُنيد خوفًا من مصير الحلاج. إذ اتُّهم الحلاج بالكُفر والفِسق والزندقة قبل أن يُسجن ويُقتل بعدها.

لقد لجأ النفَّري إلى التستُّر والتقية خَشيةً من السلطتين السياسية والدينية، بعدما صار عددٌ كبير من الفقهاء نائمين في حِجْر الخُلفاء والأمراء، ينفِّذُون أوامرهم، ويُفصِّلون لهم الفتاوى بالمقاس الذي يطلبون، بل ويُقدِّمون المتصوفة إلى مذبح السلطان كي يشنقه، ويقطع جسده إلى أجزاء، ثم يحرقها، ويُذرِّي رمادها.

حيث أخرج اللغةَ من قفصِها، بإيجازٍ نادرٍ، وتكثيفٍ غير مسبوقٍ، وأنطق ذاته في إشراقِها وتجلِّيها وصمتِها، وكان مُنشغلًا بحاله، وليس بما سيكونُ عليه اسمه في مُدونة التاريخ، وذلك قمة الزُّهد والتخلِّي عن الشواغل، والاستغناء. وترك ما سوى الله، وهو ما تجلَّى في عدم جمع كتابته: «الحرفُ يعجزُ عن أن يخبر عن نفسه، فكيف يخبرُ عني».

كان سائحًا مولَّهًا، «هام بحُبِّ الله، وتاه في طلبه، وتولَّه بذكره، ومات باسمه». كأنَّني أراهُ في سياحاته الآن لا يبيتُ في منزلٍ ليلتين متعاقبتين.

لا توجدُ لغةٌ تشبهُ لغة النفَّري عند سواه من الصوفيين، فهي جديدةٌ في حرفِها وعبارتها ومعناها ووجْدِها: «إذا جئتني فألقِ العبارةَ وراء ظهرِكَ، وألقِ المعنى وراءَ العبارةِ، وألقِ الوجدَ وراءَ المعنى».

النفَّري تطاوعُه لغتُه، يكتبُ بسلاسةٍ، ويحشدُ للمعاني في غزارةٍ غير مسبوقةٍ، على الرغم من تجريدِه وتلخيصِه، وحذفه المستمر ساعة الفيض، ومن الصَّعبِ أن نضعَ النفَّري في دُرجٍ أدبيٍّ ما، أي هو عصيٌّ على التصنيفِ الأدبيِّ والأكاديميِّ.

إنه نصٌّ شعريٌّ، ونثريٌّ، وفلسفيٌّ في آنٍ.

هو إذن خارجُ المألوفِ والمُعتاد والمُتاح .

هو يمزجُ بين كلِّ هذا.

محيي الدين بن العربي – الذي كان أوَّل مَن كشف عن اسمه وأخرجه إلى النُّور، بعد تجاهلٍ وصمتٍ وربما نسيان دام نحو قرنين من الزمان - يرى النفَّري «من رجال الله»، ويسمِّي كتابه «كتاب المواقف» بـ«كتاب المواقف والقول»، ويرى أنه «كتابٌ شريفٌ يحوي على علوم آداب

المقامات»، وهناك إحدى المخطوطات التي تسمِّيه «كتاب المواقف مع الحق على التصوُّف». بينما القاشاني (توفي نحو 730 هجرية / نحو 1330 ميلادية) يذكرُ في كتابه «لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام» الكتاب باسم «المواقف النفَّرية».ويراه الذهبي: صاحب «المواقف» والادِّعاءات والبِدَع.

ومَن يقرأ النفَّري سيلحظ أنه كان متأثرًا إلى حدٍّ كبيرٍ بالديانات القديمة، التي كانت موجُودةً في المحيط الذي عاش وتنقَّل فيه، وسافر إليه مثل البوذية والمانوية، حيث كانت بابل مكانًا للديانة المانوية (هي ديانة نشأت في القرن الثالث الميلادي، من حضن الديانة المندائية،

«إن الحكمة والمناقب لم يزل يأتي بها رسل الله بين زمن وآخر، فكان مجيئها في زمن على يد الرسول (بوذا) إلى بلاد الهند، وفي زمن على يد (زرادشت) إلى أرض فارس، وفي زمن على يد (عيسى) إلى أرض المغرب (الشام)، ثم نزل هذا الوحي وجاءت النبوة في هذا الزمن الأخير على يديَّ أنا (ماني) رسول إله الحق إلى أرض بابل...»، لقد «عُذِّب (ماني) وصُلب وقطِّعت أطرافه؛ ثم أُحرقت جُثته، ونُثر رماده».)، وقد أثر فيه هذا التراث الديني إذ بقي أثرُ هذه الديانات موجودًا ونشطًا حتى بعد ظهور الإسلام. فالمانوية كانت موجودة في زمن الخلافتين الأموية والعباسية، ونِفَّر (أو نيبور السومرية)، التي ينتمي النِّفَّري إليها، كانت شديدة القرب من بابل، مدينة ماني، بل عاصمة الديانة المانوية.

وقد اتُّهم كثيرون بالمانوية مثل: صالح بن عبد القدوس، وبشار بن برد، وأبو نواس، وأبو العتاهية، وحماد الراوية، وعبد الله بن المقفع، وسواهم الكثير.

الصمت والكتمان كانا نهج النفَّري في حياته خشية البطش؛ حتى إنه عاش مجهولًا في زمانه، ولم يكتب عنه مؤرخو عصره، ولولا أن نصَّه كان فارقًا ما عرفه أحدٌ، ولا اجتازت كتابته قرونًا وحواجز وتشدُّدًا من الفقهاء .

فلم تذكره الكُتب الكبرى التي أرَّخت للمتصوفة من مختلف الطبقات والدرجات مثل «طبقات الصوفية» للسلمي، و«اللمع» للطوسي، و«تذكرة الأولياء» للعطَّار، وسواها من الكتب.

لا أحبُّ الشَّرح، ومن ثم لا أحبُّ شرحَ مواقف ومُخاطبات النفَّري، إنني أقرؤه للمُتعة واللذَّة الرُّوحية، ولا أطبِّق على نصِّه منهجًا ما في التلقِّي؛ لأنَّ صوفيًّا مثله حين يكتبُ، لا يعرفُ هل هو في الحُضُور أم الغياب، في المحْو أو الإثبات. وكان قد شرح مواقفه عفيف الدين التلمساني الذي توفي بعد ثلاثمئة وست وأربعين سنة على رحيل النفري.

وكتابا النفَّري، اللذان نشرهما المستشرق أرثر يوحنا أربري في القاهرة سنة 1934 ميلادية - الذي كتب عن النفَّري في تقديمه للكتاب إنه: «سائح وكاتب مترسّل، لكنه كان قبل كل شيء مفكرًا أصيلًا، متقدًا، ذا قناعة واضحة بأصالة تجربته» - من الكُتب القليلة في حياتي التي أستعيدُ قراءتها مرَّاتٍ؛ لأنَّني في كل مرة أرى جديدًا، وأضيف إلى نفسي معرفة كانت مُستترةً ومُضْمَرة بين السُّطور، فأنا أحبُّ أن أكون ضيفًا عليه، مُحتفيًا به ومحتفلًا.

وكان أدونيس قد عثر على كتاب النفَّري في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، وبدأ منذ 1965 ميلادية يبشِّر بنصوص النفَّري، واعتبره صوفيًّا «يضيء الكتابة العربية الحديثة والكتابة إطلاقًا»، «يتحرَّك بين النطق والصمت، صامتًا في نطقه وناطقًا في صمته»، «لعلَّ أعمق ما يميِّز شعرية هذا النص هو أن تفجُّر الفكر فيه إنما هو تفجُّر اللغة نفسها. ويمتلئ هذا التفجُّر بالإشراقات المُفاجئة والتوترات المتضادة المتعانقة»، «الفكر هنا شعرٌ خالصٌ والشعر فكر خالص»، «يرفع الكتابة إلى مستوى الأسطورة؛ فكتابته تدعونا لكي نفهمها بحركة الأحشاء ونبضات القلب، كما لو أن علينا أن ننصهر فيها، أن نتماهى معها، كما نتماهى مع طفولتنا ولا شعورنا. ونصه هو نص يقول لنا إن الحقيقة شوق، وهي غير موجودة بوضوحها الكامل، أي بغموضها الدال، إلا في اللغة، أعني الشعر»، «تجربة قلبية لا تجربة عقلية، وتجربة كتابية، بدءًا من القطيعة مع الواقع، ومن الصلة مع المتخيل. إنها تجربة تتجاوزُ إمكانات الواقع من أجل أن تُحْسِن الغوص في داخله، وتحسن استقصاء ما يضمره، فهي تجربة رموز وإشارات وتلميحات»، «النص هنا يقول أكثر ممَّا يقول ظاهر كلماته، وتتقاطع فيه أبعادٌ ودلالاتٌ تجسِّد لغة تفرضُ التواصل معها ذوقيًّا أو حدسيًّا».

مع النفري أنت تنهضُ وتسمقُ وتسمُو: «إذا رأيتني استوى الكشفُ والحجاب».

تبني ولا تهدم، تعرف بيتك بعدها، لكنك تحار في الطريق الذي تسلكُ: «إذا جئتني فألقِ العبارةَ وراء ظهركَ، وألقِ المعنى وراءَ العبارة».

ولا يعني صمت النفَّري أنه كان متخاذلًا جبانًا، ولاحظ هنا رؤيته، حيث يبدو أنه كان يجاهد ويكافحُ ويرفضُ عبر حرفه:

= وقال لي قد جاء وقتي وآنَ لي أن أكشفَ عن وجهي وأظهر سبحاني ويتصل نُوري بالأفنية وما وراءها... وترى عدوي يحبُّني وترى أوليائي يحكمون... وأعمر بيُوت الخراب وتتزينُ بالزينة الحق، وترى قسطِي كيف ينفي ما سواه، وأجمعُ الناسَ على اليُسر فلا يفترقون ولا يذلون، فأستخرج كنزي ويتحقَّق ما أحققتك به من خبري وعدَّتي وقرب طلوعي، فإني سوف أطلع وتجتمع

حولي النجوم، وأجمعُ بين الشمس والقمر.

= كذلك يقول الرب إني طالعٌ على الأفنية أتبسَّم، ويجتمعون إليَّ ويستنصرني الضعيفُ ويتوكلون كلهم عليَّ... فلتنتبهي أيتها النائمةُ إلى قيامك... فارجمي الدُّور بنجومكِ واثبتي القطبَ بأصبعك والبسي رهبانية الحقِّ ولا تنتقبي، إنما الحكم لك، وعود البركة بيمينك، فذلك أريد وأنا على ذلك شهيد...

= كذلك يقول الربُّ أقبل ولا تراجع، وأنظم لك القلادة وأخرج يديَّ إلى الأرض ويرونني معك وأمامك.

= فابرزي من خدرك؛ فإنَّني أطلع عليك الشمس، وخذي عاقبتك بيمينك، واشتدِّي كالرياح، وتدرَّعي بالرحمة السابقة، ولا تنامي فقد أطلعت فجرك وقرب الصباحُ منكِ.

كتابٌ عظيمٌ صاحبُه مجهول

ابتعدَ ونأى واحتجبَ؛ لأنهُ أدرك أنَّ الفقهاءَ والخلفاءَ والأمراءَ والسلاطين وأهلَ السُّلطة السياسية والدينية معًا يكرهون المُتصوفة ويعادونهم ويحاربونهم، ويُؤلِّبُون العامَّةَ عليهم، بعد اتهامهم بالفِسق والكُفر والزَّندقة والخرُوج على الدين، وينزِلون بهم أقسى أنواع العذاب، وقد رأى النفَّري مِحنَ مَن سبقوه وعاصروه؛ فآثر الصَّمت، الذي صار جُزءًا مهمًّا في نصِّه، وليس في سلوكِهِ الحياتي فقط.

وعلى الرغم من أنَّ نصوصَ النفَّري، نصنِّفُها كُتبًا صُوفيةً تراثيةً قديمةً، فإنها حديثةٌ وجديدةٌ في شكلها وبِنيتها، بل صارت أحدَ روافد الإلهام لدى الشُّعراء والكُتَّاب منذ حقبة الستينيات من القرن العشرين الميلادي وحتى يومنا هذا، بل إنَّ نتاجَ النفَّري مطبُوعٌ في كلِّ البلدان العربية، ومدرُوسٌ في أقسام الفلسفة بالجامعات العربية، ويعتبرُهُ الكثيرون أحدَ أهم الكتب العربية على الإطلاق.

ولعل «المواقف والمخاطبات» هو المتنُ الوحيدُ الذي صمد وانتصر لنفسه أمام مِصفاةِ الزَّمن، من دون أن تكونَ هناك سيرةٌ ذاتيةٌ وحياتيةٌ لصاحبه، إذْ كتبَ، وتركَ، وما خطَّه بقِي ووصل إلينا. وصار كتاب النفَّري هو الدليلُ عليه والسيرة له، ومنه نستخرج منهجه ومواقفه؛ لأنَّ الكتابةَ ما هي إلا تعبيرٌ عن رُوح وعقل كاتبها.

فقد رآه صديقي المستشرق الإيطالي الأب جوزيبي سكاتولين «صوفيًّا عميقًا، بل عبقريًّا، ممَّا يجعلنا نعتبرُهُ من أعمق المفكرين في الإسلام».

يقول النفَّري في كتاب «المواقف»: «وقال لي: لا يكُون المُنتهى حتى تراني من وراء كل شيء.

وقال لي: نَمْ لتراني، فإنك تراني؛ واستيقظ لتراك، فإنك لا تراني.

وقال لي: كلُّ واقفٍ عارفٌ، وما كلُّ عارفٍ واقف.

وقال لي: فإنَّ العارفَ كالمَلِك يبني قصورَه من المعرفة فلا يريد أن يتخلَّى عنها.

وقال لي: المعرفةُ نارٌ تأكلُ المحبَّة.

وقال لي: من علوم الرُّؤيا أن تشهدَ صمتَ الكل، ومن علوم الحجاب أن تشهد نطق الكل».

ويقول النفَّري في كتاب «المُخاطبات»:

يا عبد اجعلني صاحب سرك أكن صاحب علانيتك. يا عبد اجعلني صاحب وحدتك أكن صاحب جمعك. يا عبد اجعلني صاحب خلوتك أكن صاحب ملائك. يا عبد كيف تيأس مني وفي قلبك متحدثي.

يا عبد اصبر لي يومًا أكفك غلبة الأيام.

متن النفري يحتشدُ بتعدُّد الأصوات المتكلمة والأبنية والأشكال، فهو نصٌّ غنيٌّ بالخيال، والإشارة، والرمز الذي يحتاج إلى تفكيكٍ وتأويل.

ومع ذلك فإنَّ ما يستخدمه النفَّري من كلمات لا تغطي مساحة روحه ولا تستوعب ما يرغب ويهدف إلى الوصُول إليه، وأنه عاجزٌ أمام الحرف، وحائر أمام قصاصة الورق التي يكتب عليها، وإلا ما كان قال قولته التي اشتهرتْ وذاعت: «..كلما اتسعت الرؤية..ضاقت العبارة..».

وحين كتب النفَّري لم يكُن يبحثُ لنصِّه عن شكلٍ أو جنسٍ أدبيٍّ، هو كتب فقط نفسه بحريةٍ شديدةٍ، وكان متحدًا مع ذاته؛ ولذا جاء نصُّه غريبًا ومُلغِزًا وجديدًا على الذوق العربي وقتذاك وما زال قادرًا على الإدهاش.

وقال النفَّري : «الحرفُ خزانةُ الله، فمَن دخلها فقد حمل الأمانة، والحرفُ دليلُ العلم والعلم معدنُ الحرْف».

أرثر أربري مُكتشِف «المواقف والمُخاطبات»

لم أنسَه يومًا، فقد ارتبط اسمه باكتشاف ونشر أحب الكُتب لديَّ وهو «المواقف والمخاطبات»، إذ بذل جهدًا علميًّا كبيرًا لنشر هذا الكتاب ليس لنا نحن العرب ولكن للإنسانية؛ لأنه قدم المتن العربي مرفُوقًا بترجمةٍ إنجليزيةٍ له.

وقد أصدره محقَّقًا بعد مقابلته على سبع نسخٍ، وقدَّمه لنا مع مقدمةٍ عن الكتاب وتاريخه جاءت

باللغة الإنجليزية، وطبعه عام 1934ميلادي في مطبعة دار الكتب المصريّة بالقاهرة، وكانت علاقة أربري مع النفَّري قد بدأت مع أول بحثٍ نشره عنه في مجلة الثقافة الإسلامية عام 1930ميلادي.

هو أرثر جون أربري Arthur John Arberry (12 من مايو 1905 - 2 من أكتوبر 1969ميلادية) مستشرقٌ بريطانيٌّ اختصّ في التصوّف والأدب الفارسي. ولد في حي فراتون من أحياء بورتسموث جنوبي إنجلترا، وهو الابن الرابع من بين خمسة أولاد. وكان والده ضابطًا في البحرية الملكية البريطانية. ويقول عن أبويه «إنهما كانا مُولعيْن بقراءة الكُتب الجيدة، وقد ربَّيا أبناءهما على أن يكونوا مسيحيين أتقياء، وأن يتذوقوا الأدب الجادّ».

درس الثانوية Grammar School في بورتسموث، ولتفوقه حصل على منحة دراسية لدراسة الآداب الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) في كلية بمبروك Pembroke من جامعة كمبردج عام 1924 ميلادي بوصفه الطالب الأول في السنة. ودرَسَ العربية والفارسية؛ حيث درس العربية على يد رينولد نيكلسون (1285 - 1364 هجرية / 1868 - 1945 ميلادية) سنة 1927 ميلادية، وتأثر به كثيرًا وتوثَّقت بينهما مودَّة حتى وفاة هذا الأستاذ.

وقد حصل على المرتبة الأولى مرتيْن في مواد الدراسات الشرقية (1929ميلادي). ولتفوقه هذا مُنِح ميدالية وليم براون، كما نال عدة منح أخرى، واختير في عام 1931 ميلادي زميلًا باحثًا في كلية بمبروك التي تخرج فيها.

ثم ارتحل إلى مصر عام 1931 ميلادي لمواصلة دراسته للغة العربية، وعُيِّن في كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة اليوم) رئيسًا لقسم الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية)، وبقي في هذه الوظيفة من أكتوبر 1932 حتى يوليو 1934 ميلادية. ونشر في مجلتها كتاب «النبات» المنسوب إلى أرسطو، وهو في الحقيقة لنقولاوس، وزوَّده بتعليقاتٍ وفيرة، وخلال إقامته في مصر زار فلسطين ولبنان وسورية لجمع مواد لأبحاثه المقبلة.

وقد تعرَّف إلى سيرينا سيمونز Sarina Simons، ثم اقترن بها في كمبردج في 1932ميلادي. وبعد زواجهما عادا إلى مصر، وهي رُومانية الأصل، وأنجبا طفلتهما الوحيدة أنًّا سارا في القاهرة.

اعتمد أربري على قاموس أكسفورد الجديد عندما أراد إعطاء تعريف للمستشرق، فقال إنه هو «مَن تبحَّر في لغات الشرق وآدابه». وبينما كان يمضي إجازته عام 1934 ميلادي في إنجلترا عُيِّنَ مساعدًا محافظًا في«مكتبة الديوان الهندي» بلندن.

ومنحته جامعة كمبردج درجة الدكتوراه في الآداب عام 1936ميلادي. وفي هذه السنة أيضًا أصدر «فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الديوان الهندي». وأتبعه في عام 1937 ميلادي

بكتاب «فهرست الكتب الفارسية» في المكتبة نفسها. وتتابعت بعد ذلك أعماله في فهرسة المخطوطات العربية والفارسية.

ولمَّا اندلعت الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر 1939 ميلادية، انتُزِع أربري من أعماله العلمية المفيدة، ونُقل إلى قسم الرقابة على البريد التابع لوزارة الحرب في ليفربول، فأمضى فيه ستة أشهر، نُقل بعدها إلى وزارة الإعلام في لندن، فبقي في هذا العمل طوال أربع سنوات يصدر بنفسه، أو مع غيره، منشوراتٍ لا نهاية لها للدعاية البريطانية في الشرق الأوسط، باللغتين العربية والفارسية، بل إنه ظهر في فيلم للدعاية البريطانية.

وتكفيرًا عن هذه «المهمَّة المنحطة»، فكَّر أربري في تقديم الشَّرق إلى الغرب بترجمة كتبٍ عربية وفارسية وتأليف كتبٍ وأبحاثٍ لتفهيم الأوروبيين حقيقة الإسلام: حضارته وآدابه وعقيدته.

يقول أربري: «قبل أن يتيسَّر إقرار الحق عن الشَّرق وشُعوبه في الضمير المشترك للغرب، ينبغي إزالة حشدٍ هائل من الباطل وسُوء الفهم والأكاذيب المتعمَّدة. وإنه لجزء من واجب المستشرق ذي الضمير الحيّ القيام بهذه الإزالة. لكن لا تدعه يحسب أن هذه المهمَّة سهلة أو أنه خُصوصًا سيلقى عنها الجزاء».

وقد أبلى أربري في هذا السبيل خير بلاءٍ، يشهد على ذلك إنتاجه: من كُتب، وتحقيقات لمخطوطات، وترجمات، ومقالات علمية ممتازة، وما أشرف على نشره من كتب، وهي تقاربُ المائة على هيئة كتب، والسبعين على هيئة مقالات علمية.

وخلال عمله في وزارة الإعلام، أصدر في هذا المجال، أي على سبيل الدعاية، كتابًا بعنوان «الإسهام البريطاني في الدراسات الفارسية» (1942 ميلادية)، وآخر بعنوان: «المستشرقون البريطانيون» (1943 ميلادية).

ولما تقاعد مينورسكي V.F. Minorsky في 1944ميلادية، عُيّن أربري مكانه أستاذًا للغة الفارسية في «مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية». ومن أجل عمله الجديد هذا أصدر متونًا لتعليم الفارسية. فنشر في 1944 ميلادية كتاب «قراءة في اللغة الفارسية الحديثة». وفي 1945 ميلادية نشر الفصلين الأولين من «جولستان» سعدي الشيرازي مع تعليقات. وفي 1958 ميلادية أصدر كتابًا بعنوان: «الأدب الفارسي الكلاسيكي». وفي 1965 ميلادية أصدر كتابه: «الشِّعر العربي».

وبعد عامين من تعيينه في «مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية» صار أستاذًا لكرسي اللغة العربية، وانتُخب رئيسًا لقسم الشَّرق الأوسط في تلك المدرسة. لكنه لم يستمر طويلًا، إذ استقال

أستوري C.A. Storey من منصبه أستاذًا لكرسي توماس أدمز في كمبردج، 1947ميلادية، فعُرض هذا المنصب على أربري؛ فقبله وصار أستاذًا في جامعة كمبردج ابتداءً من عام 1947 ميلادية. وكان هذا، كما قال عن نفسه «أعظم شرف طمحت إليه: أن أكون خليفة لهويلوك Wheelock وأوكلي Ockley، وصمويل لي Samuel Lee، ورايت Writght وبراون Brown ونيكلسون Nicholson» وهم أعلام المستشرقين الذين تعاقبوا على كرسي الدراسات العربية والإسلامية في جامعة كمبردج. وعلى الفور أعيد انتخابه زميلًا في كليته القديمة، كلية بمبروك. وألقى محاضرته الافتتاحية في 30 من أكتوبر1947 ميلادية بعنوان: «المدرسة العربية في كمبردج»، فيها أشاد بذكرى أسلافه في هذا المنصب وأعمالهم، منذ سنة 1632ميلادية، تاريخ إنشاء كرسي الدراسات العربية والإسلامية في جامعة كمبردج.

ومن كتبه التي تركها غير تحقيقه وترجمته إلى الإنجليزية «المواقف والمخاطبات» للنفَّري بدعوة من رينولد نيكلسون، تحقيق كتاب «التعرُّف إلى أهل التصوُّف» للكلاباذي، وهو من أقدم الكتب في التصوُّف (القاهرة 1934ميلادية)، وترجمه إلى الإنجليزية بعنوان The Doctrine of the Sufis (كمبردج 1935ميلادية). فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الديوان الهندي – لندن، 1936ميلادية. فهرست الكتب الهندية بالمكتبة نفسها 1937 ميلادية . تحقيق كتاب «الرياضة» للحكيم الترمذي، طبع في القاهرة 1947ميلادية. «خمسون قصيدة لحافظ» الشيرازي، مع ترجمة إلى الإنجليزية. «صفحات من كتاب اللمع» وقدَّم له بمقدمة عن أستاذه نيكلسون. ترجمة «زنبقة سينا» لمحمد إقبال، الشاعر الهندي الكبير. وقد واصل بعد ذلك ترجمة قصائد لمحمد إقبال هي: «مزامير فارسية» 1948 ميلادية، «أسرار بيخودي» (أسرار اللاذات)، 1953ميلادية. جاويد نامه، 1966ميلادية. ترجمة مسرحية «مجنون ليلى» لأحمد شوقي. ونشرها عام 1933ميلادية.

كما نشر كتاب «الصدق» للخرَّاز مع ترجمة إلى الإنجليزية. واختار نماذج من الخطوط العربية والفارسية الموجودة في مكتبة الديوان الهندي، ونشرها بعنوان: specimens of Arabic and Persian Paleography، 1939.

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي في موسوعته عن المستشرقين: أنَّ أرثر أربري عثر في مجموعة شستر بيتي على مخطوط لـ«رباعيات الخيام» فنشره في 1949 ميلادية، وترجمه في 1951ميلادية. كما عثر على مخطوطٍ آخر «لرباعيات الخيام»، فاقتناه لمكتبة جامعة كمبردج في 1950ميلادية، وترجمه في 1952ميلادية.

وفي 1956 ميلادية أعاد نشر الترجمتين اللتين قام بهما إدوارد فتزجرلد Edward Fitzgerald مترجم الخيام الشهير لقصيدة «سلامان وأبسال» نظم عبد الرحمن الجامي الشَّاعر الصوفي الفارسي. وزوَّد هذه النشرة بترجمةٍ حرفية جديدة قام بها لهذه القصيدة، مع مقدمة طويلة مستمدة من مواد موجودة في «محفوظات فتزجرالد» في مكتبة جامعة كمبردج، ومن المنبع نفسه استقى المادة لمقدمة كتابه «قصة الرباعيات» (1959ميلادية).

وفي أوائل الخمسينيات أخذ أربري على عاتقه القيام بترجمة جديدة للقرآن. فأصدر أولًا ترجمة لمختاراتٍ من بعض آيات القرآن، مع مقدمة طويلة، وصدر ذلك بعنوان The Holy Koran، وهو المجلد التاسع من سلسلة بعنوان: «الكلاسيكيات الأخلاقية والدينية للشرق والغرب»، وقد أشرف على إصدار هذه السلسلة ابتداءً من عام 1950ميلادي. وفي 1955 ميلادية أصدر ترجمته المفسّرة للقرآن تحت عنوان: The Koran Interpreted في مجلَّدين. وكما يدل عليه العنوان، فإن هذه ليست ترجمة حرفية، بل ترجمة مُفسّرة Interpreted تعطي المعنى في أسلوبٍ رشيقٍ جميلٍ، من دون التقيُّد بحرفية الآيات ولا تسلسل تركيبها اللغوي. إنها أجمل في القراءة من أية ترجمةٍ أخرى للقرآن إلى أية لغة، لكنها لا تغني عن الترجمات الدقيقة مثل ترجمة رودول Rodwell الإنجليزية، أو ترجمة بلاشير الفرنسية. ومع ذلك فهي من أجلّ أعمال الاستشراق، وأعظم إنتاج أربري.

ومنذ 1956 ميلادية تحالفت الأمراض والآلام على أربري، وظل يعاني منها معاناةً شديدة حتى توفي في الثاني من أكتوبر 1969 ميلادية في بيته بكمبردج.

وقد كان أربري هادئ الطبع، صافي الضمير، يحبه كل مَن يعرفه، وكان مرهف الإحساس الشعري، رشيق الأسلوب، واسع الاطلاع على كل ما يتصل باهتماماته من أبحاث. وهو أشبه ما يكون بأستاذه نيكلسون: إنتاجًا وأخلاقًا وذوقًا أدبيًّا وجمال أسلوب.

وهناك ببليوغرافيا بأهم أعمال أربري، وقد ترجمها د. حسين يوسف حسين.

عبد الوهاب عزام يكتب عن صديقه أربري سنة 1935

وأنا أبحثُ وجدتُ مقالًا نادرًا منشُورًا في السادس من مايو سنة 1935 ميلادية للدكتور عبد الوهاب عزَّام (1 من يناير 1894/ 1 من يناير 1959 ميلادية) نشره في العدد 96 من مجلة «الرسالة» الشهيرة، بمناسبة إصدار صديقه أربري لكتاب «المواقف والمخاطبات» للنفَّري:

1- الأستاذ نيكلسون أستاذ الأدب العربي بجامعة كمبردج، أحد العلماء الأوربيين الذين عنوا بدراسة التصوف الإسلامي، وبلغوا في درسه والعلم بتاريخه درجة عالية.

وللأستاذ نيكلسون أياد مشكورة في ترجمة كتب التصوف الفارسية والعربية إلى الإنجليزية، ونشر نصوصها، والكتابة في كثير من مباحث التصوف. وأعظم مآثره في ذلك ترجمته الكتاب الخالد، كتاب المثنوي إلى الإنجليزية، ونشره الأصل الفارسي في طبعةٍ مرتبةٍ مصححةٍ، لا تقاس بها طبعة أخرى؛ ولا ريب أن الأستاذ يعد اليوم من أئمة هذا الشأن في المشرق والمغرب.

2- وللأستاذ نيكلسون تلاميذ نهجوا نهجه واقتفوا أثره في العناية بالتصوف الإسلامي، والاهتمام

بإحياء كتبه ونشرها.

ومنهم صديقنا النابغة العلامة أربري الذي سعدنا بصحبته حينًا في كلية الآداب، ثم شقينا بفراقه هذا العام، إذ ولي منصب في المكتبة الهندية بلندن وكان صديقنا أربري، زمان إقامته بالقاهرة، دائب البحث عن المخطوطات الصوفية، يواصل الجهد في تصحيحها ومقابلة بعضها ببعض، ونسخها بخطه العربي الجميل، وقد يسر له أن يجمع جملة نادرة من رسائل التصوف وكتبه، منها: رسائل المحاسبي والسلمي من متقدمي الصوفية.

ثم بدأ ينشر ما جمعه وصحَّحه، فطبع في القاهرة كتابيْ «المواقف والمخاطبات» اللذين نكتب عنهما اليوم، وترجمهما إلى الإنجليزية، ثم نشر الأصل والترجمة في كتابٍ واحدٍ، وكتب له مقدمةً نفيسةً.

3-محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري، أحد صوفية القرن الرابع الهجري، توفي سنة 354 هجرية أو بعدها بقليل. وينسب إلى قرية نفر إحدى قرى العراق، وهي مدينة نبور البابلية القديمة.

ويقال إنَّ أبا الشيخ كان جوَّالًا في البراري لا يستقر في مكانٍ، ولا يسكنُ إلى إنسانٍ، وأنه توفي بإحدى قرى مصر.

ولم ينبه ذكر الشيخ بين رجال الصوفية، ولم تذع كتبه بين الناس. وقد ذكره محيي الدين بن العربي في كتاب «الفتوحات»، والشَّعراني في «الطبقات الكبرى»، ولكن المأثور من أخباره قليل.

وللشيخ النفري كلمات في التصوف، طائفة منها تبدأ بقوله: أوقفني على كذا، والأخرى تبدأ بقوله: خاطبني . وقد جمع ابن بنته كلماته في كتابيْ «المواقف والمخاطبات» اللذين نشرهما صديقنا العلامة أربري.

وخير تعريف للكتابين أن أعرض على القارئ بعض كلماتهما، فهذه شذرات من المواقف، وفي العدد الآتي ننقل شذرات من المخاطبات.

وسيرى القارئ أن هذا الكتاب بدع من كتب التصوف، وأنه من الأدب الصوفي الذي لا يعرف نظيره».

وقد اختار الدكتور عبد الوهاب عزَّام أربعة مواقف من كتاب «المواقف» وهي: موقف العز، موقف البحر، موقف المطلع، موقف الموت، نشرها مع مقاله القصير.

حتى الثانية عشرة من سِنِّه لم يتعلَّم القراءةَ والكتابةَ، هو من إحدى القرى العراقية في الموصل، وليس لبنانيًّا كما يظنُّ أكثر الناس، بل انتقل من العراق إلى لبنان.

والتحق بمعهد الآباء اليسوعيين في الموصل؛ ليبدأ التعلُّمَ، ومن هذا المعهد انتقل إلى العاصمة الفرنسية باريس؛ ليدرُسَ التصوفَ في جامعة السوربون على يد المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسينيون (1883 – 1962 ميلادية)، الذي درسَ الحلاج ونشر أخبارَه وكُتبه وشِعْره.

ولم أعرف نويا (1925 - 1980 ميلادية) إلا لأنه كان المشرف على أطروحة الدكتوراه لأدونيس، التي قدَّمها في «معهد الآداب الشرقية بجامعة القديس يوسف» – بيروت، وشارك في مناقشتها الدكاترة: سعيد البستاني، وعبد الله عبد الدائم، و أنطون غطاس كرم. والتي صدرت بعد ذلك في كتابٍ من أربعة أجزاء بعنوان: «الثَّابت والمتحول.. بحثٌ في الإبداع والاتباع عند العرب»، وقد أهدى أدونيس كتابه إلى بولس نويا: «إلى بولس نويا.. رمزًا للخُرُوج من المملوكية إلى الحرية». ومن مقدمة بولس لكتاب أدونيس : «ذكرت في الأطروحة أن التراث هو بمثابة الأب. ونحن نعلم منذ فرويد أن الابن لا يستطيع أن يكتسب حريته ويحقق شخصيته إلا إذا قتل أباه.

على الإنسان العربي أن يميت تراث الماضي في صورة الأب لكي يستعيده في صورة الابن».

ولأنه كشف لنا ما لم يكمله المستشرق الإنجليزي أرثر أربري من تراث النفَّري، وهو كتاب «موقف المواقف»، حيث مات أربري وهو يؤمن أنه أدَّى مهمته في كشف «المواقف والمخاطبات»، ولم يكن يعلم أن النفري الجوَّال قد ترك وراءه كنوزًا أخرى سيكشفها لنا نويا.

ونويا من الآباء اليسوعيين، وقد اختير عضوًا في المجلس الوطني للأبحاث العلمية في باريس، وله من الكتب: «مقدمة تفسير القرآن» لعلاء الدولة السمناني (659 - 736 هجرية / 1261 - 1336 ميلادية) ومن أبرز كتبه التي قرأتُها: «رسالة سربال البال لذوي الحال»، وقد صدر عن دار المعارف بمصر، من ترجمة وتحقيق وتقديم الدكتور شعبان ربيع طرطور، ولنويا أيضًا: «رسائل ابن العريف إلى أصحاب ثورة المريدين في الأندلس»، و«نصوص صوفية غير منشورة» لشقيق البلخي وابن عطاء الأدمي، وهو من أعلام التصوف في القرن الرابع الهجري، وقد توفي سنة 309 هجرية - 922 ميلادية، وكان الجُنيد شيخه، والنفري، وكان ذلك سنة 1973 ميلادية، و«الرسائل الصغرى» لابن عباد الرندي، من أعلام التصوف في القرن الثامن الهجري (733 - 792 هجرية/1333 - 1390 ميلادية) .

وقدم نويا تحقيقًا لكتاب «الطواسين» لأبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج، وكان أول مَن

نشر «الطواسين» للحلاج هو لويس ماسينيون في العام 1913 ميلادي.

وقد ألّف الأب نويا باللغة الفرنسيّة كتاب «التأويل القرآنيّ ونشأة اللغة الصوفيّة»، و نشر وترجم مع مقدّمةٍ وحواشٍ، بالاشتراك مع الأب سمير خليل سمير اليسوعيّ المراسلة بين ابن المنجّم وحنين بن إسحاق وقسطا بن لوقا، وأسهم في عدّة أبواب في دائرة المعارف للبستانيّ، ودائرة المعارف الإيرانيّة، ودائرة المعارف الإسلاميّة، وألّف كتابًا للتأمّلات عنوانه «صوت المسيح».

وقد ترجم الأب بولس نويا بعض قصائد جلال الدين الرومي.

ونشر باللغة العربية «تفسير القرآن للإمام جعفر الصادق»، وكتب دراسة عنه بالفرنسية عام 1969ميلادي . كما نشر «تفسير أبي الحسن الحرّالي المراكشي للقرآن»، ونشر رسالته «مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزّل»، ودرس الأب نويا كتاب «معرفة الأسرار» للحكيم الترمذي.

و من كتاب: «اليسوعيّون والآداب العربيّة والإسلاميّة.. سيَر وآثار»، للأب كميل حشيمة اليسوعيّ نعرف أن الأب بولس نُويّا من مواليد قرية إينشكي في منطقة العماديّة في جبال كردستان العراقيّة، وقد أُرسل إلى المعهد الإكليريكي في الموصل لأنّ والده، وهو من أعيان بلدته، كان يرغب في أن يعتنق أحد أفراد عائلته السلك الإكليركيّ، حيث درس العلوم الأدبيّة والفلسفيّة واللاهوتيّة، وأخذ يهتمّ بالشؤون الإسلاميّة، ولا سيّما التصوّف، لما رأى فيه مجالًا للتلاقي بين المسيحيّة والإسلام.

وفي الثانية والعشرين من عمره، وإذ كان بطريرك طائفته يُريد ترقيته إلى درجة الكهنوت، طلب أن يُسمح له بدخول الرهبانيّة اليسوعيّة ليُتاح له تحقيق رغبته على أكمل وجه، واستطاع أن يُقنع الدوائر الرسميّة في روما والتغلّب على ممانعة ذويه، فانضمّ إلى اليسوعيّين بلبنان في مطلع العام 1948 ميلادي.

وبعد سنتي الابتداء في دير بكفيا وخمس سنوات أُخرى لإكمال دروسه الجامعيّة ولا سيّما في الإسلاميّات بإشراف المستشرق لويس ماسينيون، رُسم كاهنًا في الموصل في (29 من يونيو عام 1955 ميلادي). وأنهى مراحل التنشئة بإمضاء سنة في مونستر بألمانيا. وما إن انقضت هذه السنة الأخيرة حتّى عُيّن زائرًا رسوليًّا على رهبانيّة مار هرمز الكلدانيّة مهتمًّا خصوصًا بتنشئة الرهبان الشبّان. إلا أنّه طلب بعد أربع سنوات أن يُعفى من المهمّة الصعبة هذه؛ ليتسنّى له التفرّغ للعمل الجامعيّ والأبحاث العلميّة في مجال اختصاصه.

وقد درس الإسلاميّات في معهد الآداب الشرقيّة ببيروت، وأشرف على سلسلة «بحوث

ودراسات» الصادرة عن المعهد المذكور ودار المشرق اليسوعيّة، والانتهاء من تحرير أطروحته للدكتوراه الّتي تقدّم بها في جامعة السوربون بباريس العام 1970 ميلادي. وبعد ذلك كان يوزّع وقته بين بيروت وباريس، يُشرف على الأطاريح ويُدرّس في جامعة القدّيس يوسف، والمعهد العلميّ للدروس العليا في باريس، متبوّئًا الكرسيّ الّذي سبقه إليه أستاذه، ومن ثمّ صديقه وزميله لويس ماسينيون. إلّا أنّ كثرة أعماله أنهكت قواه، وعاجلته المنيّة بباريس؛ فتوفي بسكتة قلبيّة، وهو لمّا يزل في الخامسة والخمسين، يوم 25 من فبراير 1980 ميلادي.

مختارات من نصوص النفَّري

ومن الأشياء التي توقفت أمامها منذ قراءتي الأولى له في طبعة الكتاب التي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بتحقيق أرثر أربري وتقديم وتعليق الدكتور عبد القادر محمود سنة 1985 ميلادية، وإن كنت اعتمدت في هذه المختارات على طبعة مكتبة المتنبي وهي من دون تاريخ للنشر، وهي صورة طبق الأصل من طبعة دار الكتب المصرية التي صدرت في القاهرة سنة 1935 ميلادية، التي طبعت للمرة الأولى بعد مقابلة سبع نسخ بعناية وتصحيح واهتمام أرثر يوحنا أربري المحاضر بالجامعة المصرية وزميل كلية بمبروك في جامعة كمبردج حسب ما جاء في الغلاف الداخلي من الكتاب، وقد كمل طبع «كتاب المواقف» و«كتاب المخاطبات» بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الخميس 15 من ذي القعدة سنة 1352 هجرية، الأول من مارس سنة 1934 ميلادية، حسب ما أشار محمد نديم ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية.

مختارات من كتاب المواقف

مَوْقِفُ البَحْرِ

أوْقَفني في البَحْرِ فَرَأيْتُ المَرَاكِبَ تَغْرَقُ وَالألْوَاحَ تَسْلَمُ، ثمَّ غَرَقت الألْوَاحُ، وَقالَ لي: لا يَسْلَمُ مَنْ رَكب.

وَقالَ لي: هَلَكَ مَنْ ألْقى بنَفْسِهِ وَلمْ يَرْكَبْ.

وَقالَ لي: في المُخَاطرَةِ جُزْءٌ مِنَ النَّجاةِ، وَجَاءَ المَوْجُ فَرَفَعَ مَا تَحْتَهُ، وَسَاحَ على السَّاحِل.

وَقالَ لي: ظاهِرُ البَحْرِ ضَوْءٌ لا يُبْلَغُ، وَقَعْرُهُ ظُلْمَةٌ لا تُمَكَّنُ، وَبَيْنَهُمَا حِيتانٌ لا تُسْتأمَنُ.

وَقالَ لي: لا تَرْكبِ البَحْرَ، فَأحْجُبُكَ بالآلَةِ، وَلا تُلْقِ نَفْسَكَ فيْهِ فأحْجُبُكَ بهِ.

وَقالَ لي: في البَحْرِ حُدُودٌ، فَأَيُّهَا يُقِلُّكَ.

وَقالَ لي: غَشَشْتُكَ إنْ دَللتُكَ على سِوَايَ.

وَقالَ لي: إنْ هَلَكْتَ في سِوَايَ كُنْتَ لِمَا هَلَكْتَ فيْهِ.

وَقالَ لي: الدُّنيَا لِمَنْ صَرَفْتُهُ عَنْهَا، وَالآخِرَةُ لِمَنْ أقبَلَتُ بهَا إليْهِ وَأقبَلْتُ بهِ عَليَّ.

موقفُ القُرب

أوقفني في القرب وقال لي: ما مني شيء أبعد من شيء، ولا مني شيء أقرب من شيء إلا حكم إثباتي له في القرب والبعد.

وقال لي: البعد تعرفه بالقرب، والقرب تعرفه فيَّ بالوجود.

وأنا الذي لا يرومه القرب، ولا ينتهي إليه الوجود.

وقال لي: أدنى علوم القرب أن ترى آثار نظري في كل شيء فيكون أغلب عليك من معرفتك به.

وقال لي: القرب الذي تعرفه في القرب الذي أعرفه كمعرفتك في معرفتي.

وقال لي: لا بعدي عرفت ولا قربي عرفت ولا وصفي كما وصفي عرفت.

وقال لي: أنا القريب لا كقرب الشيء وأنا البعيد لا كبعد الشيء من الشيء.

وقال لي: قربك لا هو بعدك وبعدك لا هو قربك، وأنا القريب البعيد قربًا هو البعد وبعدًا هو القرب.

وقال لي: القرب الذي تعرفه مسافة، والبعد الذي تعرفه مسافة، وأنا القريب البعيد بلا مسافة.

وقال لي: أنا أقرب اللسان من نطقه إذا نطق، فمَن شهدني لم يذكر ومَن ذكرني لم يشهد.

وقال لي: الشاهد الذاكر إن لم يكن حقيقة ما شهده حجبه ما ذكر.

وقال لي: ما كل ذاكر شاهد وكل شاهد ذاكر.

وقال لي: تعرفت إليك وما عرفتني ذلك هو البعد، رآني قلبك وما رآني ذلك هو البعد.

وقال لي: تجدني ولا تجدني ذلك هو البعد، تصفني ولا تدركني بصفتي ذلك هو البعد، تسمع خطابي لك من قلبك وهو مني ذلك هو البعد، تراك وأنا أقرب إليك من رؤيتك ذلك هو البعد.

موقف الكبرياء

أوقفني في كبريائه وقال لي: أنا الظاهر الذي لا يكشفه ظهوره، وأنا الباطن الذي لا ترجع البواطن بدرك من علمه.

وقال لي: بدأت فخلقت الفرق فلا شيء مني ولا أنا منه، وعدت فخلقت الجمع فيه اجتمعت المتفرقات وتألفت المتباينات.

وقال لي: ما كل عبد يعرف لغتي فتخاطبه، ولا كل عبد يفهم ترجمتي فتحادثه.

وقال لي: لو جمعت قدرة كل شيء لشيء، وحزت معرفة كل شيء لشيء، وأثبت قوة كل شيء لشيء. ما حمل تعرفي بمحوه، ولا صبر على مداومتي بفقد وجده لنفسه.

وقال لي: الأنوار من نور ظهوري بادية وإلى نور ظهوري آفلة، والظلم من فوت مرامي بادية وإلى فوت مرامي آئبة.

وقال لي: الكبرياء هو العز والعز هو القرب والقرب فوت عن علم العالمين.

وقال لي: أرواح العارفين لا كالأرواح وأجسامهم لا كالأجسام.

وقال لي: أوليائي الواقفون بين يدي ثلاثة: فواقف بعبادة أتعرف إليه بالكرم، وواقف بعلم أتعرف إليه بالعزة، وواقف بمعرفة إليه بالغلبة.

وقال لي: نطق الكرم بالوعد الجميل، ونطقت العزة بإثبات القدرة، ونطقت الغلبة بلسان القرب.

وقال لي: الواقفون بي واقفون في كل موقف خارجون عن كل موقف.

موقف قد جاء وقتي

أوقفني وقال لي: إن لم ترني لم تكن بي.

وقَال لِي: إنْ رَأيْت غَيْري.. لمْ تَرنِي.

وقال لي: إشارتي في الشيء تمحو معنى المعنى فيه وتثبته منه لا به.

وقال لي: فيك ما لا ينصرف ولا يصرف.

وقال لي: أصمت لي الصامت منك ينطق الناطق ضرورة.

وقال لي: أثر نظري في كل شيء فإن خاطبته على لسانك قلبته.

وقال لي: اجعل ذكري وراء ظهرك وإلا رجعت إلى سواي لا حائل بينك وبينه.

وقال لي: قد جاء وقتي وآن لي أن أكشف عن وجهي وأظهر سبحاتي ويتصل نوري بالأفنية وما وراءها وتطلع على العيون والقلوب، وترى عدوي يحبني وترى أوليائي يحكمون، فأرفع لهم العروش ويرسلون النار فلا ترجع، وأعمر بيوت الخراب وتتزين بالزينة الحق، وترى قسطي

كيف ينفي ما سواه، وأجمع الناس على اليسر فلا يفترقون ولا يذلون، فأستخرج كنزي وتحقق ما أحققتك به من خبري وعدتي وقرب طلوعي، فإني سوف أطلع وتجتمع حولي النجوم، وأجمع بين الشمس والقمر، وأدخل في كل بيت ويسلمون عليَّ وأسلم عليهم، بذلك بأن لي المشيئة وبإذني تقوم الساعة، وأنا العزيز الرحيم.

من موقف الرحمانية

وقال لي: إذا رأيتني فانصرني، فلن يستطيع نصرتي مَن لم يرني.

وقال لي: إذا لم تقوَ على الحجاب عني فقد آذنتك بخلافتي.

وقال لي: البس خاتمي الذي أتيتك تختم به على كل قلب راغب بالرغبة، وكل راهب بالرهبة، فتحوز ولا تحاز، وتحصر ولا تحصر.

من موقف الوقفة

أوقفني في الوقفة وقال لي: الوقفة ينبوع العلم فمَن وقف كان علمه تلقاء نفسه، ومَن لم يقف كان علمه عند غيره.

وقال لي: الواقف ينطق ويصمت على حكم واحد.

وقال لي: الوقفة نورية تعرِّف القيم وتطمس الخواطر.

وقال لي: الوقفة وراء الليل والنهار ووراء ما فيهما من الأقدار.

وقال لي: الوقفة روح المعرفة والمعرفة روح العلم والعلم روح الحيوة.

وقال لي: كل واقف عارف، وما كل عارف واقف.

وقال لي: الواقفون أهلي، والعارفون أهل معرفتي.

من موقف معرفة المعارف

أوقفني في معرفة المعارف، وقال لي: إذا عرفت معرفة المعارف جعلت العلم دابة من دوابك وجعلت الكون كله طريقًا من طرقاتك.

وقال لي: لمعرفة المعارف عينان تجريان، عين العلم، وعين الحكم، فعين العلم تنبع من الجهل الحقيقي، وعين الحكم تنبع من عين ذلك العلم. فمَن اغترف العلم من عين العلم اغترف العلم والحكم، ومَن اغترف العلم من جريان العلم لا من عين العلم نقلته ألسنة العلوم وميلته تراجم

العبارات فلم يظفر بعلم مستقر ومَن لم يظفر بعلم مستقر لم يظفر بحكم.

وقال لي: قف في معرفة المعارف وأقم في معرفة المعارف تشهد ما أعلمته فإذا شهدته أبصرته، وإذا أبصرته، فرقت بين الحجة الواجبة وبين المعترضات الخاطرة، فإذا فرقت ثبت، وما لم تفرق لم تثبت.

وقال لي: مَن لم يغترف العلم من عين العلم لم يعلم الحقيقة ولم يكن لما علمه حكم، فحلت علومه في قوله لا في قلبه، كذلك تحل فيمَن علم.

وقال لي: اعرف سطوتي تحذر مني ومن سطوتي.

من موقف الأعمال

أوقفني في الأعمال، وقال لي: إنما صفتك الحد، وصفة الحد الجهة، وصفة الجهة المكان، وصفة المكان التجزيء، وصفة التجزيء التغاير، وصفة التغاير الفناء.

وقال لي: إن أردت أن تثبت فقف بين يدي في مقامك ولا تسألني عن المخرج.

وقال لي: تعلم ولا تسمع من العلم واعمل ولا تنظر إلى العمل.

وقال لي: عمل الليل عماد لعمل النهار.

وقال لي: تخفيف عمل النهار أدوم فيه، وتطويل عمل الليل أدوم فيه.

وقال لي: إن لم تعرف صفتك علمت وجهلت وعملت وفترت، فبحسب ما بقي عندك من العلم تعمل وبحسب ما عارضك من الجهل تترك.

وقال لي: زن العلم بميزان النية، وزن العمل بميزان الإخلاص.

من موقف التذكرة

وقال لي: المعرفة ما وجدته، والتحقق بالمعرفة ما شهدته.

وقال لي: لكل شيء شجر، وشجر الحروف الأسماء، فاذهب عن الأسماء تذهب عن المعاني.

وقال لي: إذا ذهبت عن المعاني صلحت لمعرفتي.

من موقف الأمر

أوقفني في الأمر، وقال لي: اكتب مَن أنت لتعرف مَن أنت؛ فإن لم تعرف مَن أنت، فما أنت من أهل معرفتي.

وقال لي: أليس إرسالي إليك العلوم من جهة قلبك إخراجًا لك من العموم إلى الخصوص أوليس تخصيصي لك بما تعرفت به إليك من طرح قلبك وطرح ما بدا لك من العلوم من جهة قلبك إخراجًا لك إلى الكشف أوليس الكشف أن تنفي عنك كل شيء وعلم كل شيء وتشهدني بما أشهدتك فلا يوحشك الموحش حين ذلك ولا يؤنسك المؤنس حين أشهدك وحين أتعرف إليك ولو مرة في عمرك إيذانًا لك بولايتي لأنك تنفي كل شيء بما أشهدتك فأكون المستولي عليك وتكون أنت بيني وبين كل شيء.

من موقف المطلع

أوقفني في المطلع، وقال لي: الباطل يستعير الألسنة ولا يوردها موردها كالسهم تستعيره ولا تصيب به.

وقال لي: الحق لا يستعير لسانًا من غيره.

وقال لي: إذا بدت أعلام الغيرة ظهرت أعلام التحقيق.

وقال لي: إذا ظهرت الغيرة لم تستتر.

وقال لي: المطلع مشكاتي التي مَن رآها لم ينم.

وقال لي: يا عالم اجعل بينك وبين الجهل فرقًا من العلم وإلا غلبك، واجعل بينك وبين العلم فرقًا من المعرفة وإلا اجتذبك.

وقال لي: العلم بابي والمعرفة بوابي.

وقال لي: اليقين طريقي الذي لا يصل سالك إلا منه.

وقال لي: من علامات اليقين الثبات، ومن علامات الثبات الأمن في الروع.

وقال لي: من يعلم عاقبته ويعمل يزدد خوفًا.

وقال لي: الخوف علامة من علم عاقبته، والرجاء علامة من جهل عاقبته.

وقال لي: إن ذهب قلبك عني لم أنظر إلى عملك.

وقال لي: حدِّث عني وعن حقوقي وعن نعمتي فمَن فهم عني فاتخذه عالمًا، ومَن فهم عن حقي فاتخذه نصيحًا، ومَن فهم عن نعمتي فاتخذه أخًا.

وقال لي: مَن لم يفهم عني ولا عن حقي ولا عن نعمتي فاتخذه عدوًّا فإن جاءك بحكمتي فخذها

منه كما تأخذ ضالتك من الأرض المُسبعة.

وقال لي: مَن عبدني وهو يريد وجهي دام، ومَن عبدني من أجل خوفي فتر، ومَن عبدني من أجل رغبته انقطع.

وقال لي: العلماء ثلاثة: فعالم هداه فيَّ قلبه، وعالم هداه فيَّ سمعه، وعالم هداه فيَّ تعلمه.

وقال لي: القراء ثلاثة: فقارئ عرف الكل، وقارئ عرف النصف، وقارئ عرف الدرس.

وقال لي: الكل الظاهر والباطن، والنصف الظاهر، والدرس التلاوة.

وقال لي: إذا تكلم العارف والجاهل بحكمة واحدة فاتبع إشارة العارف وليس لك من الجاهل إلا لفظه.

من موقف العزة

وقال لي: العقل آلة تحمل حدَّها من معرفة، والمعرفة بصيرة تحمل حدَّها من إشهادي، والإشهاد قوة تحمل حدَّها من مرادي.

وقال لي: إذا بدت العظمة رأى العارف معرفته نكرة، وأبصر المحسن حسنته سيئة.

من موقف التقرير

أوقفني في التقرير، وقال لي: خروج الهم عن الحرف وعمَّا ائتلف منه وانفرق.

وقال لي: إذا خرجت عن الحرف، خرجت عن الأسماء، وإذا خرجت عن الأسماء خرجت عن المسميات، وإذا خرجت عن المسميات خرجت عن كل ما بدا، وإذا خرجت عن كل ما بدا، قلت فسمعت، ودعوت فأُجبت.

وقال لي: الواقف لا يعرف المجاز، وإذا لم يكن بيني وبينك مجاز لم يكن بيني وبينك حجاب.

وقال لي: معارف كل شيء توجد به، وأسماؤه من معارفه، وإذا سقطت معارف الشيء سقط الوجد به.

وقال لي: لكل شيء اسم لازم ولكل اسم أسماء، فالأسماء تفرق عن الاسم، والاسم يفرق عن المعنى.

من موقف الرفق

أوقفني في الرفق، وقال لي: حسن الظن طريق من طرق اليقين.

من موقف بيته المعمور

أوقفني في بيته المعمور، وقال لي: القول حجاب فناء القول غطاء فناء الغطاء خطر فناء الخطر صحة، علم ذلك يكون حقيقته لا تكون.

من موقف لا تطرف

أوقفني، وقال لي: كل له علامة ينقسم بها وتنقسم به.

من موقف لا تفارق اسمي

أوقفني، وقال لي: إن لم ترني فلا تفارق اسمي.

وقال لي: إذا وقفت بين يدي فلا يقف معك سواك.

وقال لي: الصدق أن لا يكذب اللسان، والصديقية أن لا يكذب القلب.

وقال لي: كذب اللسان أن يقول ما لم يقل وأن يقول ولا يفعل، وكذب القلب أن يعقد فلا يفعل.

وقال لي: كذب القلب استماع الكذب.

وقال لي: الكذب كله لغة سواي والحق الحقيقي لغتي إن شئت أنطقت بها حجرًا أو بشرًا.

وقال لي: كلما علقك بي فهو نطقي عن لغتي.

وقال لي: التمني من كذب القلب.

وقال لي: الأماني غرس العدو في كل شيء.

وقال لي: الرجاء في مجاورة الأماني والمجاورة اطلاع.

وقال لي: لكل متجاورين صحبة.

من موقف كدت لا أواخذه

أوقفني، وقال لي: أسرع شيء عقوبة القلب.

من موقف لي أعزاء

أوقفني، وقال لي: فرق بين مَن غبت عنه ليعتذر وبين مَن غبت عنه لينتظر.

وقال لي: فارقت المنتظر وطالعت المعتذر.

وقال لي: وعزتي لي أعزاء ما لهم عيون فيكون لهم دموع، ولا لهم إقبال فيكون لهم رجوع.

وقال لي: لي أعزاء ما لهم دنيا فتكون لهم آخرة.

وقال لي: الآخرة أجر لصاحب دنيا بالحق.

من موقف ما تصنع بالمسئلة

أوقفني، وقال لي: كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة.

وقال لي: العبارة ستر فكيف ما ندبت إليه.

وقال لي: مَن لا يعرف نعمتي كيف يشكرني.

من موقف حجاب الرؤية

أوقفني، وقال لي: إن كنت ذا مال فما أنا منك ولا أنت مني.

وقال لي: الغيبة وطن ذكر، الرؤية لا وطن ولا ذكر.

من موقف البصيرة

أوقفني في البصيرة، وقال لي: ما نهاك شيء عن شيء إلا دعاك إليه بما نهاك عنه.

وقال لي : كل شيء سواي يدعوك إليه بشركة وأنا أدعوك إليَّ وحدي.

من موقف الصفح الجميل

أوقفني في الصفح الجميل، وقال لي: رد عليَّ في كل شيء أرد عليك في كل شيء.

وقال لي: اذكرني في كل شيء أذكرك في كل شيء.

من موقف ما لا ينقال

أوقفني في ما لا ينقال، وقال لي: الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه، فكيف يخبر عني.

وقال لي: كل كاتب يقرأ كتابته وكل قارئ يحسب قراءته.

من موقف اسمع عهد ولايتك

أوقفني، وقال لي: اعرف مَن أنت فمعرفتك مَن أنت هي قاعدتك التي لا تنهدم وهي سكينتك التي لا تزل.

وقال لي: إن سر الدعاء الحاجة، وإن سر الحاجة النفس، وإن سر النفس ما تهوى.

من موقف وراء المواقف

أوقفني وراء المواقف، وقال لي: الكون موقف. وقال لي: كل جزئية من الكون موقف.

وقال لي: الوسوسة في كل موقف والخاطر في كل كون.

وقال لي: طافت الوسوسة على كل شيء إلا على العلم.

وقال لي: العقود قائمة في العلوم والوسوسة تخطر في أحكام العلوم.

من موقف الدلالة

أوقفني في الدلالة وقال لي: المعرفة بلاء الخلق خصوصه وعمومه، وفي الجهل نجاة الخلق خصوصه وعمومه.

وقال لي: معرفة لا جهل فيها لا تبدو. جهل لا معرفة فيه لا يبدو.

وقال لي: أدنى ما يبقى من المعرفة اسم البادي.

وقال لي: إذا عرفت مَن تسمع منه عرفت ما تسمع.

وقال لي: لن تعرف مَن تسمع منه حتى يتعرف إليك بلا نطق.

وقال لي: إذا تعرَّف إليك بلا نطق تعرَّف إليك بمعناه فلم تمل في معرفته.

وقال لي: المعرفة نار كل المحبة؛ لأنها تشهدك حقيقة الغنى عنك.

وقال لي: الشهوة نار تأكل الوقار ولا طمأنينة إلا فيه ولا معرفة إلا في طمأنينة.

وقال لي: الهوى يأكل ما دخل فيه.

وقال لي: الجزاء مادة الصبر إن انقطعت عنه انقطع.

وقال لي: الصبر مادة القنوع إن انقطعت عنه انقطع.

وقال لي: القنوع مادة العز إن انقطعت عنه انقطع.

وقال لي: المعرفة الصمتية تحكم والمعرفة النطقية تدعو.

وقال لي: الحكم كفاية والدعاء تكليف.

وقال لي: أنا القريب الذي لا يحسه العلم، وأنا البعيد الذي لا يدركه العلم.

من موقف مَن أنت ومَن أنا

أوقفني وقال لي: مَن أنت، ومَن أنا؛ فرأيت الشمس والقمر والنجوم وجميع الأنوار .

وقال لي: ما بقي نور في مجرى بحري إلا وقد رأيته، وجاءني كل شيء حتى لم يبق شيء فقبَّل بين عيني وسلَّم عليَّ ووقف في الظل.

وقال لي: تعرفني ولا أعرفك، فرأيته كله يتعلق بثوبي ولا يتعلق بي، وقال: هذه عبادتي، ومال ثوبي وما ملت فلما مال ثوبي. قال لي: مَن أنا، فكسفت الشمس والقمر وسقطت النجوم وخمدت الأنوار وغشيت الظلمة كل شيء سواه ولم ترَ عيني ولم تسمع أذني وبطل حسي، ونطق كل شيء فقال: الله أكبر، وجاءني كل شيء وفي يده حربة، فقال لي: اهرب، فقلت: إلى أين، فقال: قع في الظلمة، فوقعت في الظلمة فأبصرت نفسي، فقال لي: لا تبصر غيرك أبدًا ولا تخرج من الظلمة أبدًا فإذا أخرجتك منها أريتك نفسي فرأيتني وإذا رأيتني فأنت أبعد الأبعدين.

من موقف العظمة

أوقفني في العظمة وقال لي: لا تسألني فيما رأيت فإنك غير محتاج، ولو أحوجتك ما أريتك، ولا تقعد في المزبلة؛ فتهر عليك الكلاب، واقعد في القصر المصون، وسد الأبواب، ولا يكون معك غيرك، وإن طلعت الشمس، أو طار طائر؛ فاستر وجهك عنه؛ فإنك إن رأيت غيري عبدته، وإن رآك غيري عبدك، وإذا جئت إليَّ فهات الكل معك وإلا لم أقبلك فإذا جئت به رددته عليك ولا تنفعك شفاعة الشافعين.

من موقف التيه

أوقفني في التيه، وقال لي: اصحب المحجوب، وفارق الموصول وادخل عليَّ بغير إذن؛ فإنك إن استأذنت حجبتك، وإذا دخلت إليَّ، فاخرج بغير إذن؛ فإنك إن استأذنت حبستك، فرأيت كلما أظهر إبرة، وكلما أستر خيطًا.

وقال لي: اقعد في ثقب الإبرة ولا تبرح، وإذا دخل الخيط في الإبرة فلا تمسكه، وإذا خرج فلا تمده، وافرح فإني لا أحب إلا الفرحان، وقل لهم قبلني وحدي وردَّكم كلكم، فإذا جاؤوا معك قبلتهم ورددتك، وإذا تخلفوا عذرتهم ولمتك، فرأيت الناس كلهم براء.

وقال لي: أنت صاحبي، فإن لم تجدني فاطلبني عند أشدهم عليَّ تمردًا، وإذا وجدتني فلا تعصه، وإن لم تجدني؛ فاضربه بالسيف ولا تقتله فأطالبك به، وخلِّ بيني وبينك، ولا تخل بيني وبين الناس، وخاصمني وتوكل لهم عليَّ فإذا أعطيتك ما تريد فاجعله قربانًا للنار، وقف في ظل فقير من الفقراء فسله أن يسألني، ولا تسألني أنت فأمنع غيرك بمسئلتك فتكون ضدًّا لي وأخذلك، فرأيت طرح كل شيء الفوز.

وقال لي: إن طرحت أفلست، وأنا لا أحب إلا الأغنياء، ولا أكره إلا الفقراء، فلا أرى معك غنيًّا ولا فقيرًا؛ فإني لا أنظر إلى الأنواع.

من موقف الثوب

أوقفني في الثوب وقال لي: إنك في كل شيء كرائحة الثوب في الثوب.

وقال لي: ليس الكاف تشبيهًا، هي حقيقة أنت لا تعرفها إلا بتشبيه.

وقال لي: يوم الموت يوم العرس، ويوم الخلوة يوم الأنس.

وقال لي: أنظر إليك في قبرك وليس معك ما أردته ولا ما أرادك.

وقال لي: أنا في عين كل ناظر.

وقال لي: الجزء الذي يعرفني لا يصلح على غيري.

من موقف الاختيار

أوقفني في الاختيار وقال لي: إذا رأيت النار فقع فيها ولا تهرب فإنك إن وقعت فيها انطفت وإن هربت منها طلبتك وأحرقتك.

وقال لي: أنا أوقد النار باليد الثانية.

وقال لي: إذا تكلمت فتكلم، وإذا صمت فاصمت.

وقال لي: اخرج إلى البرية الفارغة واقعد وحدك حتى أراك فإني إذا رأيتك عرجت بك من الأرض إلى السماء ولم أحتجب عنك.

وقال لي: قد جعلت لك في السد أبوابًا بعدد ما خلقت وغرست على كل باب شجرة وعين ماء باردة وأظمأتك ووعزتي لئن خرجت لا رددتك إلى منزل أهلي ولا سقيتك من الماء.

وقال لي: نم لتراني فإنك تراني، واستيقظ لتراك فإنك لن تراني.

وقال لي: اذكرني كما يذكرني الطفل وادعني كما تدعوني المرأة.

من موقف العهد

أوقفني في العهد وقال لي: إن كنت أجير العلم أعطاك الثواب العلم وإن كنت أجير المعرفة أعطتك السكينة.

وقال لي: كن أجيري أرفعك فوق العلم والمعرفة فترى أين يبلغ العلم وترى أين ترسخ المعرفة

فلا يسعك المبلغ ولا يستطيعك الرسوخ.

وقال لي: إذا وقفت بي أعطيتك العلم فكنت أعلم به من العالمين وأعطيتك المعرفة فكنت أعرف بها من العارفين وأعطيتك الحكم فكنت أقوم به من الحاكمين.

وقال لي: الحرف يسري في الحرف حتى يكونه فإذا كانه سرى عنه إلى غيره فيسري في كل حرف فيكون كل حرف.

وقال لي: الحرف الحسن يسري في الحروف إلى الجنة، والحرف السوء يسري في الحروف إلى النار.

وقال لي: اعرف مقامي وقم فيه.

من موقف المراتب

أوقفني في المراتب وقال لي: من عرفني فلا عيش له إلا في معرفتي، ومن رآني فلا قوة له إلا في رؤيتي.

وقال لي: العلم يدعو إلى العمل، والعمل يذكِّر برب العلم وبالعلم، فمن علم ولم يعمل فارقه العلم، ومن علم وعمل لزمه العلم.

وقال لي: مَن فارقه العلم لزمه الجهل وقاده إلى المهالك، ومَن لزمه العلم فتح له أبواب المزيد منه.

وقال لي: أول المشاهدة نفي الخاطر وآخرها نفي المعرفة.

وقال لي: إذا بدا العلم عن المشاهدة أحرق العلوم والعلماء.

من موقف السكينة

أوقفني في السكينة وقال لي: السكينة أن تدخل إليَّ من الباب الذي جاءك منه تعرفي.

وقال لي: فتحت لكل عارف محق بابًا إليَّ فلا أغلقه دونه فمنه يدخل ومنه يخرج وهو سكينته التي لا تفارقه.

وقال لي: أصحاب الأبواب من أصحاب المعارف هم الذين يدخلونها بعلم منها ويخرجون منها بعلم مني.

وقال لي: الصبر من السكينة، والحلم من الصبر، والرفق من الحلم.

من موقف بين يديه

أوقفني بين يديه وقال لي: الحرف حجاب وكلية الحرف حجاب وفرعية الحرف حجاب.

وقال لي: لا يعرفني الحرف، ولا ما في الحرف، ولا ما من الحرف، ولا ما يدل عليه الحرف.

وقال لي: المعنى الذي يخبر به الحرف حرف، والطريق الذي يهدي إليه حرف.

وقال لي: العلم حرف لا يعربه إلا العمل، والعمل حرف لا يعربه إلا الإخلاص، والإخلاص حرف لا يعربه إلا الصبر، والصبر حرف لا يعربه إلا التسليم.

وقال لي: المعرفة حرف جاء لمعنى فإن أعربته بالمعنى الذي جاء له نطقت به.

وقال لي: إذا تعرفت إليك بلا عبارة خاطبك الحجر والمدر.

وقال لي: إن سكنت إلى العبارة نمت، وإن نمت مت، فلا بحيوة ظفرت، ولا على عبارة حصلت.

وقال لي: الأفكار في الحرف، والخواطر في الأفكار، وذكري الخالص من وراء الحرف والأفكار، واسمي من وراء الذكر.

وقال لي: اخرج من العلم الذي ضده الجهل، ولا تخرج من الجهل الذي ضده العلم تجدني.

وقال لي: اخرج من المعرفة التي ضدها النكرة تعرف فتستقر، فيما تعرف فتثبت، فيما تستقر فتشهد، فيما تثبت فتتمكن، فيما تشهد.

وقال لي: العلم الذي ضده الجهل علم الحرف، والجهل الذي ضده العلم جهل الحرف، فاخرج من الحرف تعلم علمًا لا ضد له وهو الرباني، وتجهل جهلًا لا ضد له وهو اليقين الحقيقي.

وقال لي: إذا جزت الحرف وقفت في الرؤية.

وقال لي: لن تقف في الرؤية حتى ترى حجابي رؤية ورؤيتي حجابًا.

وقال لي: من علوم الرؤية أن تشهد صمت الكل، ومن علوم الحجاب أن تشهد نطق الكل.

وقال لي: من علوم صمت الكل أن تشهد عجز الكل ومن علوم نطق الكل أن تشهد تعرض الكل.

وقال لي: من علوم القرب أن تعلم احتجابي بوصف تعرفه.

وقال لي: إن جئتني بعلم أي علم جئتك بكل المطالبة وإن جئتني بمعرفة أي معرفة جئتك بكل الحجة.

وقال لي: إذا جئتني فألقِ العبارة وراء ظهرك، وألقِ المعنى وراء العبارة، وألقِ الوجد وراء

المعنى.

وقال لي: إذا جئتني فألقِ ظهرك، وألقِ ما وراء ظهرك، وألقِ ما قدَّامك، وألقِ ما عن يمينك، وألقِ ما عن شمالك.

وقال لي: لن تلقى في موتك إلا ما لقيته في حيوتك.

وقال لي: إن خرجت من معناك خرجت من اسمك، وإن خرجت من اسمك وقعت في اسمي.

من موقف قلوب العارفين

أوقفني في قلوب العارفين وقال لي: آية معرفتي أن لا تسألني عني ولا عن معرفتي.

وقال لي: لن تدوم في عمل حتى ترتبه، وتقضي ما يفوت منه، وإن لم تفعل لم تعمل، ولم تدم.

وقال لي: وزن معرفتك كوزن ندمك.

وقال لي: قلوب العارفين ترى الأبد وعيونهم ترى المواقيت.

وقال لي: قل للعارفين كونوا من وراء الأقدار فإن لم تستطيعوا فمن وراء الأفكار.

وقال لي: قل لقلوب العارفين من أكل في المعرفة ونام في المعرفة ثبت فيما عرف.

وقال لي: التقط الحكمة مَن أفواه الغافلين عنها كما تلتقطها من أفواه العامدين لها، إنك تراني وحدي في حكمة الغافلين لا في حكمة العامدين.

وقال لي: اكتب حكمة الجاهل، كما تكتب حكمة العالم.

من موقف حق المعرفة

أوقفني في حق المعرفة وقال لي: الحجاب يهتك وللهتك صولة لا تقوم لها فطر المخترعين.

وقال لي: لو رفع الحجاب ولم يهتك سكن من تحته وإنما يهتك فإذا هتك ذهلت معرفة العارفين فتكسى في الذهول نورًا تحمل به ما بدا بعد هتك الحجاب؛ لأنها لا تحمل بمعارف الحجاب ما بدا عند هتك الحجاب.

من موقف عهده

أوقفني في عهده وقال لي: احفظ عليك مقامك وإلا ماد بك كل شيء.

وقال لي: مقامك هو الرؤية ،...

وقال لي: الليل والنهار ستران ممدودان على جميع مَن خلقت وقد اصطفيتك؛ فرفعت السترين

لتراني، وقد رأيتني؛ فقف في مقامك بين يديَّ، قف في رؤيتي، وإلا اختطفك كل كون.

وقال لي: إذا اصطفيت أخًا، فكن معه فيما أظهر، ولا تكن معه فيما أسر، فهو له من دونك سر؛ فإن أشار إليه، فأشر إليه، وإن أصفح فأفصح به.

وقال لي: اسمي وأسمائي عندك ودائعي، لا تخرجها فأخرج من قلبك.

وقال لي: إن خرجت من قلبك عبد ذلك القلب غيري.

من موقف أدب الأولياء

أوقفني في أدب الأولياء وقال لي: مقام الولي بيني وبين كل شيء فليس بيني وبينه حجاب.

وقال لي: سميت وليّ وليّ لأن قلبه يليني دون كل شيء فهو بيتي الذي فيه أتكلم.

من موقف الليل

أوقفني في الليل وقال لي: ألقِ الجهل من يديك، وخذ العلم فاصرف به عنك البلاء، وأقم في العلم وإلا أخذك البلاء.

وقال لي: احتجب عن البلاء بالعلم وإلا لم ترَ نوري وبينتي.

من موقف محضر القدس الناطق

أوقفني بين يديه وقال لي: ألفت بين كل حرفين بصفة من صفاتي فتكونت الأكوان بتأليف الصفات لها والصفة لا ينقال هي فعاله وبها تثبت المعاني وعلى المعاني ركبت الأسماء.

من موقف الكشف والبهوت

أوقفني في الكشف والبهوت وقال لي: الحجب خمسة: حجاب أعيان، وحجاب علوم، وحجاب حروف، وحجاب أسماء، وحجاب جهل.

وقال لي: الدنيا والآخرة وما فيهما من خلق هو حجاب أعيان وكل عين من ذلك فهي حجاب نفسها وحجاب غيرها.

وقال لي: العلوم كلها حجب كل علم من حجاب نفسه وحجاب غيره.

وقال لي: حجاب العلوم يرد إلى حجاب الأعيان بالأقوال وبمعاني الأقوال، وحجاب الأعيان يرد إلى حجاب العلوم بمعاني الأعيان وبسرائر مجهولات الأعيان.

وقال لي: حجاب الأعيان منصوب في حجاب العلوم، وحجاب العلوم منصوب في حجاب

الأعيان.

وقال لي: حجاب الحروف هو الحجاب الحكمي، وحجاب الحكم هو من وراء العلوم.

وقال لي: لحجاب العلوم ظاهر، هو علم الحروف، وباطن هو حكم الحروف.

من موقف المحضر والحرف

أوقفني في المحضر، وقال لي: الحرف حجاب والحجاب حرف.

وقال لي: اطرح ذنبك تطرح جهلك.

وقال لي: أوقفت الحرف قدام الكون، وأوقفت العقل قدام الحرف، وأوقفت المعرفة قدام العقل، وأوقفت الإخلاص قدام المعرفة.

وقال لي: لا يعرفني الحرف ولا يعرفني ما عن الحرف ولا يعرفني ما في الحرف.

وقال لي: إنما خاطبت الحرف بلسان الحرف فلا اللسان شهدني ولا الحرف عرفني.

وقال لي: النعيم كله لا يعرفني والعذاب كله لا يعرفني.

وقال لي: العلم المستقر هو الجهل المستقر.

وقال لي: إنما توسوس الوسوسة في الجهل وإنما تخطر الخواطر في الجهل.

وقال لي: العارف يخرج مبلغه عن الحرف فهو مبلغه وإن كانت الحروف ستره.

وقال لي: الحرف دليل العلم والعلم معدن الحرف.

وقال لي: أصحاب الحروف محجوبون عن الكشوف قائمون بمعانيهم بين الصفوف.

وقال لي: معناك أقوى من السماء والأرض.

وقال لي: معناك يبصر بلا طرف ويسمع بلا سمع.

وقال لي: معناك لا يسكن الديار ولا يأكل من الثمار.

وقال لي: معناك لا يجنّه الليل ولا يسرح بالنهار.

وقال لي: معناك لا تحيط به الألباب ولا تتعلق به الأسباب.

وقال لي: اذكرني تعرفني وانصرني تشهدني.

وقال لي: أنا القريب فلا بيان قرب، وأنا البعيد فلا بيان بعد.

وقال لي: أنا الظاهر لا كما ظهرت الظواهر، وأنا الباطن لا كما بطنت البواطن.

وقال لي: الاسم ألفٌ معطوف.

وقال لي: العلم من وراء الحروف.

وقال لي: المحضر خاص ولكل خاص عام.

وقال لي: الحضرة تحرق الحرف، وفي الحرف الجهل والعلم ففي العلم الدنيا والآخرة، وفي الجهل مطلع الدنيا والآخرة...

وقال لي: ما النار، قلت: نور من أنوار السطوة، قال: ما السطوة، قلت: وصف من أوصاف العزة، قال: ما العزة، قلت: وصف من أوصاف الجبروت، قال: ما الجبروت، قلت: وصف من أوصاف الكبرياء، قال: ما الكبرياء، قلت: وصف من أوصاف السلطان، قال: ما السلطان، قلتُ: وصف من أوصاف العظمة، قال: ما العظمة، قلتُ: وصفٌ من أوصاف الذات، قال: ما الذات، قلتُ أنت الله لا إله إلا أنت، قال: قلت الحق، قلت: أنت قوَّلتني، قال: لترى بينتي.

وقال لي: ما الجنة، قلت: وصف من أوصاف التنعيم، قال: ما التنعيم، قلت: وصف من أوصاف اللطف، قال: ما اللطف، قلت: وصف من أوصاف الرحمة، قال: ما الرحمة، قلت: وصف من أوصاف الكرم، قال: ما الكرم، قلت: وصف من أوصاف العطف ، قال: ما العطف، قلت: وصف من أوصاف الود، قال: ما الود، قلت: وصف من أوصاف الحب، قال: ما الحب، قلت: وصف من أوصاف الرضا، قال: ما الرضا، قلت: وصف من أوصاف الاصطفاء، قال: ما الاصطفاء، قلت: وصف من أوصاف النظر، قال: ما النظر، قلت: وصف من أوصاف الذات، قال: ما الذات، قلت: أنت الله، قال: قلت الحق، قلت: أنت قوَّلتني، قال: لترى نعمتي.

وقال لي: إن لم تقف وراء الوصف أخذك الوصف.

وقال لي: إن أخذك الوصف الأعلى أخذك الوصف الأدنى.

وقال لي: إن أخذك الوصف الأدنى فلا أنت مني ولا من معرفتي.

وقال لي: القرآن يبني والأفكار تغرس.

وقال لي: الحرف يسري حيث القصد جيم جنة جيم جحيم.

وقال لي: مَن أهل النار، قلت: أهل الحرف الظاهر، قال: مَن أهل الجنة، قلت: أهل الحرف الباطن، قال لي: ما الحرف الظاهر، قلت: علم لا يهدي إلى عمل، قال: ما الحرف الباطن، قلت:

علم يهدي إلى حقيقة، قال: ما العمل، قلت: الإخلاص، قال لي: ما الحقيقة، قلت: ما تعرَّفت به، قال لي: ما الإخلاص، قلت: لوجهك، قال: ما التعرُّف، قلت: ما تلقيه إلى قلوب أوليائك.

وقال لي: القول الخالص موقوف على العمل، والعمل موقوف على الأجل، والأجل موقوف على الطمأنينة، والطمأنينة موقوفة على الدوام.

من موقف الصفح والكرم

أوقفني في الصفح والكرم، وقال لي: تعرَّفتُ إلى القلم بمعرفةٍ من معارف الإثبات، وتعرَّفتُ إلى اللوح بمعرفةٍ من معارف الحزن.

من موقف القوة

أوقفني في وصف القوة، وقال لي: المعدن مستقر، وللمستقر أبواب، وللأبواب طرق، وللطرق فجاج، وللفجاج أدلاء، وللأدلاء زاد، وللزاد أسباب.

وقال لي: الأجل مجمع الواقفين ومفرق المعلولين.

من موقف الصفح الجميل

أوقفني في الصفح الجميل، وقال لي: أقم في مقامك تشرب من عين الحيوة فلا تموت في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال لي: إن لم تدر مَن أنت لم تفد علمًا ولم تكسب عملًا.

من موقف العبادة الوجهية

أوقفني في العبادة الوجهية، وقال لي: إذا سميتك فلم تعمل على التسمية، فلا اسم لك عندي ولا عمل.

وقال لي: إذا سميتك فعملت على التسمية، فأنت من أهل الظل.

وقال لي: أهل الأسماء أهل الظل.

وقال لي: يا كاتب النور المنشور على سرادقات العظمة اكتب على رفارفها تسبيح ما سبح واكتب على تسبيح ما سبح معرفة من عرف.

مختارات من كتاب المخاطبات

من مخاطبة 1

يا عبد إن لم تعرف مَن أنت مني لم تستقر في معرفتي.

يا عبد إن لم تستقر في معرفتي لم تدرِ كيف تعمل لي.

يا عبد إن عرفت مَن أنت مني كنت من أهل المراتب.

يا عبد اعرف مَن أنت يكن أثبت لقدمك ويكن أسكن لقلبك.

يا عبد الجأ إليَّ في كل حال أكن لك في كل حال.

من مخاطبة 4

يا عبد آية معرفتي أن تزهد في كل معرفة...

يا عبد اعتبر محبتي بنصري لك.

يا عبد لئن أقمت في رؤيتي لتقولن للماء أقبل وأدبر.

يا عبد إذا رأيتني فالعلم ماء من مائك، فأجره أين شئت؛ لتثبت به ما شئت.

من مخاطبة 5

.. ورأيتني من وراء القول ولم ترَ القول...

من مخاطبة 6

.. الابتداء طاعة المحب.

من مخاطبة 7

يا عبد الهم المحزون كالمعول في الجدار المائل.

يا عبد لكل شيء قلب وقلب القلب همه المحزون.

يا عبد القلب ينقلب قلب القلب لا ينقلب.

من مخاطبة 8

يا عبد مَن لا يستحيي لزيادة العلم لا يستحيي أبدًا.

من مخاطبة 12

الملتفت لا يمشي معي ولا يصلح لمسامرتي.

يا عبد مَن لا قرار له لا معرفة له.

من مخاطبة 13

يا عبد اجعلني صاحب سرك أكن صاحب علانيتك، اجعلني صاحب وحدتك أكن صاحب جمعك، اجعلني صاحب خلوتك أكن صاحب ملائك.

وقل لي سد باب قلبك الذي يدخل منه سواي لأن قلبك بيتي...

من مخاطبة 14

يا عبد مَن لم يرني في الدنيا لا يراني في الآخرة.

يا عبد رؤية الدنيا توطئة لرؤية الآخرة.

يا عبد مَن رآني جاز النطق والصمت.

من مخاطبة 15

يا عبد من رآني عرفني وإلا فلا، من عرفني صبر علي وإلا فلا.

يا عبد من صبر عن سواي أبصر نعمتي وإلا فلا.

يا عبد من أبصر نعمتي شكرني وإلا فلا.

يا عبد من شكرني تعبد لي وإلا فلا.

يا عبد من تعبد لي أخلص وإلا فلا، من أخلص لي قبلته وإلا فلا، من قبلته كلمته وإلا فلا.

يا عبد من كلمته سمع مني وإلا فلا، من سمع مني أجابني وإلا فلا، من أجانبي أسرع إليَّ وإلا فلا، من أسرع إليَّ جاورني وإلا فلا، من جاورني أجرته وإلا فلا، من أجرته نصرته وإلا فلا، من نصرته أعززته وإلا فلا.

من مخاطبة 17

يا عبد أنا أقرب من الحرف وإن نطق، وأنا أبعد من الحرف وإن صمت.

كل حجاب ظلمة لأن النور لي وأنا النور...

من مخاطبة 19

يا عبد لا تكن بالعلم فيزل بك، ولا تكن بالمعرفة فتتنكر عليك.

يا عبد أخرج قلبك من المؤتلف تخرج من المختلف.

من مخاطبة 21

كلما كان أخف كان أسرع...

كلما كان أكظم كان أعظم...

كلما كان أدأب كان أقرب.

من مخاطبة 23

يا عبد إذا كنت بي لا يسعك المكان، وإذا نطقت بي لم يسعك النطق.

يا عبد الحرف خزانتي فمَن دخلها فقد حمل أمانتي...

يا عبد الحرف لغات وتصريف وتفرقة وتأليف وموصول ومقطوع ومبهم ومعجم وأشكال وهيئات، والذي أظهر الحرف في لغة هو الذي صرَّفه والذي صرَّفه هو الذي فرَّقه والذي فرَّقه هو الذي ألَّفه والذي ألَّفه هو الذي واصل فيه والذي واصل فيه هو الذي قطعه والذي قطعه هو الذي أبهمه والذي أبهمه هو الذي أعجمه والذي أعجمه هو الذي أشكله والذي أشكله هو الذي هيَّأه، ذلك المعنى هو معنى واحد ذلك المعنى هو نور واحد ذلك الواحد هو الأحد الواحد.

من مخاطبة 25

يا عبد ابنِ لقلبك بيتًا جدرانه مواقع نظري...

يا عبد أصل المعصية لِمَ وأصل الطاعة سقوط لِمَ.

من مخاطبة 26

يا عبد إذا رأيتني في الضدين رؤية واحدة فقد اصطفيتك بنفسي.

يا عبد الغيبة أن لا تراني في شيء، الرؤية أن تراني في كل شيء.

يا عبد اجعل لي يومًا ولك يومًا وابتدئ بيومي يحمل يومك يومي.

يا عبد اصبر لي يومًا أكفك غلبة الأيام.

من مخاطبة 27

يا عبد الاسم سترة على العين.

يا عبد الكشف جنة الجنة، الغطاء نار النار.

من مخاطبة 28

يا عبد يومك هو عمرك.

يا عبد لا تصح المحادثة إلا بين ناطقٍ وصامت.

من مخاطبة 30

يا عبد صاحب الرؤية يفسده العلم كما يفسد الخل العسل.

يا عبد في الدواء عين من الداء.

يا عبد الرؤية علم الإدامة فاتبعه تغلب على الضدية.

من مخاطبة 31

يا عبد الروح والرؤية ألفان مؤتلفان.

من مخاطبة 32

يا عبد الكون كالكرة والعلم كالميدان.

من مخاطبة 34

يا عبد من دلَّ على الحجاب فقد رفعت له نار الوصول.

يا عبد لا تبع داءك إلا بالدواء فهو قيمته.

من مخاطبة 37

يا عبد الرؤية باب الحضرة.

يا عبد قيمة كل امرئ حديث قلبه.

من مخاطبة 38

يا عبد الزينة تطفئ الغضب.

يا عبد طهور الجسم الماء وطهور القلب الغض عن السوى.

من مخاطبة 41

يا عبد أنا الظاهر فلا تحجبني الحواجب، وأنا الباطن فلا تظهرني الظواهر.

يا عبد أنا القيوم فلا أنام، وأنا المثبت الماحي فلا أسام.

يا عبد أنا الأحد فلا توحدني الأعداد، وأنا الصمد فلا تعاليني الأنداد.

من مخاطبة 52

يا عبد الحروف كلها مرضى إلا الألف، أما ترى كل حرف مائل، أما ترى الألف قائمًا غير مائل، إنما المرض الميل، وإنما الميل للسقام فلا تمل.

من مخاطبة 53

يا عبد الحرف ناري، الحرف قدري، الحرف حتمي من أمري، الحرف خزانة سري.

يا عبد لا تدخل إلى الحرف إلا ونظري في قلبك، ونوري على وجهك، واسمي الذي ينفسح له قلبك على لسانك.

يا عبد لو دخلت بقوة النار لأكلتكما نار الحرف.

يا عبد لا أقول لك ألقِ المفاتيح بين يدي حضرتي أكرم بها في سريرتك فمقامك من وراء الحرف لديَّ ومن وراء مفاتيح الحروف، فإذا أرسلتك إلى الحروف فلتقتبس حرفًا من حرف كما تقتبس نارًا من نار أقول لك أخرج ألفًا، من باء، أخرج باءٍ من باءً أخرج ألفًا من ألف.

من مخاطبة وبشارة وإيذان الوقت

أوقفني الربُّ وقال لي: قل للشمس أيتها المكتوبة بقلم الرب أخرجي وجهك، وابسطي من أعطافك، وسيري حيث ترين فرحك على همك، وأرسلي القمر بين يديك، ولتحدق بك النجوم الثابتة، وسيري تحت السحاب واطلعي على قعور المياه، ولا تغربي في المغرب، ولا تطلعي في المشرق وقفي للظل...

المراجع

1- الأب بولس نويا اليسوعيّ، نصُوص صوفية غير منشورة، معهد الآداب الشرقية، الطبعة الأولى، بيروت، 1973م.

2- ابن الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2017م.

3- ابن العربي، محيي الدين، ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت، 1961م.

4- ابن العربي، محيي الدين، رسالةُ الذي لا يُعوَّلُ عليه، دار الكرمة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2017م.

5- ابن العربي، محيي الدين، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة، 1985م.

6- ابن العربي، محيي الدين، فصوص الحكم، تعليقات أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1946م.

7- ابن العربي، محيي الدين، الكوكب الدُّري في مناقب ذي النون المصري، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الجزيرة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.

8- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، من دون تاريخ.

9- أدونيس، الثَّابت والمتحول.. بحثٌ في الإبداع والاتباع عند العرب، دار الساقي، لندن، 2011م.

10- بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، 1993م.

11- البرسي، الحافظ رجب، مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2017م.

12- التلمساني، عفيف الدين، شرح مواقف النفري، دراسة وتحقيق وتعليق جمال المرزوقي، الطبعة الأولى 1997م، والطبعة الثانية، دار المحروسة، القاهرة، 2018م.

13- الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2003م.

14- الجيلي، عبد الكريم، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

15- ديوان أبي بكر الشبلي، تحقيق كامل مصطفى الشيبي، منشورات الجمل، ألمانيا – بغداد، 2014م.

16- ديوان أبي بكر الشبلي، موفق فوزي الجبر، دار بترا، دمشق، 1999م.

17- ديوان ذي النون المصري، إعداد وتحقيق أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، مكتبة رجب، القاهرة، 2015م.

18- الرومي، جلال الدين، المثنوي – الجزء الثاني، ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا، بلدية قونية المدينة الأم، رقم الكتاب 100، قونية، تركيا، 2006م.

19- السُّلَمِي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين، تاريخ الصوفية: وبذيله مِحَنِ الصُّوْفِيَّةِ، الطبعة الأولى، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2015م.

20- السُّلَمِي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين، طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م.

21- السيوطي، جلال الدين، المكنُون في مناقب ذي النون (المصري الإخميمي) تحقيق عبد الرحمن حسن محمود، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، القاهرة، 1991م.

22- الطوسي، أبو نصر عبد الله السراج، اللُّمع، طبعة الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور في القاهرة 1960م المأخوذة عن طبعة أربري»، دار الكتب الحديثة بمصر.

23- عزام، عبد الوهاب، مجلة الرسالة، القاهرة، 6من مايو سنة 1935م.

24- العطار، فريد الدين، تذكرة الأولياء، ترجمة وتقديم وتعليق منال اليمني عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة، 2006م.

25- الغراب، محمود، الحب والمحبة الإلهية: من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، دمشق، مطبعة نضر، الطبعة الثانية، 1992م.

26- القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، تحقيق وضبط وتقديم أحمد عبد الرحيم السايح [و] توفيق علي وهبة [و] عامر النجار، ج 1 - 2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م.

27- القشيري، عبد الكريم بن هوازن، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمد بن

الشريف، دار المعارف، القاهرة، 2019 م.

28- الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحاق، التعرُّف لمذهب أهل التصوف، دار الوراق للنشر، لندن، 2010م.

29- محمود، عبد الحليم، تاج الصوفية أبو بكر الشبلي.. حياته وآراؤه، دار المعارف، القاهرة، 1993م.

30- محمود، عبد الحليم، العالم العابد العارف بالله ذو النون المصري، الطبعة الثانية، دار الرشاد، القاهرة، 2004م.

31- موفق الدين بن عثمان، «مرشد الزوار إلى قبور الأبرار»، المسمَّى الدُّر المنظَّم في زيارة الجبل المقطم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1995م.

32- النفري، الأعمال الصوفية، راجعها وقدم لها سعيد الغانمي، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، ألمانيا – بغداد، 2007م.

33- النفري - كتاب المواقف لمحمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري ويليه كتاب المخاطبات له أيضًا، أرثر يوحنا أربري، مكتبة المتنبي، القاهرة، 1934م.

34- النفري، النصوص الكاملة، دراسة وتقديم جمال المرزوقي، الطبعة الأولى، دار المحروسة، القاهرة، 2018م.

35- الهجويري، أبو الحسن، كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1974م.

أحمد الشهاوي

سيرة ذاتية

وُلد بمدينة دمياط في 12 من نوفمبر عام 1960م، وعاش فيها خمس سنواتٍ، ثم انتقل مع أسرته للعيش في قريته «كفر المياسرة»، حيث درس المرحلة الابتدائية بها، ثم المرحلتين الإعدادية والثانوية بـ «الزَّرْقَا»، والتحق بعد ذلك بكلية التربية في دمياط جامعة المنصورة «قسم الرياضيات»، ظل عامًا واحدًا بها، قبل أن يلتحق بقسم الصحافة في كلية الآداب بسوهاج – جامعة أسيوط، وتخرج في مايو 1983م.

شارك – أيام دراسته الصحافة – في تأسيس جريدة «صوت سوهاج»، وهي جريدة شهرية يحرِّرها طلاب قسم الصحافة، وكان يرأس القسم الثقافي بها، ثم التحق بالجيش المصري لأداء الخدمة العسكرية في أبريل 1984م، وأثناء أداء الواجب الوطني، كان قد دخل جريدة الأهرام في الأوَّل من يناير 1985م؛ ليعمل في قسم الأخبار، وفي 18 من فبراير 1990م صدرت مجلة «نصف الدنيا» الأسبوعية عن مؤسسة الأهرام، ليتولى مهام سكرتير تحريرها، ثم نائبًا لرئيس التحرير في مايو 2000م، ثم مديرًا للتحرير، وهو من المؤسِّسين لها، ثم صار بعد ذلك كاتبًا متفرِّغًا بالأهرام.

وفي سبتمبر 1991م، شارك في برنامج الكُتَّاب الدوليين International Writing Program بالولايات المتحدة الأمريكية لمدة ثلاثة أشهر، وتم منحه شهادة الزمالة في الأدب من جامعة أيوا الأمريكية في 12 من ديسمبر 1991م. وفي سبتمبر 1994م حاز على دبلوم خاص في الثقافة والعلوم من المركز الأيوني Ionic Center، باليونان، كما تُرجمت قصائده إلى لغات عدَّة، وصدرت في كتبٍ، ومختاراتٍ كثيرةٍ حول العالم.

- عضو في الموسوعة العالمية للشّعر who's who منذ عام 1992م.
- حاز جائزة اليونسكو في الآداب عام 1995م.
- شارك في برنامج مؤسسة جيراسي الإبداعية، أكتوبر 1995م، سان فرانسيسكو، كاليفورنيا.
- حاز جائزة كفافيس الدولية في الشّعر، مايو 1998م.
- عضو لجنة الشّعر بالمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة أكتوبر2001- 2006م.
- أصدر له مهرجان الشّعر العالمي، روتردام، كتابيْ مختارات شعرية باللُّغتين الإنجليزية والهولندية، يونيو 2004م.

• منذ يوليو 1987م، يجوبُ الآفاقَ مسافرًا في رحلاتٍ أدبية وثقافية وشعرية إلى بلدان العالم: الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، فرنسا، ألمانيا، إسبانيا، تركيا، هولندا، إيطاليا، بلجيكا، مقدونيا، الدانمارك، سويسرا، بريطانيا، اليونان، الأردن، سورية، العراق، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا، ليبيا، اليمن، الإمارات، الكويت، قطر، السعودية، سلطنة عُمَان، البحرين، كولومبيا، كوستاريكا، نيكاراجوا، جواتيمالا، السلفادور، الإكوادور، الأرجنتين، المكسيك، الهند.

• تناول شِعْرَهُ عدد وافر من الكتب والدراسات النقدية، وكذا عدد من أطروحات الماجستير والدكتوراه في الجامعات المصرية والعربية.

صدر له:

الشِّعر :

1. «ركعتان للعشق»، دار ألف للنشر، القاهرة، 1988م.
2. الأحاديث «السِّفْر الأول»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991م.
3. الأحاديث «السِّفْر الثاني»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م، مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، 1999م.
4. كتاب الموت، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1997م.
5. قُلْ هي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2000م.
6. لِسانُ النَّار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2005م، وزارة الثقافة والسياحة، طبعة ثانية، صنعاء، 2005م.
7. بابٌ وَاحِدٌ وَمَنَازِلُ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2009م.
8. أسوقُ الغمام، كتاب أخبار اليوم، القاهرة، 2010م.
9. سماءٌ باسمي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2013م، الطَّبعة الثانية 2018م. (القائمة الطويلة لجائزة زايد للكتاب سنة 2014م).
10. لا أراني، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2018 م. (القائمة الطويلة لجائزة زايد للكتاب سنة 2018م).
11. ما أنا فيه، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2020 م. (القائمة الطويلة لجائزة زايد للكتاب

سنة 2020م).

مختارات من شعره:

1. الأحاديث «مختارات»، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1996م.

2. مياهٌ في الأصابع، «مختارات» الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2002م. مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، طبعة ثانية خاصة في 25 ألف نسخة، القاهرة، سبتمبر 2002م.

3. أنا خطأ النُّحاة، مختارات، دار خطوط وظلال، عمَّان، الأردن، 2021م.

أدب العشق :

1- «كتاب العشق»، دار سعاد الصباح، القاهرة، 1992م.

2- أحوال العاشق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1996م، مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، طبعة خاصة في 25 ألف نسخة، القاهرة، 2001م، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثالثة، 2002م.

3- الوصايا في عشق النساء (الكتاب الأوَّل)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة يوليو 2003م، مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، طبعة ثانية خاصة في 25 ألف نسخة، القاهرة يوليو 2003م، طبعة ثالثة 2010م.

4- الوصَايا في عِشْقِ النساءِ (الكتاب الثَّاني)، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة 2006م.

5- أنا مَنْ أَهْوَى.. 600 طريق إلى العِشْق، الدار المصرية اللبنانية 2016م - الطبعة الثانية 2017م، الطبعة الثالثة 2018م.

6– كُنْ عاشقًا، الدار المصرية اللبنانية، 2019 م.

فلسفة الدين:

1- نواب الله، الدار المصرية اللبنانية، 2016م، الطَّبعة الثانية 2017م.

2- عدماء الدين، الدار المصرية اللبنانية، 2022 ميلادية.

الأدب الصوفي :

- سلاطين الوجد.. دولة الحُب الصُّوفي، الدار المصرية اللبنانية، 2022م.

كتب عن الشَّاعر:

• حوار القرآن والشعر عند أحمد الشهاوي، د. حياة الخياري، الدار المصرية اللبنانية، 2012م.

ترجمات لأعماله:

1. «مياهٌ في الأصابع» Agua En Los Dedos باللُّغة الإسبانية، ترجمة ميلاجروس نوين Milagros Nuin، المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، مدريد 2002م.

- طبعة جديدة مضافًا إليها مختارات من الوصايا في عشق النساء «الكتاب الأول» عن جامعة كوستاريكا بالاشتراك مع مهرجان الشعر العالمي في كوستاريكا 2008م.

• مشيت في أحرفك زارعًا زماني (مختارات شعرية) باللغة التركية، Harflerind Yuru Dum Zamanimi ekerek، ترجمة متين فندقجي – دار Artshop، إستنبول، تركيا، 2010م.

• لا أحد يفكر في اسمي (مختارات شعرية)، Nadie Piensa en mi mombre باللغة الإسبانية، ترجمة د. محمد أبو العطا – سان خوسيه- كوستاريكا، 2011م.

• باب واحد ومنازل Une Seule porte et Des Demeures، ترجمة د. محمد ميلود غرافي، Aile Edition نانت، فرنسا، 2013م.

• لِسانُ النَّار Atesin Dili، ترجمة متين فندقجي، دار النشر artshop، إستنبول، تركيا، 2013م.

• سماءٌ باسمي Benim adima bir gokyuzu، ترجمة د. محمد حقِّي صوتشين، Kirmizi، إستنبول، تركيا، 2013م.

• سماءٌ باسمي Un cielo con mi nombre، ترجمة د. عبير عبد الحافظ، سان خوسيه، كوستاريكا، 2014م، طبعة أخرى، Ediciones El Quirofano الإكوادور، 2014م.

• كل شيء يبدأ من وردتكِ (مختارات شعرية) Ogni cosa comincia dalla tua rosa– روما Aletti Editiore– ترجمة الرَّدَّاد شرَّاطي، روما 2019 م.

• لا أراني No me veo ترجمة د. عبير عبد الحافظ، سان خوسيه، كوستاريكا 2019 م.

قيد النشر:

1. طبقات الكافر (رواية).

2. كِتَّانُ الآلِهَة.

3. مَنْزِلُ الألف (سيرةٌ في الشّعْر).

4. اسمُهُ أَحْمَد.

5. الوصَايا في عِشْقِ النِّسَاءِ (الكتاب الثَّالث).

6. وهديناه النهدين.

7. حجاب الساحر (رواية).

عنوان البريد الإلكتروني:

ahmad_shahawy@hotmail.com

فهرس